

المسيران
نفسي العقل

للعامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد العاشر

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان



الميزات
في
تفسير القرآن
١٠



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

المبشرات

في

تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
تفسير القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء العاشر

منشورات

مؤسسة الأعلى للطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠



تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف دام ظله

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة يونس وهي مائة وتسع آيات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ - ١ .
أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
لَسَاحِرٌ مُبِينٌ - ٢ . إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ - ٣ . إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ
مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ - ٤ . هُوَ الَّذِي جَعَلَ
الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ
مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - ٥ . إِنَّ
فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ - ٦ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَأَظْمَأْتُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ — ٧ . أُولَئِكَ مَاوِيَهُمُ النَّارُ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ — ٨ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ
رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ — ٩ . دَعَوَاهُمْ
فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ — ١٠ .

(بيان)

السورة — كما يلوح من آياتها — مكية من السور النازلة في أوائل البعثة وقد
نزلت دفعة للاتصال بالظاهر بين كراتهم آياتها ، وقد استثنى بعضهم قوله تعالى : « فإن
كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » الى تمام
ثلاث آيات فذكر أنها مدنية ، وبعضهم قوله تعالى : « ومنهم من يؤمن به ومنهم
من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » فذكر أنها نزلت في اليهود بالمدينة ، ولا دليل
من جهة اللفظ على شيء من القولين .

وغرض السورة وهو الذي أنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول في التوحيد
من طريق الانذار والتبشير كأنها أنزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على
النبي ﷺ وتسميتهم القرآن بالسحر فردّ الله سبحانه ذلك عليهم ببيان أن القرآن
كتاب سماوي نازل بعلمه تعالى ، وأن الذي يتضمنه من معارف التوحيد كوحدةانيته
تعالى وعلمه وقدرته وانتهاء الخلقة إليه وعجائب سننه في خلقه ورجوعهم جميعاً إليه
بأعمالهم التي سيجزون بها خيراً أو شراً كل ذلك مما تدل عليه آيات السماء والأرض
ويهتدي إليه العقل السليم فهي معان حقة ولا يدل على مثلها إلا كلام حكيم لا سحر
مزوّق باطل .

والدليل على ما ذكرنا افتتاح السورة بالكلام على تكذيبهم القرآن : « أكان للناس عجباً أن أوحينا - الى قوله - قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » واختتامها بمثل قوله : « واتبع ما يوحى إليك واصبر » الآية ثم عوده تعالى الى مسألة الايحاء بالقرآن وتكذيبهم له في تضاعيف الآيات مرة بعد مرة كقوله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » الآية ، وقوله : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » الآية ، وقوله : « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة » الآية ، وقوله : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك » الآية .

فتكرر هذه الآيات والافتتاح والاختتام بها يدل على أن الكلام مبني على تعقيب إنكارهم لكلام الله وتكذيبهم الوحي ولذلك كان من عمدة الكلام في هذه السورة الوعيد على مكذبي آيات الله من هذه الأمة بعذاب يقضي بين النبي ﷺ وبينهم وأن ذلك من سنة الله في خلقه ، وعلى تعقيب تخرم السورة حق كاد يكون بيان هذه الحقيقة من مختصات هذه السورة فمن الحري أن تعرف السورة بأنها سورة الإنذار بالقضاء العدل بين النبي ﷺ وبين أمته وقد اختتمت بقوله : « واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

قوله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب الحكيم » الإشارة باللفظ الدال على البعد للدلالة على ارتفاع مكانة القرآن وعلو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش .

والآية - ومعناها العلامة - وإن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعاني أو الأعيان الخارجية كما في قوله : « أولم يكن لهم آية أن يعطاه علماء بني اسرائيل » الشعراء : ١٩٧ وفي قوله : « وجعلناها وابنها آية للعالمين » الانبياء : ٩١ وكذا ما هو من قبيل القول كما في قوله ظاهراً : « وإذا بدا لنا آية مكان آية » النمل : ١٠١ ونحو ذلك لكن المراد بالآيات هنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإن الكلام في الوحي النازل على النبي ﷺ وهو كلام متلو مقرو بأي معنى من المعاني صوراً نزول الوحي .

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي ، وتتمين في الجملة من جهة المقاطع التي

تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانة ما من ذوق التفاهم، ولذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين والبصريين وغيرهم .

والمراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة ، وربما قيل : إن الحكيم من الفعل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل للانشлам والفساد ، والكتاب الذي هذا شأنه — وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي — هو القرآن المنزل على النبي ﷺ .

وربما قيل : إن الكتاب الحكيم هو اللوح المحفوظ ، وكون الآيات آياته هو أنها نزلت منه وهي محفوظة فيه ، وهو وإن لم يخل عن وجه بالنظر الى أمثال قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ وقوله : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ لكن الأظهر من الآية التي نحن فيها وسائر ما في سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتحة بالحروف « الر » وسائر الآيات المشابهة لها أو الناظرة الى وصف القرآن ان المراد بالكتاب وبآياته هو هذا القرآن المتلو المقرو وآياته المتلوة المقروة بما أنه من اللوح المحفوظ من التغيير والبطلان كالكتاب المأخوذ بوجه من الكتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الحجر : ١ ، وقوله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، وغير ذلك .

قوله تعالى : « أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم » الى آخر الآية الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إحياء الله الى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنية .

وقوله : « أن أنذر الناس » الخ تفسير لما أوحى إليه ، ويتبين به أن الذي ألقاه إليه من الوحي هو بالنسبة الى عامة الناس إنذار وبالنسبة الى الذين آمنوا منهم خاصة تبشير فهو لا محالة يضر الناس على بعض التقادير وهو تقدير الكفر والعصيان وينفعهم على تقدير الايمان والطاعة .

وقد فسر البشري الذي أمره أن يبشر به المؤمنين بقوله : « أن لهم قدم صدق عند ربهم » والمراد بقدم الصدق هو المنزلة الصادقة كما يشير إليه قوله : « في

مقعد صدق عند مليك مقتدر ، القمر : ٥٥ فإن الايمان لما استتبع الزلفى والمنزلة عند الله كان الصدق في الايمان يستتبع الصدق في المنزلة التي يستتبعها فلهم منزلة للصدق كما أن لهم إيمان الصدق .

فإطلاق القدم على المنزلة والمكانة من الكناية ولما كان إشغال المكان عادة إنما هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديات ، وفي المكانة والمنزلة إن كان في المعنويات ثم أضيفت القدم الى الصدق ، وهو صدق صاحب القدم في شأنه أي قدم منسوبة الى صدق صاحبها او قدم هي صادقة لصدق صاحبها في شأنه .

وهناك معنى آخر وهو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدماً والكذب قدماً وقدام الصدق هي التي تثبت ولا تزول .

وقوله : « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » أي النبي ﷺ ، وقرئ : « إن هذا لسحر مبين » أي القرآن ومآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه ﷺ بالسحر من جهة القرآن الكريم .

والجملـة كالتعليل لقوله : « كان للناس عجبا » يمثل به معنى تعجبهم وهو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاماً من غير نوع كلامهم خارقاً للعادة المألوفة في سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب وتتوله إليه النفوس فقالوا : إنه لسحر مبين ، وإن الجائي به لساحر مبين .

قوله تعالى : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام » لما ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي وهو القرآن على النبي ﷺ وتكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى في بيان ما كذبوا به من الجهتين أعني من جهة أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه ، ومن جهة أن القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهي حق وليس من السحر الباطل في شيء .

فقوله : « إن ربكم الله » الخ ، شروع في بيان الجهة الاولى وهي أن ما يدعوك إليه النبي ﷺ مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه ويجب عليكم أن تتبعوه .

والمعنى : إن ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كله

سماواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي إليه ينتهي كل تدبير وإدارة فشرع يدبر أمر العالم ، وإذا انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد بأعضاء لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور - وهو الشفاعة - إلا من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه ، ومن دونه من الأسباب أسباب بقائه وشفعاء من بعد إذنه .

وإذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذي يدبر أمركم لا غيره مما اتخذتموها أرباباً من دون الله وشفعاء عنده ، وهو المراد بقوله : « ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » أي هلاً انتقلتم انتقالاً فكرياً إلى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل في معنى الألوهية والخلق والتدبير .

وقد تقدم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله : « إن ربكم الله » الأعراف : ٥٤ في الجزء الثامن من الكتاب .

قوله تعالى : « إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً » تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدء ، وقوله : « وعد الله حقاً » من قيام المفعول المطلق مقام فعله ، والمعنى : وعده الله وعداً حقاً .

والحق هو الخبر الذي له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقاً معناه كون الخلقة الإلهية بنحو لا تتم خلقة إلا برجوع الأشياء - ومن جملتها الإنسان - إليه تعالى وذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجي من الأرض والسقوط والاستقرار عليها ، والأشياء على حال كدح إلى ربها حتى تلاقيه ، قال تعالى : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه » الانشقاق : ٦ فافهم ذلك .

قوله تعالى : « إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط » الخ تأكيد لقوله : « إليه مرجعكم جميعاً » وتفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع والمعاد .

ويمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدمه من قوله : « إليه مرجعكم » الخ

أشير به الى حجتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد : أما قوله : « إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده » فلأن الجاري من سنة الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شيء ويمده من رحمته بما تتم له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعم برحمة منه تعالى ما دام موجوداً حتى ينتهي الى اجل معدود .

وليس انتهاءه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه وبطلاناً للرحمة الإلهية التي كان بها وجوده وبقاؤه وسائر ما يلحق بذلك من حياة وقدرة وعلم ونحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه الله عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه .

فنفاد وجود الأشياء وانتهائها الى أجلها ليس فناء منها وبطلاناً لها على ما تنوهم بل رجوعاً وعوداً منها الى عنده وقد كانت نزلت من عنده ، وما عند الله باق فلم يكن إلا بسطاً ثم قبضاً فالله سبحانه يبدؤ الأشياء ببسط الرحمة ، ويعيدها إليه بقبضها وهو المعاد الموعود .

وأما قوله : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » الخ فإن الحجة فيه أن العدل والقسط الإلهي - وهو من صفات فعله - يألئ أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحاً ومن استكبر عليه وكفر به وبآياته ، والطائفتان لا يحس بينهما بفرق في الدنيا وإنما السيطرة فيها للأسباب الكونية بحسب ما تنفع وتضر بإذن الله .

فلا يبقى إلا أن يفرق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاء حسناً والكفار المسيئين جزاء سيئاً من جهة ما يتلذذون به او يتألمون . فالحجة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح والكفر وعلى قوله : « بالقسط » هذا ، وقوله : « ليجزي » متعلق بقوله : « إليه مرجعكم جميعاً » على ظاهر التقرير .

ويمكن أن يكون قوله : « ليجزي » الخ متعلقاً بقوله : « ثم يعيده » ويكون الكلام مسوقاً للتعليل وإشارة الى حجة واحدة وهي الحجة الثانية المذكورة ، والأقرب من جهة اللفظ هو الأخير .

قوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » الى آخر الآية ، الضياء - على ما قيل - مصدر ضاء يضيء ضوءً وضياء كعاذ يعوذ عوداً وعواذاً ، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط ، واللفظ - على ما قيل - على تقدير مضاف والأصل جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور .

وكذلك قوله : « وقدره منازل » اي وقدر القمر ذا منازل في مسيره ينزل كل ليلة منزلاً من تلك المنازل غير ما نزله في الليلة السابقة فلا يزال يتباعد من الشمس حتى يوافيها من الجانب الآخر ، وذلك في شهر قمرى كامل فترسم بذلك الشهور وترسم بالشهور السنون ، ولذلك قال : « لتعلموا عدد السنين والحساب » .

والآية تنبئ عن حجة من الحجج الدالة على توحيده تعالى في ربوبيته للناس وتنزله عن الشركاء ، والمعنى أنه هو الذي جعل الشمس ضياء تستفيدون منه في جميع شؤون حياتكم كما يستفيد منه ما في عالمكم الأرضي من موجود مخلوق ، وكذا جعل القمر نوراً يستفاد منه ، وقدره ذا منازل يؤدي اختلاف منازلها الى تكوّن الشهور والسنين فتستفيدون من ذلك في العلم بعدد السنين والحساب ولم يخلق ما خلق من ذلك بما يترتب عليه من الغايات والفوائد إلا بالحق فانها غايات حقيقية منتظمة تترتب على خلقها ما خلق فليست بلفظ باطل ولا صفة اتفاقية .

فهو تعالى إنما خلق ذلك ورتبه على هذا الترتيب لتدبير شؤون حياتكم وإصلاح أمور معاشكم ومعادكم فهو ربكم الذي يملك أمركم ويدبر شأنكم لا رب سواه .

وقوله : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجي او بحسب البيان اللفظي ، ولعل الأول اقرب الى سياق الآية .

قوله تعالى : « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » قال في المجمع : الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في جهة غير جهة الآخر فاختلف الليل والنهار ذهاب احدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام ، انتهى . والظاهر أنه مأخوذ من الخلف ، والأصل في معناه أخذ أحد الشيئين الآخر في جهة خلفه ثم اتسع فاستعمل في كل تغاير كائن بين شيئين .

يقال : اختلفه اي جعله خلفه ، واختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه ، واختلفه ، الناس اليه اي ترددوا بالدخول عليه والخروج من عنده فجعل بعضهم بعضاً خلفه . والمراد باختلاف الليل والنهار إما ورود كل منها على الأرض خلف الآخر وهو توالي الليل والنهار الراسم للأسابيع والشهور والسنين ، وإما اختلاف كل من الليل والنهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل والنهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في الزيادة في المناطق الشمالية فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ أول الصيف فيأخذ في النقيصة حتى يبلغ الاعتدال الخريفي وهو أول الخريف فيتساويان .

ثم يأخذ الليل في الزيادة على النهار الى أول الشتاء وهو منتهى طول الليالي ثم يعود راجعاً الى التساوي حتى ينتهي الى الاعتدال الربيعي وهو أول الربيع هذا في المناطق الشمالية والأمر في المناطق الجنوبية بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً في أحد الجانبين زاد الليل طولاً في الجانب الآخر بنفس النسبة .

والاختلاف الأول بالليل والنهار هو الذي يدبر أمر أهل الأرض بتسليط حرارة الأشعة ثم بسط برد الظلمة ونشر الرياح وبعث الناس للحركة المعاشية ثم جمعهم للسكن والراحة ، قال تعالى : « وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » النبا : ١١ .

والاختلاف الثاني هو الذي يرسم الفصول الأربعة السنوية التي يدبر بها أمر الأقوات والأرزاق كما قال تعالى : « وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

والنهار واليوم مترادفان إلا أن في النهار - على ما قيل - فائدة اتساع الضياء ولعله لذلك لا يستعمل النهار إلا بعناية مقابلته الليل بخلاف اليوم فإنه يستعمل فيما لا عناية فيه بذلك كما في مورد الإحصاء يقال : عشرة أيام وعشرين يوماً وهكذا ، ولا يقال : عشرة نهارات وعشرين نهاراً وهكذا .

والآية تشتمل على حجة تامة على توحيده تعالى في ربوبيته فان اختلاف الليل

والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض يحمل نظاماً واحداً عاماً متقناً يدبر به أمر الموجودات الأرضية والسماوية وخاصة العالم الانساني تدبيراً واحداً يتصل ببعض أجزائه ببعض على أحسن ما يتصور .

وهو يكشف عن ربوبية واحدة ترب كل شيء ومنه الانسان فلا رب إلا الله سبحانه لا شريك له في ربوبيته .

ومن المحتمل أن يكون قوله : « إن في اختلاف الليل والنهار » الخ ، في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » لمكان إن ، والأنسب على هذا أن يكون المراد باختلاف الليل والنهار تواليها على الأرض دون الاختلاف بالمعنى الآخر فان هذا المعنى من الاختلاف هو الذي يسبق الى الذهن من قوله في الآية السابقة : « جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل » وهو ظاهر .

قوله تعالى : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » الى آخر الآيتين . شروع في بيان ما يتفرع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله : « ذلكم الله ربكم فاعبدوه » من حيث عاقبة الأمر في استجابته وردة وطاعته ومعصيته .

فبدء سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون » فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه ، وهو الرجوع الى الله بالبعث يوم القيامة ، وقد تقدم الكلام في وجه تسميته بلقاء الله في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء ، وبإنكاره يسقط الحساب والجزاء فالوعد والوعيد والأمر والنهي ، وبسقوطها يبطل الوحي والنبوة ومما يتفرع عليه من الدين السماوي .

وبإنكار البعث والمعاد ينعطف هم الانسان على الحياة الدنيا فان الانسان وكذا كل موجود ذي حياة له هم فطري ضروري في بقائه وطلب لسعادة تلك الحياة فان كان مؤمناً بحياة دائمة تسع الحياة الدنيوية والاخرية معاً فهو ، وإن لم يذعن إلا بهذه الحياة المحدودة الدنيوية علقت همه الفطرية بها ، ورضي بها

وسكن بسببها عن طلب الآخرة ، وهو المراد بقوله : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » .

ومن هنا يظهر أن الوصف الثاني أعني قوله : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » من لوازم الوصف الأول أعني قوله : « لا يرجون لقاءنا » وهو بمنزلة المفسر بالنسبة إليه ، وأن الباء في قوله : « اطمأنوا بها » للسببية أي سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخرة .

وقوله : « والذين هم عن آياتنا غافلون » في محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينها من التلازم فإن نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفك عن الغفلة عن آيات الله .

والآية قريبة المضمون من قوله تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله » الآية النجم : ٣٠ حيث دل على أن الإعراض عن ذكر الله وهو الغفلة عن آياته يوجب قصر علم الإنسان في الحياة الدنيا وشؤونها فلا يريد إلا الحياة الدنيا وهو الضلال عن سبيل الله ، وقد عرّف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب في قوله : « إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص - ٢٦ .

فقد تبين أن إنكار اللقاء ونسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياة الدنيا والإطمئنان إليها من الآخرة وقصر العلم عليه وانحصار الطلب فيه ، وإذا كان المدار على حقيقة الذكر والطلب لم يكن فرق بين إنكاره والرضى بالحياة الدنيا قولاً وفعلًا أو فعلًا مع القول الخالي به .

وتبين أيضاً أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التي يتقوم بها الدين إذ بسقوطه يسقط الأمر والنهي والوعيد والنبوة والوحي وهو بطلان الدين الإلهي من رأس .

وقوله : « أولئك ماوام النار بما كانوا يكسبون » بيان لجزائهم بالنار الخالدة قبال أعمالهم التي كسبوها .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » الى آخر الآية ، هذا بيان لعاقبة أمر المؤمنين وما يثيبهم الله على استجابتهم لدعوته وطاعتهم لأمره .

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم ، وإنما يهديهم الى ربهم لأن الكلام في عاقبة أمر من يرجو لقاء الله ، وقد قال تعالى : « ويهدي إليه من أناب » الرعد : ٢٧ . فإنما يهدي الإيمان بإذن الله الى الله سبحانه وكلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل ومدارج تنتهي بالآخرة إليه تعالى ، قال تعالى : « وأن الى ربك المنتهى » النجم : ٤٢ .

وقد وصف المؤمنين بالإيمان والأعمال الصالحة ثم نسب هدايتهم إليه الى الإيمان وحده فإن الإيمان هو الذي يصعد بالعبد الى مقام القرب ، وليس للعمل الصالح إلا اعانة الإيمان وإسعاده في عمله كما قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » المجادلة : ١١ حيث ذكر للرفع الإيمان والعلم وسكت عن العمل الصالح ، وأوضحه منه في الدلالة قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » قاطر : ٢٠ .

هذا في الهداية التي هي شأن الإيمان ، وأما نعم الجنة فإن للعمل الصالح دخلاً فيها كما أن للعمل الطالح دخلاً في أنواع العذاب وقد ذكر تعالى في المؤمنين قوله : « تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » كما ذكر في الكافرين قوله : « أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

وليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر هؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم ، ومن نعيمها الأنهار التي تجري من تحتهم فيها ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم » الحمد : ٧ وقوله : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم » الآية النساء : ٦٩ أن النعم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية ، وقد خص الله أوليائه المقربين بنوع من شراب الجنة اعتنى به في حقهم كما قال : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » الإنسان : ٦ ، وقال أيضاً : « إن الأبرار لفي

نعم - الى أن قال - يسقون من رحيق مختوم - الى أن قال - عينا يشرب بها
المقربون ، المطففين : ٢٨ ، وعليك بالتدبر في الآيات وتطبيق بعضها على بعض
حق ينجلي لك بعض ما أودعه الله سبحانه في كلامه من الأسرار اللطيفة .

قوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانهك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم
أن الحمد لله رب العالمين » أول ما يكرم به الله سبحانه أوليائه - وهم الذين ليس
في قلوبهم إلا الله ولا مدبر لأمرهم غيره - أنه يطهر قلوبهم عن محبة غيره فلا
يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشيء إلا الله وفي الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك
يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر الله سبحانه ، وعن أي شاغل يشغلهم عن ربهم .

وهذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم
او في المعنى او نقص او عدم ، وتسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط بل قولاً
وفعلاً ولساناً وجناناً ، وما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك ، وقد قال تعالى :
« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

وهؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذارة حب غيره الشاغلة عن ذكره وملأها
بحبه فلا يريدون إلا إياه وهو سبحانه الخير الذي لا شر معه قال : « والله خير »
طه : ٧٣ .

فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملأى بالخير والسلام أحداً إلا بخير وسلام اللهم
إلا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدل الخير والسلام شراً وضراً كما أن
القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خساراً .

ثم إن هذه القلوب الطاهرة لاتواجه شيئاً من الأشياء إلا وهي تجده وتشاهده
نعمة الله سبحانه حاكية لصفات جماله ومعاني كاله واصفة لعظمته وجلاله فكلها
وصفوا شيئاً من الأشياء وهم يرونه نعمة من نعم الله ويشاهدون فيه جماله تعالى في
أسمائه وصفاته ولا يغفلون ولا يسهون عن ربهم في شيء كان وصفهم لذلك الشيء
وصفاً منهم لربهم بالجليل من أفعاله وصفاته فيكون ثناء منهم عليه وحمداً منهم له

فليس الحمد إلا الثناء على الجميل من الفعل الاختياري .

فهذا شأن أوليائه تعالى وهم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد فاذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده وأدخلهم في رحمته وأسكنهم دار كرامته أتم لهم نورهم الذي كان خصهم به في الدنيا كما قال تعالى : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتم لنا نورنا » التحريم : ٨ .

فسقام شراباً طهوراً يطهر به سرائرهم من كل شرك جلي وخفي ، وغشيم بنور العلم واليقين ، وأجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزّاهوا الله وسبّحوه أولاً وسلموا على رفقاءهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ثم حمدوا الله سبحانه وأثنوا عليه بأبلغ الحمد وأحسن الثناء .

وهذا هو الذي يقبل الانطباق عليه — والله اعلم — قوله في الآيتين : « تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » وفيه ذكر جنة الولاية وتطهير قلوبهم : « دعواهم فيها سبحانك اللهم » وفيه تنزيه تعالى وتبليغه عن كل نقص وحاجة وشريك تنزيهاً على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم « وتحيتهم فيها سلام » وهو توسيم اللقاء بالأمن المطلق ، ولا يوجد في غيرها من الأمن إلا اليسير النسبي « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » وفيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسبيحهم له وتنزيههم ، وهذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنة في كمال العلم .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » الحمد : ٢ أن الحمد توصيف ، ولا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه وخصتهم بكرامة من القرب لا واسطة فيها بينهم وبينه قال تعالى : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ .

ولذلك لم يحك في كلامه حمده إلا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح وإبراهيم ومحمد وداود وسليمان عليهم السلام كقوله فيما أمر به نوحاً : « فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين » المؤمنون : ٢٨ ، وقوله حكاية عن إبراهيم : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق » إبراهيم : ٣٩ ، وقوله فيما أمر به محمد ﷺ

في عدة مواضع : « قل الحمد لله » النمل : ٩٣ ، وقوله حكاية عن داود وسليمان :
« وقالوا الحمد لله » النمل : ١٥ .

وقد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنة في عدة مواضع من كلامه كقوله :
« وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا » الأعراف : ٤٣ ، وقوله أيضاً : « وقالوا الحمد لله
الذي أذهب عنا الحزن » فاطر : ٣٤ ، وقوله أيضاً : « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا
وعده » الزمر : ٧٤ ، وقوله في هذه الآية : « وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين » .

والآية تدلّ على أن الله سبحانه يلحق أهل الجنة من المؤمنين بالآخرة بعباده
المخلصين ففيها وعد جميل وبشارة عظيمة للمؤمنين .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام
في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » الآية قال : الولاية .
وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم بن عمر الجاني عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام
في قول الله : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » قال : هو رسول
الله ﷺ .

أقول : ورواه القمي في تفسيره مسنداً والعياشي في تفسيره مرسلًا عن إبراهيم
ابن عمر عن ذكره عنه عليه السلام . والظاهر أن المراد به شفاعته عليه السلام .

وبدل على ذلك ما رواه الطبرسي في المجمع حيث قال : قيل : قدم صدق
شفاعة محمد ﷺ . قال : وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وما رواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله :
« قدم صدق عند ربهم » قال : محمد ﷺ شفيع لهم يوم القيامة .

وفي تفسير العياشي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله عن
التسبيح قال : هو اسم من أسماء الله ودعوى أهل الجنة .

أقول : ومراده بالتسبيح قولنا : سبحان الله ، ومعنى اسميته دلالة على تنزيهه تعالى .

وفي الاختصاص بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث طويل مع يهودي وقد سأله عن مسائل :

قال ﷺ : إذا قال العبد : سبحان الله سبع كل شيء معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها ، وإذا قال : الحمد لله أنعم الله عليه بنعم الدنيا حتى يلقاه بنعم الآخرة ، وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها ، والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله ، وذلك قوله : تحيتهم يوم يلقونه سلام .

أقول : وقوله : « والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله » أي جميع الكلام المستعمل في الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانية والكلام المستعمل في العبادات لغرض الثواب ونحو ذلك ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلك عن هذه المقاصد الدنيوية ، ولا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله والثناء عليه بالجميل وهو كلام أهل الجنة فيها .

وقوله : وذلك قوله : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » معناه أن كون التحية يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناك إلا موافقة كل شيء وملائته لما يريده الإنسان فكل ما يريده فهو له فلا يستعمل هناك كلام لتحصيل غاية من الغايات على حد الكلام الدنيوي إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى فافهم ذلك .

* * *

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ
فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ - ١١ . وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ

مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ١٢ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ - ١٣ . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ - ١٤ .

(بيان)

لما ذكر سبحانه الأصلين من أصول الدعوة الحقّة وهما التوحيد والمعاد واحتج عليهما من طريق العقل الفطري ثم أخبر عن عاقبة الإيمان والكفر بهما بحث عن سبب إهلاك الناس وعدم تعجيل نزول العذاب بسأحتهم مع تماديهم في غيهم وضلالهم وعمهم في طغيانهم وما هو السبب الذي يوجب لهم ذلك فبين أن الأمر بين لا ستر عليه ، وقد بينه لهم رسل الله بالبينات لكن الشيطان زين لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا ونسوا بعد ما ذكروا ثم لم يعجل الله لهم العذاب بل أمهلهم في الدنيا الى حين ليبتليهم ويمتحنهم فإنما الدار دار ابتلاء وامتحان .

قوله تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجلوا بالخير » الخ ، تعجيل الشيء الإتيان به بسرعة وعجلة ، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة ، والعمه شدة الخيرة .

ومعنى الآية : ولو يعجل الله للناس الشر وهو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمة لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فينذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربة الدين يتحيرون في طغيانهم أشد التحير .

وتوضيحه أن الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره ونفعه أي .
إنه يطلب من الأسباب أن تسرع في إنتاج ما يبتغيه ويريده فهو في الحقيقة يطلب
الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنه السبب في ذلك بالحقيقة فهذه سنة الإنسان
وهي مبنية على الأهواء النفسانية فإن الأسباب الواقعة ليست في نظامها تابعة لهوى
الإنسان بل العالم الإنساني هو التابع الجاري على ما يحريه عليه نظام الأسباب
اضطراباً أحب ذلك أو كرهه .

ولو أن السنة الإلهية في خلق الأشياء والإتيان بالمسببات عقيب أسبابها اتبعت
أو شابهت هذه السنة الانسانية المبنية على الجهل فعمّلت المسببات والآثار عقيب
أسبابها لأسرع الشر وهو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإن سببه قائم معه ، وهو
الكفر بعدم رجاء لقاء الله والطغيان في الحياة الدنيا لكنه تعالى لا يعجل الشر لهم
كاستعجالهم بالخير لأن سنته مبنية على الحكمة بخلاف سنتهم المبنية على الجهالة فيذرهم
في طغيانهم يعمهون .

وقد بان بذلك أولاً: أن في قوله « لقضي إليهم أجلهم » نوعاً من التضمن فقد
ضمن فيه « قضى » معنى مثل الإنزال أو الإبلاغ ولذا عدي بإلى .

والمعنى قضى منزلاً أو مبلغاً إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم أجلهم مقضياً
وهو كناية عن نزول العذاب فالكلمة من الكناية المركبة .

وثانياً : أن في قوله : « فنذر الذين » التفاتاً من الغيبة إلى التكلم مع الغير ،
ولعل النكتة فيه الإشارة إلى توسط الأسباب في ذلك فإن المذكور من أفعاله تعالى
في الآية وما بعدها كتركهم في عمهم وكشف الضر والتزيين والإهلاك أمور يتوسل
إليها بتوسط الأسباب ، والعظماء إذا أرادوا أن يشيروا إلى دخل أعوانهم وخدمهم
في بعض أمورهم أتوا بصيغة المتكلم مع الغير .

قوله تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » إلى
آخر الآية . الضر بالضم ما يسّ الإنسان من الضرر في نفسه ، وقوله : « دعانا لجنبه
أو قاعداً أو قائماً » أي دعانا منبسطاً لجنبه الخ ، والظاهر أن التردد للتعميم أي
دعانا على أي حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرّاً على دعائه لا

ينسانا في حال ، ويمكن أن يكون «جنبه» الخ ، أحوالاً ثلاثة من الانسان لا من فاعل دعانا والعامل فيه «مس» والمعنى اذا مس الانسان الضر وهو منبسط او قاعد او قائم دعانا في تلك الحال وهذا معنى ما ورد في بعض المرسلات : «دعانا جنبه» العليل الذي لا يقدر أن يجلس «او قاعداً» الذي لا يقدر أن يقوم «او قائماً» الصحيح .

وقوله : «مر» كأن لم يدعنا الى ضررته ، كناية عن النسيان والغفلة عما كان لا يكاد ينسأ .

والمعنى : وإذا مس الانسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضرره وأصر على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضرره الذي مسه نسينا وترك ذكرنا وانجذبت نفسه الى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زين للمسرفين المفرطين في التمتع بالزخارف الدنيوية أعمالهم فأورثهم نسيان جانب الربوبية والاعراض عن ذكر الله تعالى .

وفي الآية بيان السبب في تمادي منكري المعاد في غيهم وضلاتهم وخصوصية سببه وهو أن هؤلاء مثلهم كمثل الانسان يمس الضر فيذكر ربه ويلج عليه بالدعاء لكشف ضرره حتى اذا كشف عنه الضر - ولذلك كان يدعوه - مر لوجه متوغلاً في شهواته وقد نسي ما كان يدعوه ويذكره فلم يكن تركه لدعاء ربه بعد ذكره إلا معلولاً لما زين له من عمله فأورثه النسيان بعد الذكر .

فكذلك هؤلاء المسرفون زين لهم أعمالهم فجذبتهم الى نفسها ففسدوا ربهم بعد ذكره ، وقد ذكرهم الله مقامه بإرسال الرسل الى من قبلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا وإهلاك القرون من قبلهم بظلمهم وهذه هي السنة الإلهية يحزي القوم المجرمين .

ومن هنا يظهر أن الآية التالية : «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم» الخ ، متمم للبيان في هذه الآية : «واذا مس الانسان الضر» دعانا «الى آخر الآية» .

قوله تعالى : «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم» الى آخر الآية ، قد ظهر معناه مما تقدم ، وفي الآية التفات في قوله : «من قبلكم» من الغيبة الى الخطاب ،

وكان النكته فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار والتخويف بالمشافهه أوقع أثراً ، وأبلغ من غيره .

ثم في قوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » التفات آخر بتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ ، والنكته فيه أنه إخبار عن السنه الإلهية في أخذ المجرمين ، والنبي ﷺ هو الأهل لفهمه والإذعان بصدقه دونهم ولو أذعنوا بصدقه لآمنوا به ولم يكفروا ، وهذا بخلاف قوله : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ... وجاءتهم رسلهم » فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به .

قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف من بعدهم لننظر كيف تعملون » معناه ظاهر ، وفيه بيان أن سنه الامتحان والابتلاء عامة جارية .

* * *

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ
يَقْرَأَن غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي
إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ - ١٥ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ
لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ - ١٦ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُبْجِرُونَ - ١٧ .
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِشُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ - ١٨ . وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً

وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيهَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ - ١٩ . وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ - ٢٠ . وَإِذَا أَدْقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ
أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ - ٢١ . هُوَ الَّذِي
يُسِيرُكُمْ فِي بُرٍّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ
طَبِيبَةٌ وَفَرُّحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ
أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ - ٢٢ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
- ٢٣ . إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - ٢٤ . وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - ٢٥ .

(بيان)

احتجاجات يلقيها الله سبحانه نبيه ﷺ ليردّ بها ما قالوه في كتاب الله او في آلهتهم او اقترحوه في نزول الآية .

قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير هذا او بدّله » هؤلاء المذكورون في الآية كانوا قوماً وثنيين يقدّسون الأصنام ويعبدونها ، ومن سنتهم التوغل في المظالم والآثام واقتراف المعاصي ، والقرآن ينهى عن ذلك كله ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ورفض الشركاء ، وعبادة الله مع التنزه عن الظلم والفسق واتباع الشهوات .

ومن المعلوم أن كتاباً هذا شأنه اذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوة المخالفة فلو قالوا : انت بقرآن غير هذا دلّ على انهم يقترحون قرآناً لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوة الى رفض الشركاء واتقاء الفحشاء والمنكر ، وإن قالوا : بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته الى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول ، وذلك كالشاعر ينشد من شعره او القاصّ يقصّ القصة فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون : انت بغيره او بدّله ، وفي ذلك تنزيل القرآن أنزل مراتب الكلام وهو هو الحديث الذي إنما يلقي لتلوه به نفس سامعه وتنشط به عواطفه ثم لا يستطيعه السامع فيقول : انت بغير هذا او بدّله .

فبذلك يظهر أن قولهم اذا تليت عليهم آيات القرآن : « انت بقرآن غير هذا » يريدون به قرآناً لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا ويؤتى بذاك ، وقولهم : « او بدّله » أن يغيّر ما فيه من المعارف المخالفة لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله .

فما قيل : إن الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه وتبديله لا يكون

إلا برفعه ، غير سديد . فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبي ﷺ بهذا القرآن وغيره معاً قطعاً .

وكذا ما ذكره بعضهم أن قولهم : « انت بقرآن غير هذا او بدله » إنما ارادوا به أن يمتحنوه بذلك فيفتروا حقاً إذا أجابهم الى ذلك كان ذلك نقضاً منه لدعوى نفسه أنه كلام الله ؛ وذلك أنهم لما سمعوا ما بلغهم النبي ﷺ من آيات القرآن وتلاه عليهم وتحداهم بالإتيان بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله ، وكانوا في ريب من كونه كلام الله ، وفي ريب من كونه من النبي ﷺ نفسه ولم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة والعلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصاحتهم ومصارع خطبائهم أرادوا أن يمتحنوه بهذا القول حقاً اذا أقام بما سألوه كان ذلك ناقضاً لأصل دعواه انه كلام الله . وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوة نفسية فيه كانت خفية عليهم كأسباب السحر لا بوحى . هذا .

وفيه مضافاً الى مناقضة آخره أوله أنه مدفوع بما يلقيه الله سبحانه من الحجة فإن السؤال الذي لم يصدر إلا بداعي الامتحان والاختبار من غير داع جدتي لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدتي بحجة جدية وهو ظاهر .

وفي قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا » التفات من الخطاب الى الغيبة ، والظاهر أن النكتة فيه أن يكون توطئة الى إلقاء الأمر الى النبي ﷺ بقوله : « قل ما يكون لي أن أبدله » الخ ، فإن ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم وتوجيهه اليه ﷺ .

قوله تعالى : « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي » الى آخر الآية التلقاء ، بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان والبيان ويستعمل ظرفاً .

والله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم : « انت بقرآن غير هذا او بدله » في أثناء كلامه بقوله « بيتات » فإن الآيات إذا كانت بيتات ظاهرة الاستناد إلى الله سبحانه كشفت كسفاً قطعياً عما يريد الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ﷺ من تفصيل دينه ؛ ردّ

سؤالهم إليهم تفصيلاً بتلقين نبيته ﷺ الحجة في ذلك بقوله : « قل ما يكون لي »
إلى آخر الآيات الثلاث .

فقوله : « قل ما يكون لي أن أبدله » الخ ، جواب عن قولهم : « أو بدله »
ومعناه : قل لا أملك - وليس لي بحق - أن أبدله من عند نفسي لأنه ليس بكلامي
وإنما هو وحي إلهي - أمرني ربي أن أتبعه ولا أتبع غيره ، وإنما لا أخالف أمر
ربي لأنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه .

فقوله : « ما يكون لي أن أبدله » نفى الحق وسلب الخيرة ، وقوله : « إن
أتبع إلا ما يوحى إلي » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « ما يكون لي »
وقوله : « إني أخاف إن عصيت ربي » الخ ، في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « إن
أتبع » الخ ، بما يلوح منه أنه مما يتعلق به الأمر الإلهي .

وفي قوله : « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » نوع محاذاة لما في
صدر الكلام من قوله : « قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن » الخ فإن الإتيان
بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد وعدم
رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي ﷺ بأمر من ربه بقوله : « إني أخاف إن عصيت
ربي عذاب يوم عظيم » فيؤول المعنى إلى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون
لقاء الله لكنني لا أشك فيه فلا يمكنني إجابتكم إليه لأنني أخاف عذاب يوم اللقاء ،
وهو يوم عظيم .

وفي تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائدة الإنذار مضافاً إلى أن العذاب لا يناسب
اللقاء تلك المناسبة .

قوله تعالى : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم
عمرًا من قبله أفلا تعقلون » أدراكم به أي أعلمكم الله به ، والعمر بضمم تين أو بالفتح
فالسكون هو البقاء ، وإذا استعمل في القسم كقولهم : لعمرى ولعمرى تعين الفتح .

وهذه الآية تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم وهو قولهم : « انت بقرآن
غير هذا » ومعناها على ما يساعد عليه السياق : أن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى

مشيتي فإنما أنا رسول ولو شاء الله أن ينزل قرآناً غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فأني مكثت فيكم عمراً من قبل نزول القرآن وعشت بينكم وعاشرتكم وعاشرتوني وخالطتكم وخالطتموني فوجدتموني لاخبر عندي من وحي القرآن ، ولو كان ذلك إليّ وببيدي لبادرت إليه قبل ذلك ، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه ، فليس إليّ من الأمر شيء ، وإنما الأمر في ذلك الى مشيئة الله وقد تعلق مشيئته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون ؟

قوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً او كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون » استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم وأشد إجراماً من هذين الفريقين : المفترى على الله كذباً ، والمكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمة من يتعلق به واذا اختص بحسب الله كان أشد الظلم .

وظاهر سياق الاحتجاج في الآيتين أن هذه الآية من تمامها والمعنى : لا أجيبكم الى ما اقترحت عليّ من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إليّ ولا لي حق فيه ، ولو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس وأشد إجراماً ولا يفلح المجرمون فأني لو بدلت القرآن وغيّرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفترياً على الله كذباً ولا أظلم منه ، ولو تركت هذا القرآن وجئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذباً لآيات الله ، ولا أظلم منه .

وربما احتمل كون الاستفهام الإنكاري بشقيه تعريضاً للمشركين أي أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء وهو افتراء الكذب على الله وبتكذيبكم بنبوتي والآيات النازلة عليّ وهو تكذيب بآيات الله ولا يفلح المجرمون .

وذكر بعضهم أن الأول من شقّي الترديد للنبي على تقدير إجابتهم والثاني للمشركين ، أي لا أحد أظلم عند الله من هذين الفريقين : المفترين على الله والمكذبين بآياته ، وأنا أنعى عليكم الثاني منها فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الإجماع العظيم وأنا أريد الإصلاح ؟

والذي ذكره من المعنى لا بأس به في نفسه لكن الشأن في استفادته من الآية

ودلالة لفظها عليه ، وكذا الوجه السابق عليه بالنظر الى السياق .

قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » الى آخر الآية ، الكلام : موجه نحو عبدة الأصنام من المشركين وإن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعة معناه ، وذلك لمكان « ما » وكون السورة مكتبة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من القرآن .

وقد كانت عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها وبأربابها الى رب الأرباب وهو الله سبحانه ، ويقولون : « إننا على ما بنا من ألوات البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهارة ساحته ، قدسها ولا نسبة بيننا وبينه .

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه وهم أرباب الأصنام الذين فوض الله اليهم أمر تدبير خلقه ، ونتقرب اليهم بأصنامهم وتمثيلهم وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب اليها الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة ، والشفاعة لأربابها وربما نسبت اليها .

وقد وضع في الكلام قوله : « ما لا يضرهم ولا ينفعهم » موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطيئهم في مزعمتهم ، وهو أن هذا السعي إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّة نافعة في الامور وكانت ذوات شعور بالعبادة والتقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضى شفاعتهم وهؤلاء اجسام ميته لا تشعر بشيء ولا تضر ولا تنفع شيئاً .

وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة — مضافاً الى ما يلوح اليه قوله : « لا يضرهم ولا ينفعهم » — بقوله : « قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض » ومحصله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء في شيء من السماوات والأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم ، وهو من أقبح الافتراء وأشنع المكابرة ، وكيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله وهو يعلم ما في السماوات والأرض ؟

فلاستفهام إنكاري ، ونفي العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها ، ولعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوّم بالعلم لذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم .

• وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » كلمة تنزيه ، وهي من كلام الله وليست مقولة قول النبي ﷺ فان ظرف المشركين بالنسبة اليه هو الخطاب دون الغيبة فلو كان من كلام النبي ﷺ لقليل : عما تشركون بالخطاب .

قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا » قد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ أن الآية تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس .

أحدهما : الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع إلى الدعاوي وينقسم به الناس إلى مدّع ومدّعى عليه وظالم ومظلوم ومتعدّ ومتعدّي عليه وآخذ بحقه وضائع حقه ، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويعلمتهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير .

وثانيهما : الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقة من الأصول والفروع ، وقد صرح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغياً بينهم ، وليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول ، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ، وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لولا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ولكن يؤخّرهم إلى أجل ، قال تعالى : « وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً

بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم ، الشورى : ١٤ الى غير ذلك من الآيات .

وسياق الآية السابقة أعني قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم » الخ ، لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثاني وهو الاختلاف في نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم واتخاذهم شفعاء عند الله ، ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد ومشارك .

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضي أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل وفيه هلاك المبطلين وإنجاء المحقين لكن السابق من الكلمة الإلهية منعت من القضاء بينهم ، والكلمة هي قوله تعالى لما أهبط الإنسان الى الدنيا : « ولكم في الأرض مستقر » ومتاع الى حين ، البقرة : ٣٦ .

وللمفسرين في الآية أقوال عجيبة منها : أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حق وهو دين إبراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لُحَيّ الذي روج بينهم الوثنية فانقسموا الى حنفاء مسلمين ، وعبداء أصنام مشركين ، وأنت خير أنه لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة .

ومنها : أن المراد بالناس جميعهم ، والمراد من كونهم أمة واحدة كونهم على فطرة الإسلام وإن كانوا مختلفين دائماً ، فلفظة « كان » منسلخ الزمان ، والآية تحكي عما عليه الناس بحسب الطبع وهو التوحيد ، وما هم عليه بحسب الفعلية وهو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطري إلا أمة واحدة موحدون لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم .

وفيه أنه خلاف ظاهر الآية والآية التي في سورة البقرة ، وكذا ظاهر سائر الآيات كقوله : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » الشورى : ١٤ وقوله : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » آل عمران : ١٩ .

على أن القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه الى الفطرة مما لا يجتمعان .

ومنها : أن المراد أن الناس جميعاً كانوا على ملّة واحدة هي الكفر والشرك ثم اختلفوا فكان مسلم وكافر .

وهذا أسخف الأقوال في الآية فإنه مضافاً الى كونه قولاً بغير دليل يأباه ظاهر الآيات فإن ظاهرها أن ظهور الاختلاف لانتهاه الى بغى الناس من بعد ما جاءهم العلم أي ظهور الكفر والشرك عن بغى كان هو المقتضي للحكم بينهم والقضاء عليهم بنزول العذاب والهلاك فإذا كانوا جميعاً على الكفر والشرك من غير سابقة هدى وإيمان فما معنى استناد الاقتضاء الى البغى عن علم؟ وما معنى خلق الجميع ووجود المقتضي لإهلاكهم جميعاً إلا انتقاض الغرض الإلهي؟

وهذا القول أشبه بما قالته النصارى في مسألة التفتدية أن الله خلق الانسان ليطعمه فيسكنه الجنة دائماً لكنه عصاه ونقض بذلك غرض الخلقة فتداركه الله بتفتدية المسيح .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

ومنها : قول بعضهم : إن المراد بالكلمة في قوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك » الخ قوله تعالى فهذه السورة : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الآية ٩٣ .

وفيه : أن المراد بالسبق إن كان هو السابق بحسب البيان فالآية متأخرة عن هذه الآية لوقوعها في أواخر السورة ، والآيات متصلة جارية . على أن الآية في بني إسرائيل خاصة والضمير في قوله : « بينهم » راجع اليهم وهي قوله : « ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

على أن قوله في بعض الآيات : « ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم » الشورى : ١٤ لا يلانم هذا المعنى من السابق .

وإن كان المراد بالسبق السابق بحسب القضاء فينبغي أن يتبع في ذلك أول كلمة قالها الله تعالى في ضلال الناس وشركهم ومعصيتهم ، وليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الانسان الأرض وهو ما قدمناه من الآية .

قوله تعالى : «ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين » الآية كقوله قبلها : « ويعبدون من دون الله » وقوله قبله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » تعد أموراً من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ﷺ ليقمها عليهم كما مرّ في أول الآيات فقوله : «ويقولون لولا أنزل » الخ ، عطف على قوله في أول الآيات : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » .

وفيهام مع ذلك عود بعد عود الى إنكارهم أمر القرآن فلإن مرادهم بقولهم : «لولا أنزل عليه آية من ربه » وإن كان طلب آية أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزرأ وتحقيراً لأمر القرآن واستخفافاً به لعدم عدّه آية إلهية والدليل عليه قوله تعالى : « فقل إنما الغيب لله » ولم يقل : « قل » كما قال في سائر الآيات كأنه يقول : ويطلبون منك آية أخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل : إنما الآيات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا إني معكم من المنتظرين .

فهذا هو المستفاد من الآية وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان ينتظر آية فاصلة بين الحق والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين أمته ، وسيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآية — التي يأمر بانتظارها هنا — في قوله : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » يونس : ٤٦ الى تمام عدة آيات .

قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا » الى آخر الآية مضمون الآية وإن كان من المعاني العامة الجارية في أغلب الناس في أكثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا يخلو عن أن يمسه ضراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقه ذلك لكن الآية من جهة السياق المتقدم كأنها مسوقة للتعريض للمشركين ومكرهم في آيات الله ، والدليل عليه قوله : « قل الله أسرع مكرأ » فقد كان النظر معطوفاً على مكر طائفة خاصة وهم المخاطبون بهذه الآيات

حيث كانوا يمحرون بآيات السراء والضراء بعد ظهورها ، ومن مكروهم مكروهم في القرآن الذي هو آية إلهية ورحمة أذاقمهم الله إياها بعد ضراء الجهالة العالقة بهم وشمول ضنك العيش والذلة والتفرقة وتباعد القلوب وبغضائها لهم وهم يمحرون به فتارة يقولون : « أتت بقرآن غير هذا او بدله » وتارة يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » .

فالآية تبين لهم أن هذا كله مكر يمحرونه في آيات الله ، وتبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئاً فإن الله أسرع مكرأ يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكروهم آياته فإن مكروهم بآيات الله عين مكر الله بهم .

فمعنى الآية : « وإذا أذقنا الناس » عبر عن الإصابة بالإذاقة للآباء الى التذاذم بالرحمة وعناية بالقلة فإن الذوق يستعمل في القليل من التغذية « رحمة من بعد ضراء مستهم » والتعبير بالرحمة في موضع السراء للإشارة الى أنها من الرحمة الإلهية من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه ، ويخضعوا لما تدعو اليه الآية وهو توحيد ربهم وشكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك « اذا لهم مكر في آياتنا » كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم قد مس آباءنا السراء والضراء ، والاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم : « لولا أنزل عليه آية » وقولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .

فأمر الله نبيه ﷺ ان يحيبهم بقوله : « قل الله أسرع مكرأ » ثم علقه بقوله : « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » فلنا عليكم شهداء رقباء ارسلناهم اليكم يكتبون اعمالكم ويحفظونها ، وبمجرد ما علمتم عملاً حفظ عليكم وتعين جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه .

وهنا شيء وهو أن الظاهر من قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ على ما سيجيء من البيان في تفسير الآية ان شاء الله تعالى أن معنى كتابة الملائكة اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كون الاستعدادات الى مرحلة الفعلية الخارجية ورسم نفس الاعمال في صحيفة الكون وبذلك تتجلي عليه كتابة الرسل لأعمالهم لكونه تعالى أسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقة المعنى على هذا : أننا نحن نخرج اعمالكم التي تمكرون بها من

داخل ذواتكم ونضعها في الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك ؟ وهل المكر إلا صرف الغير عما يتصد به بحيلة وستر عليه بل ذاك الذي تزعمونه مكرأ بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرأ وتقدمون على المكر بنا، وهذه المزعة والاقدام ضلال منكم وإضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم ، وسيأتي نظير هذا المعنى في قوله : « يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم » الآية ٢٣ من السورة .

وفي الآية التفات من الغيبة الى الخطاب في قوله : « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » على قراءة تمكرون بقاء الخطاب وهي القراءة المشهورة ، وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن ولعل النكتة فيه تمثيل معنى قوله : « قل الله اسرع مكرأ » في العين كأنه تعالى لما قال لنبيه ﷺ : « قل الله اسرع مكرأ » اراد ان يوضحه لهم عياناً ففاجأهم بتجليه لهم دفعة فكلتهم وأوضح لهم السبب في كونه اسرع مكرأ ثم حجبهم عن نفسه فعادوا الى غيبتهم وعاد الكلام الى حاله ، وخوطف النبي ﷺ بقيمة الخطاب : « هو الذي يسيركم » الخ ، وهذا من لطيف الالتفات .

قوله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم » الى آخر الآية ، الفلك السفينة وتستعمل مفرداً وجمعاً ، والمراد بها ههنا الجمع بدليل قوله : « وجرين بهم » والرياح العاصف : الشديدة الهبوب ، وقوله : « أحيط بهم » كناية عن الاشراف على الهلاك ، وتقديره احاط بهم البلاء او الامواج ، والاشارة بقوله : « من هذه » الى الشدة . ومعنى الآية ظاهر .

وفيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب الى الغيبة في قوله : « وجرين بهم بريح طيبة » الى قوله - بغير الحق - ولعل النكتة فيه ارجاعهم الى الغيبة وتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ ووصف اعجب جزء من هذه القصة الموصوفة له ليسمعه ويتعجب منه ، ويكون فيه مع ذلك اعراض عن الامر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول .

قوله تعالى : « فلما انجأهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحق » أصل البغي

هو الطلب ويكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلباً لحق الغير بالتعدي عليه ويقيد حينئذ بغير الحق ، ولو كان بمعنى الظلم محضاً لكان القيد زائداً .

والجملعة من تنمة الآية السابقة ، والمجموع اعني قوله : « هو الذي يسيترك في البر والبحر - الى قوله - بغير الحق » بمنزلة الشاهد والمثال بالنسبة الى عموم قوله قبله : « واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم » الى آخر الآية ، او لخصوص قوله : « قل الله اسرع مكرأ » وعلى اي حال فقوله : « يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم » الخ ، مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام في الآية السابقة وان لم يكن من كلام النبي ﷺ فافهم ذلك .

قوله تعالى : « يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم » الى آخر الآية ، في الكلام التفتات من الغيبة الى الخطاب فقوله : « يا ايها الناس » الخ ، خطاب منه تعالى للناس بلا واسطة ، وليس من كلام النبي ﷺ مما امره الله سبحانه ان يخاطب به الناس .

والدليل على ذلك قوله تعالى « ثم الينا مرجعكم » الى آخر الآية ، فانه لا يصلح ان يكون من خطاب النبي ﷺ

والنكتة في هذا الالتفات هي نظير النكتة التي قدمنا ذكرها في قوله تعالى في اول الكلام : « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » فكانه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم اثناء ما يخاطبهم النبي ﷺ وهم يحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن نياتهم ومقاصدهم في اعمالهم فيشرف عليهم ويمثل بذلك كونه معهم في جميع احوالهم واحاطته بهم ويقول لهم : انا اقرب اليكم والى اعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به ان تبغوا علينا وتمكروا بنا انما توجد بتقديرنا وتجري بأيدينا فكيف يمكنكم ان تبغوا بها علينا ؟ بل هي بغي منكم على انفسكم فانها تبعدكم منا وتكتب آثامها في صحائف اعمالكم فبغيكم على انفسكم وهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به اياماً قلائل ثم الينا مرجعكم فنخبركم ونوضح لكم هناك حقائق اعمالكم .

وقوله : « مناع الحياة الدنيا » بالنصب في قراءة حفص عن عاصم والتقدير :

تتمتعون متاع الحياة الدنيا، وبالرفع في قراءة غيره وهو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير هو اي بفيكم وعملكم متاع الحياة الدنيا .

وعلى كلتا القراءتين فقوله : «متاع الحياة الدنيا» الى آخر الآية، تفصيل لإجمال قوله : « انما بفيكم على انفسكم » فقوله « متاع » الخ، في مقام التعليل بالنسبة الى كون بفيهم على انفسهم من قبيل تعليل الاجمال بالتفصيل وبيانه به .

قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض » الى آخر الآية، لما ذكر سبحانه في الآية السابقة متاع الحياة الدنيا مثل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقة امره ما يعتبر به المعتبرون ، وهو من الاستعادة التمثيلية وليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شيء وان اوهم ذلك قوله : « كماء انزلناه » ابتداء ، ونظائره شائعة في امثال القرآن ، والزخرف الزينة والبهجة ، وقوله : « لم تغن » من غني في المكان اذا اقام فيه فأطال المقام ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » الدعاء والدعوة عطف نظر المدعو الى ما يدعى اليه وجلب توجهه وهو اعم من النداء فان النداء يختص بباب اللفظ والصوت ، والدعاء يكون باللفظ والاشارة وغيرهما، والنداء انما يكون بالجهر ولا يقيد به الدعاء .

والدعاء في الله سبحانه تكويني وهو ايجاد ما يريد له شيء كأنه يدعوه الى ما يريد، قال تعالى : « يوم يدعوك فتستجيبون بحمده » اسرى: ٥٢ اي يدعوك الى الحياة الاخرية فتستجيبون الى قبولها ، وتشريعي وهو تكليف النامن بما يريد من دين بلسان آياته، والدعاء من العبد لربه عطف رحمته وعنايته الى نفسه بنصب نفسه في مقام العبودية والمملوكية ، ولذا كانت العبادة في الحقيقة دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكية والاتصال بمولاه بالتبعية والذلة ليعطفه بمولويته وربوبيته الى نفسه وهو الدعاء .

والى ذلك يشير قوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين

يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين، المؤمن ٦٠ حيث عبثوا أولاً بالدعاء ثم بدّله ثانياً بالعبادة .

وقد التبس الأمر على صاحب المنار فقال تفسيره : ان قول بعض المفسرين وغيرهم : ان من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فان الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعاً وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية واعظم اركان التكليفية منها كما ورد في الحديث فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء . انتهى ومنشأ خطأ زعمه ان معنى الدعاء هو النداء للطلب وغفلت عنه تقديم من تحليل معناه .

والأصل في معنى السلام على ما ذكره الراغب في المفردات هو التعري عن الآفات الظاهرة والباطنة ، واليه يرجع معناه في جميع مشتقاته ، والسلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة ، والظاهر ان السلام والأمن متقاربان معنى ، وإنما الفارق ان السلام هو الأمن مأخوذاً في نفسه ، والأمن هو السلام مضافاً الى ما يطم منه يقال : هو في سلام ، وهو في أمن من كذا وكذا .

والسلام من اسمائه تعالى لأن ذاته المتعالية نفس الخير الذي لا شر فيه ، وتسمى الجنة دار السلام حيث لا شر فيها ولا ضرر على ساكنيها ، وقيل : إنما سميت دار السلام لأنها دار الله الذي هو السلام ، والمآل واحد في الحقيقة لأنه تعالى إنما سمي سلاماً لبراءته من كل شر وسوء ، وفي سياق الآية ما يشعر بكون معنى السلام الوصفي مقصوداً في الكلام .

وقد أطلق سبحانه السلام ولم يقيده بشيء ولا ورد في كلامه ما يقيده ببعض الخبيثات فهو دار السلام على الإطلاق وليست إلا الجنة فإن ما يوجد عندنا في الدنيا من السلام إنما هو الإصافي دون المطلق فما من شيء إلا وهو مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه ويهواه ، وما من حال إلا وفيه مقارنات من الأضداد والأنداد .

فإذا أخذت معنى السلام مطلقاً غير نسبي تحصل عندك نسبة عليه الجنة من الوصف ، وانكشف أن توصيفها بهذه الصفة نظير توصيفها في قوله : اللهم ما يشاءون

فيها ، ق : ٣٥ ، فإن سلامة الانسان من كل ما يكرهه ولا يحبه تلازم سلطانه على كل ما يشاؤه ويحبه .

وفي تقييد دار السلام بكونها عند ربهم دلالة على قرب الحضور وعدم غفلتهم عنه سبحانه هناك أصلاً ، وقد تقدم الكلام في معنى الهداية ومعنى الصراط المستقيم في مواضع من الأبحاث السابقة كتفسير سورة الحمد وغيره .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير هذا ، الآية » قال : فإن قريشاً قالت : يا رسول الله ائتنا بقرآن غير هذا فإن هذا شيء تعلمته من اليهود والنصارى ، قال الله : قل لهم : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم اربعين سنة قبل أن يوحى إلي ، ولم أتكلم بشيء منه حق أوحى إلي .

أقول : وفي انطباق مضمونه على الآية خفاء ، على ما فيه من مخاطبتهم النبي ﷺ بالرسالة .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن ابي عبد الله ﷺ قال : لم يزل رسول الله ﷺ يقول : اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم حق نزلت سورة الفتح فلم يعد الى ذلك الكلام .

أقول : والرواية لا تخلو عن شيء .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : فر عكرمة ابن ابي جهل يوم الفتح فركب البحر فأخذته الريح فنادى باللات والعزى ، فقال اصحاب السفينة : لا يجوز هنا أحد يدعو شيئاً إلا الله وحده نخلصاً ، فقال عكرمة : والله لئن كان في البحر وحده إنه لفي البر وحده ، فأسلم .

أقول : والرواية مروية بطرق كثيرة مختلفة .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام ثلاث يرجعن على صاحبهن : النكث والبغي والمكر ، قال الله : يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم .

أقول : وهو مروي عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث هن رواجع على أهلها : النكث والمكر والبغي . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم » ، « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » ، « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . أورده في الدر المنثور .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي قال : ما من عبادة أفضل من أن تسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي وكفى بالمرء عبساً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بغى جبل على جبل لذلك الباغي منها .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن العلاء بن عبد الكريم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل : « والله يدعو إلى دار السلام » فقال : إن السلام هو الله عز وجل وداره التي خلقها لأولياته الجنة .

وفيه عن ابن شهر آشوب عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام » يعني به الجنة « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » يعني ولاية علي بن أبي طالب .

أقول : إن كانت الرواية موقوفة فهي من الجري أو من الباطن من معنى القرآن ، وفي معناها روايات أخر .

* * *

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ — ٢٦ . وَالَّذِينَ كَسَبُوا
 السَّيِّئَاتِ جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلةٌ ما لهم من الله من عاصم
 كأنما أُغْثِيَت رُجُوهُهم قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ — ٢٧ . وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
 مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا يَتَنَّهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ
 إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ — ٢٨ . فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً يَتَنَّا وَيَتَنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ
 عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ — ٢٩ . هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا
 إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ — ٣٠ .

(بيات)

استئناف يعود فيه الى ذكر جزاء الأعمال وعود الجميع الى الله الحق ، وقد تقدم
 إيماء الى ذلك ، وفيه إثبات توحيد الربوبية .

قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا
 ذِلَّةٌ » الخ ، الحسنى مؤنث أحسن والمراد المثوبة الحسنى ، والمراد بالزيادة الزيادة على
 الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلاً من الجزاء والثواب ثم جعله
 حقاً للعامل في مثل قوله : « لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » آل عمران : ١٩٩ ثم ضاعفه
 وجعل المضاعف منه أيضاً حقاً للعامل كما في قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

أمثالها» الأنعام: ١٦٠ وعند ذلك كان مفاد قوله: «للذين أحسنوا الحسنى» استحقاقهم للجزاء والمثوبة الحسنى، وتكون الزيادة هي الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشرة الأمثال نظير ما يفيد قوله: «فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله» النساء: ١٧٣.

ولو كان المراد بالحسنى في قوله: «للذين أحسنوا الحسنى» العاقبة الحسنى، وليس فيما يعقل فوق الحسنى شيء، كان معنى قوله: «وزيادة» الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهي كما يشير إليه قوله: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين» ألم السجدة: ١٧ وما في قوله: «لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد» ق: ٣٥ فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاءه الإنسان فالمزيد على ما يشاءه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

والرهق بفتححتين اللحق والغشيان يقال: رهقه الدّين أي لحق به وغشيه، والقتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، وفي توصيفهم بقوله: «ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة» محاذاة لما في الآية التالية من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر وهو سواد صوري والذلة وهي سواد معنوي.

والمعنى: للذين أحسنوا في الدنيا المثوبة الحسنى وزيادة من فضل الله - أو العاقبة الحسنى وزيادة لا تخطر ببالهم - ولا يغشى وجوههم سواد من قتر ولا ذلة، وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: «والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة» إلى آخر الآية، جملة «جزاء سيئة بمثلها» مبتدأ خبر محذوف والتقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها من العذاب، والجملة خبر للمبتدأ الذي هو قوله: «الذين كسبوا السيئات» والمراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئة فجزاء فعلة سيئة عقوبة سيئة.

وقوله: «ما لهم من الله من عاصم» أي ما لهم عاصم يعصمهم من الله أي من عذابه وفيه نفي لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفي كل عاصم مانع سواء كان شريكاً شافعاً أو ضدّاً قوياً ممانعاً أو أي عاصم غيرهما.

وقوله : « كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » القطع جمع قطعة ومظلماً حال من الليل ، والمراد كأن الليل المظلم قسم إلى قطع فإغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام ، والمتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعة من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات بعضها فوق بعض . فليس في الكلام ما يدل على ذلك .

وقوله : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » يدل على دوام بقائهم في النار للدلالة الصحابة والخلاود عليه كما أن نظيره في أصحاب الجنة يدل على نظيره .

قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم » إلى آخر الآية . المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين والمشركين وشركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين وشركاءهم في هذه الآية وما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله في الآية التالية : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » .

وقوله : « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم » أي الزموا مكانكم أنتم وليزوم شركاؤكم مكانهم وتفرع على هذا الخطاب أن زيتناً بينهم ، وقطعنا الرابطة التي كانت تربطهم بشركائهم وهي رابطة الوهم والحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم وانقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم ولم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء وهم ليسوا بشركاء .

والدليل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى بعده : « وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون » فالكلام على ظاهره من النفي الجدي الصادق لعبادتهم إيماناً ، وليسوا يكذبون في كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهادة الله سبحانه ، ولا أنهم يريدون أننا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإن الكلام لا يلائم هذا المعنى ، ولا أن مرادهم التعريض لهم بأنكم كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم المغيوين لكم في الحقيقة فإن ذلك لا يلائم دعواهم الغفلة ، وكذا لا يلائمه قوله بعده : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » الخ ، على ما سيجيء من معناه بل مرادهم نفي العبادة حقيقة بنفي حقيقة الشراكة ، والاستشهاد على ذلك بشهادة الله وعلمه بغفلتهم عن عبادتهم .

والعبادة التي هي اتصال ما بالمملوكية والتذلل من العابد بالمعبود إنما تكون عبادة اذا اتصلت وارتبطت بالمعبود - حتى يتم به معنى اللام في قولنا: العبادة له - ولا يكون ذلك إلا بشعور من المعبود وعلم منه بذلك فإذا لم يتحقق هناك علم لم تتحقق عبادة حقيقية ، وإنما هي صورة عبادة .

فقد تبين أن المراد بقوله : « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم » إظهاره وإبرازه تعالى يومئذ حقيقة الأمر الذي سترت عليه الأوهام وحجبته الأهواء في الدنيا وهو أن حقيقة المولوية ومالكية زمام التدبير لله سبحانه وليس لغيره من المولوية والربوبية شيء حتى يصح الالتجاء اليه وتصدق عبادته .

فإذا كشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقيقة يومئذ بأن للمشركين أن شركاءهم لم يكونوا شركاء ولا معبودين لهم في الحقيقة - لغفلتهم عن عبادتهم ، وإنما كانوا يأتون لهم بصورة العبادة التي كان الوهم والهوى يصورانها عبادة وليست بها .

وإليه يشير أيضاً قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فآلقوا اليهم القول إنكم لكاذبون » النحل : ٨٦ .

وقد تبين بذلك أيضاً أن قوله : « وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون » قول من شركائهم لهم على الجذ والحقيقة ، ويظهر به فساد قول بعضهم : المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا لا أنكم لم تعبدونا أصلاً لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع في الآخرة لكونهم ملجئين فيها إلى ترك القبيح .

فإن نفي أصل العبادة بما عرفت من معناه هو حق الصدق ، وإثبات العبادة وإن لم يكن كذباً إلا أنه لا يخلو عن مجاز في الجملة بالنظر إلى حقيقة الأمر على أن ما ذكره أن المراد نفي العبادة بأمرهم ودعوتهم معنى لا دليل عليه من جهة اللفظ .

على أن الكذب إنما لا يقع في الآخرة اذا كان عملاً وكسباً وأما بمعنى نتيجة الملكات الدنيوية فلا مانع من إمكانه بل هو واقع كما يحكيه تعالى في قوله : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم » الأنعام : ٢٤ وغيره من الآيات .

وكذا قول بعضهم : إن المراد ما كنتم تخلصوننا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم - فإن صدق عبادة الأهواء والشيطان على عملهم من جهة أنه اتباع للهوى والشيطان لا ينفي عنه صدق كونه عبادة للأصنام كما أنه تعالى يصدق في كلامه الجهات الثلاث جميعاً ، قال تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم » يونس : ١٨ ، وقال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الجاثية : ٢٣ ، وقال : « أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » يس : ٦٠ .

ومن المعلوم أن الشركاء يحتاجون لنفي كونهم معبودين لهم لا لإثبات كون الهوى والشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا ينفعهم في الحجة البتة ، ويستلزم لغوية إثباتهم الغفلة لأنفسهم في قولهم : « إن كنا عن عبادتكم لغافلين » لأن الأهواء أيضاً ما كانت شاعرة بعبادتهم كما أن الأصنام وهي أجسام ميتة كذلك .

ولعل القائل اعتمد في قوله على الخصر المفهوم من قوله : « ما كنتم إيانا تعبدون » بتقديم المفعول على فعله ، وظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفي المعبودية عن أنفسهم وإثباته لغيرهم ، وليس نفي الأصل للعبادة فإنهم يثبتونها في قولهم : « عن عبادتكم » فإن إضافة المصدر إلى معموله يفيد الشبوت .

لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم : « ما كنتم إيانا تعبدون » تجاه ما قاله المشركون على ما حكاه الله : « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك » النحل : ٨٦ فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه وأثبتوها للشركاء ، والشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفي عبادة المشركين عن أنفسهم ، وأما أنها ثابتة لمن ؟ فلا غرض لهم يتعلق بذلك وإنما هم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشراكة ، وقد احتجوا على ذلك بإثبات الغفلة عن ذلك لأنفسهم ، ولو كانوا شاعرين بعبادتهم وعبدوهم كان لزمهم أعني الشركاء دعوى الشراكة .

قوله تعالى : « فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم » إلى آخر الآية ، ظهر معناه بما مر من التقرير ، والفاء في قوله : « فكفى بالله » يفيد التعليل كقولنا : اعبد الله فهو ربك ، وهو شائع في الكلام .

قوله تعالى : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » إلى آخر الآية ، البلاء

الاختبار ، والاشارة بقوله : « هنالك » الى الموقف الذي ذكره بقوله : « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فوزيتلنا بينهم » .

فذلك الموقف موقف تختبر وتمتحن كل نفس ما أسلفت وقدمت من الأعمال فتتكشف لها حقيقة أعمالها وتشاهدها مشاهدة عيان لا مجرد الذكر او البيان ، وبمشاهدة الحق من كل شيء عياناً ينكشف أن المولى الحق هو الله سبحانه ، وتسقط وتهدم جميع الأوهام ، وتضل جميع الدعاوي التي يفترها الانسان بأوهامه وأهوائه على الحق .

فهذه الافتراءات والدعاوي جميعاً إنما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب والمسببات والاستقلال والمولية التي نعطيها الأسباب ولا إله إلا الله ولا مولى حقاً إلا هو سبحانه فإذا انحلت حقيقة الأمر ، وانكشف غيم الوهم وانتهك حجاب الدعاوي ظهر أن لا مولى حقاً إلا هو سبحانه ، وبطل جميع الآلهة التي إنما أثبتتها الافتراء من الانسان ، وسقطت وحبطت جميع الاعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عبادة حق .

فالفقرات الثلاث من الآية أعني قوله : « تبلو كل نفس » الخ ، وقوله : « ردوا الى الله » الخ ، وقوله : « وضل عنهم » الخ ، كل منها تعين الاخرين على إفادة حقيقة معناها ، ومحصل مفاد المجموع ظهور حقيقة الولاية الإلهية يومئذ ظهور عيان وأن ليس لغيره تعالى إلا الفقر والملوكية المحضة فيبطل عند ذلك كل دعوى باطلة وينهدم بنيان الأوهام .

كما يشير الى ذلك قوله : « هنالك الولاية لله الحق » الكهف : ٤٤ ، وقوله : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ ، وقوله : « والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ ، الى غير ذلك .

(بحث روائي)

في أمالي المفيد بإسناده الى أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتب الى محمد بن أبي بكر حين ولاته مصر وأمره أن يقرأه على الناس ، وفيما كتب : قال الله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » والحسنى هي الجنة والزيادة هي الدنيا .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : فأما الحسنى فهي الجنة ، وأما الزيادة فالدنيا ما أعطاهم الله في الدنيا يحاسبهم الله في الآخرة ، ويجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة . الحديث .

أقول : والروايتان ناظرتان الى المعنى الأول الذي قدمناه في البيان المتقدم وروى ما في معنى الثاني الطبرسي في المجمع عن الباقر عليه السلام .

وفي تفسير البرهان روى في نهج البيان عن علي بن إبراهيم قال : قال : الزيادة هبة الله عز وجل .

وفي الدر المنثور أخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الزيادة النظر الى وجه الله .

أقول : وروى هذا المعنى بمدة طرق من طرق أهل السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وقد تقدم توضيح معناها في تفسير قوله تعالى : « ربّ أرنى أنظر إليك » الأعراف : ١٤٣ في الجزء الثامن من الكتاب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « كأننا أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » قال : أما ترى البيت اذا كان الليل كان أشد سواداً من خارج فكذلك وجوههم يزدادون سواداً .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام وكأنه عليه السلام يريد تفسير القطع من الليل الواقعة في الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله : « وردوا الى الله مولاهم الحق » قال : نسختها قوله : « مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .
أقول : وهو من أسخف القول بل الآيتان ناظرتان الى جهتين مختلفتين من المعنى وهما الظاهر والباطن .

* * *

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ
الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ - ٣١ . فذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
الْحَقُّ فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ - ٣٢ . كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ - ٣٣ . قُلْ هَلْ
مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ - ٣٤ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ - ٣٥ . وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ - ٣٦ .

(بيان)

حجج ساطعة على توحيدہ تعالیٰ فی الربوبیۃ يأمر نبيه ﷺ بإقامتها على المشركين ، وهي ثلاث حجج مرتبة بحسب الدقة والمتانة فالحجة الاولى تسلك من الطريق الذي يعتبره الوثنيون وعبدۃ الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهة تدبيرهم للكون فيعبدون كلاً منهم لأجل ما يخص به من الشأن ، وما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمن يعبدہ فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا يرسل إليه سخطه وعقابه كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر ، وأهل الجبال وأهل البر وأهل العلوم والصنائع وأهل الحروب والغارات وغيرهم كل يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذي يهمه ليرضى عنه ربه فيسارك عليه برضاه أو يكف عنه غضبه .

ومحصل الحجة ان تدبير العالم الانساني وسائر الموجودات جميعاً يقوم به الله سبحانه لا غير على ما يعترفون به فمن الواجب ان يوحدوه بالربوبية ولا يعبدوا إلاياه .
والحجة الثانية ما يعتبره عامة المؤمنين ، وذلك انهم لا يلتفتون كثيراً الى زخارف هذه النشأة من لذائذ المادة ، وإنما جل اعتنائهم بالحياة الدائمة الاخروية التي تتمتعين سعادتها وشقاوتها بالجزاء الإلهي بأعمالهم فاذا قامت البيئنة العقلية على الإعادة كالبدء كان من الواجب ان لا يعبد إلا الله سبحانه ، ولا يتخذ ارباب من دونه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه .

والحجة الثالثة وهي التي تحن اليها قلوب الخاصة من المؤمنين وهي ان المتبع عند العقل هو الحق ، ولما كان الحق سبحانه هو الهادي الى الحق دون ما يدعونه من الارباب من دون الله فليكن هو المتبع دون ما يدعونه من الارباب ، وسيأتي في تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلي به مزيد انجلاء ان شاء الله .
وتلولا اعتبار هذه النكته كان الظاهر ان تذكر اولاً الحجة الثانية ثم الثالثة ثم الاولى او تذكر الثانية ثم يجمع بين الاولى والثالثة فيذكر بعدها .

قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والارض أمَّن يملك السمع والابصار » الى آخر الآية . الرزق هو العطاء الجاري ، ورزقه تعالى للعالم الانساني من السماء هو نزول الامطار والثلوج ونحوه ، ومن الارض هو بانباتها نباتها وتربيتها الحيوان ومنها يرزق الانسان ، وببركة هذه النعم الالهية يبقى النوع الانساني والمراد بملك السمع والابصار كونه تعالى متصرفاً في الحواس الانسانية التي بها ينتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفة التي اذن الله تعالى ان يتمتع بها فانما هو يشخص ويميز ما يريد بما لا يريد باعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشم فيتحرك نحو ما يريد ، ويتوقف او يفر بما يكره بها .

فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الالهي ، وانما خص السمع والبصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيوية اكثر من غيرهما ، والله سبحانه هو الذي يملكها ويتصرف فيها بالاعطاء والمنع والزيادة والنقص .

وقوله : « ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » الحياة بحسب النظر الباديء في الانسان هي المبدء الذي يظهر به العلم والقدرة في الشيء فيصدر اعماله عن العلم والقدرة ما دامت الحياة ، واذا بطلت بطل الصدور كذلك .

ثم اكتشف من طريق النظر العلمي ان ذلك لا يختص بأقسام الحيوان كما كان يعطيه النظر الابتدائي فان الملاك الذي كان يوجب للحيوان كونه ذا حياة - وهو كونه ذا نفس يصدر عنها اعمال مختلفة لا على وتيرة واحدة طبيعية كحركاته الى جهات مختلفة بمركات مختلفة وسكونه من غير حركة - موجود في النبات .

وكذلك الابحاث الجارية على الطرق الحديثة تعطي ذلك فان جرائم الحياة الموجودة في الحيوان التي اليها تنتهي اعماله الحيوية توجد في النبات نظيرها فهو ذو حياة كمثل الحيوان فالنظر العلمي على اي حال يهدي الى عموم الحياة لجميع انواع الحيوان والنبات .

ثم الحياة وهي تقابل الموت الذي هو بطلان مبدء الاعمال الحيوية تعود بحسب التحليل الى كون الشيء بحيث تترتب عليه آثاره المطلوبة منه كما ان الموت عدم كونه كذلك فحياة الارض هي كونها نابتة مخضرة وموتها خلافة ، وحياة العمل

كونه بحيث ينتهي الى الغرض الذي اتى به لأجله وموته خلافاً ، وحياة الكلمة كونها بحيث تؤثر في السامع اثرأ مطلوباً وموتها خلافاً ، وحياة الانسان كونه جارياً على ما تهدي اليه الفطرة الانسانية ككونه ذا عقل سليم ونفس زاكية ، ولذا عد القرآن الشريف الدين حياة للانسان لأنه يرى ان الدين الحق وهو الاسلام هو الفطرة الالهية .

اذا تبين هذا اتضح أن خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي يختلف معناه بحسب اختلاف المراد بالحياة والموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان او الحيوان والنبات بالكينونة من غيرها كالنبي والبذرة فان الحي كما لا تدوم له هذه الحياة بقاء الى غير النهاية لا تذهب ايضاً بحسب البدء في حياة غير متناهية ولا طريق الى اثباته ، وخروج اجزاء غير ذات حياة من الحيوان او الحيوان والنبات بالانفصال .

وعلى النظرة الاخيرة اعني نظرة تعمم الحياة لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبة منها هو ان يخرج من الامور غير المفيدة في باب امور مفيدة في ذلك الباب بالكينونة والتولد كخلق الانسان الحي والحيوان الحي والنبات الحي من التراب الميت وبالعكس ، وكخروج الانسان العاقل الصالح من الانسان الذي لا عقل له ولا صلاح وبالعكس ، وخروج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

وظاهر الآية الكريمة بالنظر الى سياقها ومقام مخاطبة فيها ان يكون المراد باخراج الحي من الميت وبالعكس فيها هو هذا المعنى الأخير ، وذلك أن الآية تقيم المعجزة على المشركين من المسلك الذي كانوا يسلكونه في الاحتجاج على اتخاذ الآلهة المختلفة وهو ان العالم المشهود بمجموعة من موجودات مختلفة متشعبة علوية وسفلية والسفلية من انسان وحيوان ونبات وبحر وبر وامور وراء ذلك كثيرة ، وكل منها تحت تدبير مدبر شفيع عند الله نعبده بعبادة صنمه ليقرّبنا الى الله زلفى وبالجملة انتهاء التدبيرات على اختلافها الى مدبّرات مختلفة يوجب وجود ارباب من دون الله كثيرة .

والآية ترد عليهم حجّتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفة اليه تعالى وان ذلك

يدل على أن الله سبحانه رب كل شيء وحده ، فهي مخاطبتهم بأنكم تعترفون بأن ما يخصكم من التدبير كرزقكم وما يعمكم وغيركم منه ينتهي الى الله سبحانه فهو المدبر لأمركم وأمر غيركم فهو الرب لا رب سواه .

وقد بدأت في التعداد بما يخص الانسان أعني قوله : « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وختمت بما يعمه وغيره أعني قوله : « ومن يدبر الأمر » وظاهر السياق أن يكون المراد بقوله : « أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت » هو التدبير الخاص بالانسان فيكون المراد ملك السمع والابصار التي لأفراد الانسان ، وكذا اخراج الحي من الانسان من ميتته وبالعكس ، وقد تبين ان الحياة المخصوصة بالانسان هو كونه ذا نعمة العقل والدين .

فالمزاد باخراج الحي من الميت وبالعكس - والله اعلم - اخراج الانسان الحي بالسعادة الانسانية من الانسان الميت الذي لا سعادة له وبالعكس .

فالله سبحانه يلقن نبيه ﷺ الحجة على توحيده بالربوبية فأمره بقوله : « قل » ان يقول لهم في سياق الاستفهام « من يرزقكم من السماء والارض » بالامطار والانبات والتكوين « أمّن يملك السمع والأبصار » منكم فتمم بها فائدة رزقكم حيث ترتقون بتشخيصها من طببات الرزق ، ولولاهما لم توفقوا لذلك وفنيتم عن آخركم « ومن يخرج الحي من الميت » اي كل امر مفيد في بابيه من غيره « ومن يخرج الميت من الحي » فيتولد الانسان السعيد من الشقي والشقي من السعيد « ومن برّ الأمر » في جميع الخليقة .

« فسيقولون الله » اعترافاً بأنه الذي ينتهي اليه جميع هذه التدبيرات في الانسان وغيره لأن الوثنيين يعتقدون ذلك فأمر النبي ﷺ ان يوبخهم اولاً على ترك تقوى الله بعبادة غيره مع ظهور الحجة ثم يستنتج لهم من الحجة وجوب توحيده تعالى فقال : « فقل أفلا تتقون » ثم قال : « فذلكم الله ربكم » .

قوله تعالى : « فذلكم الله ربكم الحق فإذا بعد الحق إلا الضلال فأنسى تصرفون » الجملة الاولى نتيجة الحجة السابقة ، وقد وصف الرب بالحق ليكون توضيحاً لفاد الحجة ، وتوطئة وتمهيداً لقوله بعده : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » .

وقوله : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون في عبادة الأصنام فإنه إذا كانت ربوبيته تعالى حقة فإن الهدى في اتباعه وعبادته فإن الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلا الضلال.

فتقدير الكلام : فماذا بعد الحق الذي معه الهدى إلا الباطل الذي معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شيء وأقيم الباقي مقامه إيجازاً، وقيل: فماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولذا قال بعضهم : ان في الآية احتباكاً - وهو من الحسنات البديعية - وهو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شيء يدل عليه الآخر فان تقدير الكلام: فماذا بعد الحق إلا الباطل؟ وماذا بعد الهدى إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول والهدى من الثاني وبقي قوله: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ والوجه هو الذي قدمناه .

ثم تم الآية بقوله : « فأنتى تصرفون » اي الى متى تصرفون عن الحق الذي معه الهدى الى الضلال الذي مع الباطل .

قوله تعالى : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون » ظاهر السياق ان الكلمة التي تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هي انهم لا يؤمنون اي أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتماً وهو ان الفاسقين - وهم على فسقهم - لا يؤمنون ولا تنالهم الهداية الالهية الى الايمان ، وقد قال تعالى : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » المائدة : ١٠٨ .

وعلى هذا فالاشارة بقوله : « كذلك » الى ما تحصل من الآية السابقة : ان المشركين صرفوا عن الحق وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال اذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

فمعنى قوله : « كذلك حقت كلمة ربك » الخ ، ان الكلمة الالهية والقضاء الحتمي الذي قضى به في السابقين - وهو أنهم لا يؤمنون - هكذا حقت وثبتت في الخارج واخذت مصداقاً وهو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا في الضلال اي ان لم نقض عدم هدى الفاسقين - عدم إيمانهم ظلاً ولا جزافاً وانما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق وفسقوا - معرا في الضلال ولا واسطة بينها فاقهم ذلك .

وفي الآية دلالة على ان الامور الضرورية والاحكام والقوانين البيئية التي تجري في النظام المشهود كقولنا : لا واسطة بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال لها نوع استناد الى القضاء الالهي ، وليست ثابتة في ملكه تعالى من تلقاء نفسها .

وربما ذكر بعض المفسرين : أن المراد بالكلمة في الآية كلمة العذاب وقوله : « أنهم لا يؤمنون » في موضع التعليل بتقدير لانه ، والتقدير كثبوت هذه الحجة عليهم حققت كلمة ربك على الذين فسقوا وهي وعيدهم بالعذاب وانما حققت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون .

ولا يخلو عن سقم فان وجه الشبه غير ظاهر ولا متفق فيها فالحجة ثابتة عليهم بذاتها وأما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر وهو انهم لا يؤمنون .

والحجة - كما سمعت في البيان المتقدم - حجة ساذجة يعترف بحقيقتها الوثنية ، وقد صرفوها عن وجهها وأقاموا على ما يدعونها من ربوبية اربابهم واستحقاقها للعبادة من دون الله حيث قالوا : ان تدبير كل شأن من شؤون العالم العامة الى واحد من هذه الارباب فهو رب ذلك الشأن ، وانما نعبد اصنامها وتمائيلها لنرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده .

فأخذت الآية اعترافهم بأن هذه التدابير لله سبحانه - وكيف لا تكون له وهو خالق الكل ومبقيها ؟ - فله سبحانه وحده حقيقة الربوبية وهو المستحق للعبادة لا غيره .

قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده » الى آخر الآية . تلقين للاحتجاج من جهة المبدء والمعاد فان الذي يبدء كل شيء ثم يعيده يستحق ان يعبد الانسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من ألم عذابه وينال عظيم ثوابه يوم المعاد .

ولما كان المشركون - وهم المخاطبون بالحجة - غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ﷺ ان يتصدى جواب سؤاله بنفسه وقال : « قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فأنتى تؤفكون » والى متى تصرفون عن الحق .

وليس اعتماد الآية على مسألة الابداء والاعادة في احتجاجها اعتماداً على مقدمة غير بيّنة ولا مبيّنة فقد احتج عليها في كلامه تعالى من طرق مختلفة كاحتجاج من طريق لزوم الغاية في فعله ، ومن طريق وجوب الجزاء على الاعمال في العدل وغير ذلك وقد نفى سبحانه الرب عن البعث والقيامة فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه .

والحجة — كما تقدم الايماء اليه — حجة عامة المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفاً من العقاب او رغبة في الثواب الذي اعد لهم يوم القيامة .

قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي ، للحق » الى آخر الآية ، يهدي للحق والى الحق بمعنى واحد فالهداية تتعدى بكلتا الحرفين ، وقد ورد تعديتها باللام في مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله : « اولم يهد لهم » الم السجدة : ٢٦ ، وقوله : « يهدي للتي هي اقوم » اسرى : ٩ الى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام في قوله : « يهدي للحق » للتعليل ليس بشيء .

لقد سبّحانه نبيّه ﷺ هذه الحجة وهي ثالثة الحجج ، وهي حجة عقلية يعتمد عليها الخاصة من المؤمنين ، وتوضيحها ان من المرتكز في الفطرة الانسانية وبه يحكم عقله ان من الواجب على الانسان ان يتبع الحق حتى انه ان انحرف في شيء من اعماله عن الحق واتبع غيره لغلط او شبهة او هوى فانما اتبعه لحسابه اياه حقاً والتباس الأمر عليه ، ولذا يعتذر عنه بما يحسبه حقاً فالحق واجب الاتباع على الاطلاق ومن غير قيد او شرط .

والهادي الى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق ، ومن الواجب ترجيحه على من لا يهدي اليه او يهدي الى غيره لأن اتباع الهادي الى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه وجوب اتباعه ضروري .

وقد اعتمد في الحجة على هذه المقدمة الضرورية فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدي الى الحق ؟ ومن البين ان لا جواب للمشركين في ذلك مثبتاً اذ شركاؤهم سواء أكانوا جماداً غير ذي حياة كالأوثان والاصنام ام كانوا من الاحياء كالملائكة وأرباب الانواع والجن والطواغيت من فرعون ونمرود وغيرهما لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

واذ لم يكن لهم في ذلك جواب مثبت فانهم لا يجيبون ، ولذلك امر النبي ﷺ ان يخلفهم في الجواب فيجيب في ذلك - اعني الهداية الى الحق - باثباتها لله سبحانه فقيل : « قل الله يهدي للحق » فان الله سبحانه هو الذي يهدي كل شيء الى مقاصده التكوينية والامور التي يحتاج اليها في بقائه كما في قوله : « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقوله : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ وهو الذي يهدي الانسان الى سعادة الحياة ويدعوه الى الجنة والمغفرة باذنه بارسال الرسل وانزال الكتب وتشريع الشرائع ، وأمرهم ببث الدعوة الحققة الدينية بين الناس .

وقد مرّ في تفسير قوله تعالى : « الحق من ربك فلا تكن من المعترين » آل عمران : ٦٠ أن الحق من الاعتقاد والقول والفعل انما يكون حقاً بمطابقة السنة الجارية في الكون للذي هو فعله فالحق بالحقيقة انما يكون حقاً بمشيئته وارادته .

واذ تحقق انه ليس من شركائهم من يهدي الى الحق ، وان الله سبحانه يهدي الى الحق سألهم بقوله : « أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أمّن لا يهدي إلا ان يهدي » ؟ ان يقضوا في الترجيح بين اتّباعه تعالى واتّباع شركائهم وهو تعالى يهدي الى الحق وهم لا يهدون ولا يهتدون إلا بغيرهم ، ومن المعلوم ان الرجحان لمن يهدي على من لا يهدي اي لا يتّباعه تعالى على اتّباعهم ، والمشركون يحكمون بالعكس ، ولذلك لامهم ووبخهم بقوله : « فما لكم كيف تحكمون » ؟

والتعبير في الترجيح في قوله : « أحق أن يتبع » بأفعل التفضيل الدال على مطلق الرجحان دون التعمين والانحصار مع أن اتّباعه تعالى حق لا غير واتّباعهم لا نصيب له من الحق انما هو بالنظر الى مقام الترجيح ، وليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثارة لعصبيتهم وتهيج لجهالتهم .

وقد أبدع تعالى في قوله « أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي » والقراءة الدائرة : « لا يهدي » بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي ، وظاهر قوله : « لا يهدي إلا أن يهدي » وقد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدي بغيره لا بنفسه .

والكلام قد قوبل فيه قوله : « يهدي الى الحق » بقوله : « من لا يهدي » مع أن الهداية الى الحق يقابلها عدم الهداية الى الحق ، وعدم الاهتداء الى الحق يقابله الاهتداء الى الحق فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية الى الحق ، وكذا الملازمة بين الهداية الى الحق والاهتداء بالذات فالذي يهدي الى الحق يجب أن يكون مهتدياً بنفسه لا بهداية غيره والذي يهتدي بغيره ليس يهدي الى الحق أبداً .

هذا ما تدل عليه الآية بحسب ظاهرها الذي لا ريب فيه وهو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجوزات المبنية على المساهلة التي نبني عليها ونداولها فيما بيننا معاشراً أهل العرف فننسب الهداية الى الحق الى كل من تكلم بكلمة حق ودعا اليها وإن لم يعتقد بها أو اعتقد ولم يعمل بها أو عمل ولم يتحقق بمعناها ، وسواء اهتدى اليها بنفسه أو هداه اليها غيره .

بل الهداية الى الحق أعني الإيصال الى صريح الحق ومتن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلل بينه وبينه فاهتدى بالله وهدى غيره بأمر الله سبحانه ، وقد تقدمت نبذة من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » الآية البقرة : ١٢٤ .

وقد تبين بما قدمناه في معنى الآية أمور :

أحدها : أن المراد بالهداية الى الحق ما هو بمعنى الإيصال الى المطلوب دون ما هو بمعنى إراءة الطريق المنتهي الى الحق فإن من الضروري أن وصف طريق الحق يتأتى من كل أحد سواء اهتدى الى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد .

وثانيها : أن المراد بقوله : « من لا يهدي إلا أن يهدي » من لا يهتدي بنفسه ، وهذا أعم من أن يكون ممن يهتدي بغيره أو يكون ممن لا يهتدي أصلاً ، لا بنفسه ولا بغيره كالأوثان والأصنام التي هي جماد لا يقبل هداية من غيره ، وذلك أن قوله : « إلا أن يهدي » استثناء من قوله : « من لا يهدي » الأعم من أن لا يهتدي أصلاً أو يهتدي بغيره ، والمأخوذ في قوله : « أن يهدي » فعل دخلت عليه أن المصدرية

المؤولة الى المصدر ، والجملة الفعلية المؤولة الى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف الى معموله ففرق بين قوله : « أن تصوموا خير لكم » البقرة : ١٨٤ فلا يدل على الوقوع وبين نحو قوله : « إن كنا عن عبادتكم لغافلين » يونس : ٢٩ فيدل على الوقوع ، ويقال : ضربك زيداً عجيب اذا ضربته ، وأنت تضرب زيداً عجيب اذا هممت أن تضربه .

فقوله : « من لا يهتدي إلا أن يهدي » معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهداية من ناحية الغير ، ومن المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير اذا كان في طبعه أن يقبل ذلك ، وأما اذا لم يقبل فإتماً يبقى له من الوصف أنه لا يهتدي فافهم ذلك .

ولمفسرين في معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبة :

منها : أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال لأن من نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيراً والملائكة عليهم السلام ، وهؤلاء كانوا يهدون الى الحق بهداية الله ووجهه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ .

وفيه : أن محصله : أن المعنى لا يهدي إلا أن يهديه الله تعالى فيهدي غيره بعد اعتدائه بهدائه تعالى ، وقد اختل عليه معنى الآية من أصله فإن من لا يهتدي الى الحق بنفسه لا يتأتى له أن يهدي الى الحق فإنه إنما يماس الحق من وراء حجاب فكيف يوصل اليه ؟

على ان ما ذكره لا ينطبق على الاصنام التي هي مورد الاحتجاج في الآية فانها لا تقبل الهداية من اصلها ، وقد ذكر المسيح وعزيراً وهما من قدسته النصارى واليهود وليس وجه الكلام في الآية اليهم وان شملتها وغيرهما الآية بحسب عموم الملاك .

ومنها : ان الاستثناء منقطع والمراد بمن لا يهدي الاصنام التي لا تقبل الهداية اصلاً فحسب ، والمعنى : أم من لا يهتدي اصلاً كالاصنام إلا ان يهديه فيهتدي حينئذ .

وفيه : أنه لا يفي بتوجيه المقابلة التي بين قوله : « من يهدي الى الحق » وقوله : « من لا يهدي » فان الهداية الى الحق والاهتداء اليه لا يتقابلان إلا ان يؤول المعنى الى مثل قولنا : أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع ام من لا يهدي أصلاً إلا ان يهديه الله فيهدي غيره ، ويرد عليه انه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهدي أصلاً حق يصير الاستثناء منقطعاً بل يعم ما لا يهدي أصلاً لا بنفسه ولا بغيره ، ومن لا يهدي بنفسه ويهدي بغيره كالملائكة مثلاً ، ويرد عليه ما ورد على الوجه السابق .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية و « إلا » بمعنى حق والمعنى لا يهدي ولا يقبل الهداية حق يهدي .

وفيه : ان التردد يرجع حينئذ الى مثل قولنا : أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع ام من لا يهدي أصلاً حق يهدي الى الحق ، ويعود الاستثناء مستدركا لا يتعلق به غرض في الكلام . مضافاً الى أن مجيء « إلا » بمعنى حق غير ثابت وعلى تقدير ثبوته قليل في الكلام لا يحمل على مثله افصح الكلام .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي إلا ان يهدي الملائكة والجن ممن يعبدون من دون الله وهم يقبلون الهداية من الله وان لم يهتدوا من عند انفسهم او المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون الى الكفر فانهم وان لم يهتدوا لكنهم يقبلون الهداية ولو هدوا الى الحق لهدوا اليه .

وفيه : ان الآيات واقعة في سياق الاحتجاج على عبدة الأصنام ، والقول بأن المراد بمن لا يهدي إلا ان يهدي الملائكة والجن او الرؤساء المضلون يخرجها عن صلاحية الانطباق على المورد .

وثالثها : أن الهداية الى الحق بمعنى الايصال اليه انما هي شأن من يهدي بنفسه أي لا واسطة بينه وبين الله سبحانه في أمر الهداية اما من بادىء أمره او بعناية خاصة من الله سبحانه كالأنبياء والأوصياء من الأئمة ، وأما الهداية بمعنى اراءة

الطريق ووصف السبيل فلا يختص به تعالى ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون اذ يقول : « وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد » المؤمن : ٣٨ ، وقال : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » الانسان : ٣ .

وأما قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وهو امام : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ وغيره من الآيات فهي مسوقة لبيان الإصالة والتبعية كما في آيات التوفيتي وعلم الغيب ونحو ذلك مما سقت لبيان ان الله سبحانه هو المالك لها بالذات والحقيقة ، وغيره يملكها بتعليمك الله ملكاً تبعياً او عرضياً ، ويكون سبباً لها باذن الله ، قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ وفي الأحاديث اشارة الى ذلك وان الهداية الى الحق شأن النبي وأهل بيته ﷺ وقد مرّ بعض الكلام في الهداية فيما تقدم .

وقوله في ذيل الآية : « فما لكم كيف تحكمون » استفهام للتعجب استغراباً لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اقتباع من لا يهدي ولا يهدي الى الحق .

قوله تعالى : « وما يتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » أغنى يغني يتعدى بمن وعن كليهما وقد جاء في الكلام الإلهي بكل من الوجهين فعديّ بمن كما في الآية ، وبمعن كما في قوله : « ما أغنى عني ماليه » الحاقة : ٢٩ .

وإنما نسب اتباع الظن الى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلال على يقين من الحق ، ولم يؤثروا عليه الباطل ويدعوا إليه إلا بغياً كما قال تعالى : « وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ . وأما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليداً لهم لحسن ظنهم بهم .

وقوله : « إن الله عليم بما يفعلون » تعليل لقوله : « وما يتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا » والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن .

* * *

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 — ٣٧ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ — ٣٨ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ
 يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ — ٣٩ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ
 مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ — ٤٠ . وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي
 عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ
 — ٤١ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا
 لَا يَعْقِلُونَ — ٤٢ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ
 كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ — ٤٣ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ
 أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ — ٤٤ . وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ
 النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ — ٤٥ .

(بيات)

رجوع الى أمر القرآن وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه وتلقين الحجة في ذلك ، وللآيات اتصال بما تقدمها من قوله : « قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق » الآية ، فقد تقدم أن من هدايته تعالى الى الحق هدايته الناس الى دينه الذي يرتضيه من طريق الوحي الى انبيائه والكتب التي أنزلها اليهم ككتب نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهذه الآيات تذكرها وتقيم الحجة على أن القرآن منها هاد الى الحق ، ولذلك أشير اليها معه حيث قيل : « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » .

وفي آخر الآيات الرجوع الى ذكر الحشر وهو من مقاصد السورة كما تقدم .

قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله » الى آخر الآية ، قد تقدمت الإشارة الى ان نفي صفة او معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن والاستعداد ، وهو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا : « ما كان زيد ليقوم » وقولنا : لم يقم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعداد له استعداداً ، والثاني ينفي القيام عنه فحسب ، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس : ٧٤ ، وقوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » الشورى : ٥٣ ، وقوله : « وما كان الله ليعظهم » العنكبوت : ٤٠ .

فقوله : « وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله » نفي لشأنية الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفي فعليته ، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا في صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتره على الله سبحانه .

وقوله : « ولكن تصديق الذي بين يديه » اي تصديقاً لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله : « يا بني اسرائيل أني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة » الصف : ٦ ، وإنما وصفها بما بين

يديه مع تقدمها لأن هناك كتاباً غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب ابراهيم عليها السلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زماناً اليه وهو التوراة والانجيل موصوفاً بأنه بين يديه .

وربما قيل : إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث والنشور والحساب والجزاء ، وليس بشيء .

وقوله : « وتفصيل الكتاب » عطف على « تصديق » والمراد بالكتاب بدلالة من السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على انبيائه ، والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندجة بعضها في بعض المنطوية جانب منها في آخر بالإيضاح والشرح .

وفيه دلالة على أن الدين الإلهي المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال والتفصيل ، والقرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » آل عمران : ١٩ .

وأن القرآن الكريم مفصل لما أجمله الكتب السماوية السابقة مهيمناً عليها جميعاً كما قال تعالى : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » المائدة : ٤٨ . وقوله : « لا ريب فيه من رب العالمين » أي لا ريب فيه هو من رب العالمين ، والجملة الثانية كالتعليل للاولى .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله » الى آخر الآية ، أم منقطعة والمعنى بل يقولون افتراه ، والضمير للقرآن ، واتصاف السورة بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه والقليل .

والمعنى قل للذين يقولون افتراه : إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة مثل هذا القرآن المفترى وادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاماً مفترى كان كلاماً بشرياً وجساراً ان يؤتى بمثله وفي ذلك تحدة ظاهر بسورة واحدة من سور القرآن طويلة كانت او قصيرة .

ومن هنا يظهر أولاً : أن التحدي ليس بسورة معينة فإنهم لم يرموا بالافتراء

بعض القرآن دون بعض بل جميعه ، وهو يكلفهم أن يأتوا بسورة مثل ما يدعون أنه افتراه ، وإنما ادّعوه لجميع القرآن دون بعضه .

ولا يصفى الى قول من يقول : إن التنكير في « سورة » للتعظيم او للتنويع والمراد سورة من السور يذكر فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء إنما يتسم به الإخبار دون الإنشاء . او يقول : المراد سورة طويلة مثل هذه السورة سورة يونس - في اشتغالها على أصول الدين والوعد والوعيد .

وذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب الى الله سبحانه ، ولا يختلف في ذلك ما يتضمن الإخبار وما يتضمن الإنشاء ، وما كانت سورة طويلة أو قصيرة حق الآية الواحدة ، والرمي بالافتراء يصح أن يتعلق بجميع لأنه تكذيب للنسبة المتعلقة بجميع .

وثانياً : أن الآية لا تتحدى ببلاغة القرآن وفصاحته فحسب بل السياق في هذه الآية وفي سائر الآيات التي وردت مورد التحدي يشهد على أن التحدي إنما هو بما عليه القرآن من صفة الكمال ونعت الفضيلة من اشتغاله على منح المعارف الإلهية ، وجوامع الشرائع من الأحكام العبادية والقوانين المدنية السياسية والاقتصادية والقضائية ، والأخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، وقصص الأنبياء ، والامم الماضية ، والملاحم والأخبار الغيبية ، ووصف الملائكة والجن والسماء والأرض والحكمة والموعظة والوعد والوعيد ، وأخبار البدء والعود ، وقوة الحججة وجذالة البيان والنور والهداية من غير أن يختلف جزء منه عن جزء ؛ أضف الى ذلك وقوعه في بلاغته وفصاحته موقفاً يقصر عن البلوغ اليه أيدي البشر .

ولقد قصر الباحثون من علماء الصدر الأول ومن يتلونهم إذ قصرُوا إعجازه على بلاغته وفصاحته ، وكتبوا في ذلك كتباً وألقوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر في حقائقه والتعمق في معارفه ، وأنهم الى أن عدّوا المعاني أموراً مطروحة في الطريق يستوي فيه البدوي والحضري والعامي والخاصي والجاهل والعالم ، وأن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى ولا قيمة لما وراء ذلك .

وقد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخيل في التحدي كوصفه بأنه نور ورحمة وهدى وحكمة وموعظة وبرهان وتبيان لكل شيء وتفصيل الكتاب وشفاء للمؤمنين وقول فصل وما هو بالهزل، وأنه مواقع للنجوم، وأنه لا اختلاف فيه ولم يصرح ببلاغته بعينها .

وأطلق القول بأنهم لا يأتون بمثله ولو دعوا من استطاعوا من دون الله ، ولو اجتمع على ذلك الجن والإنس وكان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يقيد الكلام بالبلاغة والفصاحة .

وقد فصلنا القول في إعجاز القرآن في تفسير قوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » البقرة : ٢٣ في الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » الى آخر الآية . الآية تبين وجه الحقيقة في عدم إيمانهم به وقولهم إنه افتراء وهو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقية من قبيل العلوم الواقعية لا يسعها علمهم ، ولم يأتهم تأويله بعد أي تأويل ذلك الذي كذبوا به حتى يضطروهم الى تصديقه .

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله : « ولما يأتهم تأويله » يشير الى يوم القيامة كما يؤيده قوله تعالى : « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل » الأعراف : ٥٣ .

وهذا يؤيد ما قدمناه في تفسير قوله : « ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله » آل عمران : ٧ في الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها معنى من المعاني من حكم أو معرفة أو قصة أو غير ذلك من الحقائق الواقعية من غير أن يكون من قبيل المعنى ، وأن لجميع القرآن وما يتضمنه من معرفة أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويل .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله بعد : « كذلك كذب الذين من قبلهم » فإن التشبيه

يعطي أن المراد أن الذين من قبلهم من المشركين أيضاً كذبوا بما دعاهم إليه أنبياءهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدعوة الدينية من معارف وأحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن وأحكامه تأويلاً من غير أن يكون من قبيل المفاهيم ومعاني الألفاظ كما توهموه .

فحصل المعنى أن هؤلاء المشركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشركين والكفار من الأمم السابقة استقبلتهم من الدعوة الدينية بمعارفها وأحكامها أمور لم يحيطوا بها علماً حتى يوقنوا بها ويصدقوا ، فحملهم الجهل على التكذيب بها ولما يأتهم اليوم الذي يظهر لهم فيه تأويلها وحقيقتها أمرها ظهوراً يضطرهم على الايقان والتصديق بها وهو يوم القيامة الذي يكشف لهم فيه الغطاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كذبوا وظلموا كما كذب الذين من قبلهم وظلموا فانظر كيف كان عاقبة أولئك الظالمين حتى تحس بما سيصيب هؤلاء .

هذا ما يعطيه دقيق البحث في معنى الآية ، وللمفسرين فيها أقوال شتى مختلفة مبنية على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لا جدوى في التعرض لها وقد استقصينا أقوالهم سابقاً .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

قوله تعالى : « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » قسمهم قسمين من يؤمن بالقرآن ومن لا يؤمن به ثم كشي عن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك أن الذين يكذبون بما في القرآن انما كذبوا به لأنهم مفسدون .

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيلة الإفساد .

وأما ما ذكره بعضهم في تفسير الآية : أن المراد أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم إلا قليلاً منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبداً فهو معنى خارج عن مدلول الآية البتة .

قوله تعالى: « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم » الى آخر الآية ، تلقين للتبرّي على تقدير تكذيبهم له ، وهو من مراتب الانتصار للحق ممن انتهض لحياته فالطريق هو حمل الناس عليه ان حملوا وإلا فالتبرّي منهم لئلا يحملوه على باطلهم . وقوله : « انتم بريئون مما اعمل وأنا بريء مما تعملون » تفسير لقوله : « لي عملي ولكم عملكم » .

قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » الاستفهام للإنكار ، وقوله : « ولو كانوا لا يعقلون » قرينة على ان المراد بنفي السمع نفي ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمّى بسمع القلب .

والمعنى : ومنهم الذين يستمعون اليك وهم صم لا سمع لقاويلهم ، ولست انت قادراً على إسماعهم ولا سمع لهم .

قوله تعالى : « ومنهم من ينظر اليك » الى آخر الآية . الكلام فيها نظير الكلام في سابقها .

قوله تعالى : « ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون » مسوق للإشارة الى ان ما ابتلي به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى من آثار ظلمهم انفسهم من غير ان يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع والبصر عنهم فانهم انما أوتوا ما أوتوا من قبل أنفسهم .

قوله تعالى : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم » « النخ » ظاهر الآية ان يكون « يوم » ظرفاً متعلقاً بقوله : « قد خسر » النخ ، وقوله : « كأن لم يلبثوا إلا ساعة » النخ ، حالاً من ضمير الجمع في « يحشرهم » وقوله : « يتعارفون بينهم » حالاً ثانياً مبيناً للحال الاول .

والمعنى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله في يوم يحشرهم اليه حال كونهم يستقلون هذه الحياة الدنيا فيعدونها كمكث ساعة من النهار وهم يتعارفون بينهم من غير ان

ينكر بعضهم بعضاً او ينساه .

وقد ذكر بعضهم ان قوله : « كان لم يلبثوا » صفة ليوم او صفة المصدر المحذوف المدلول عليه بقوله : « يحشرهم » ، وذكر بعض آخر أن قوله : « يتعارفون بينهم » صفة لساعة ، وهما من الاحتمالات البعيدة التي لا يساعد عليها اللفظ .

وكيف كان ففي الآية رجوع الى حديث اللقضاء المذكور في أول السورة وانعطاف على ما ذكره آنفاً أن من المتوقع أن يأتيهم تأويل الدين .

فكانها تقول : إنهم وإن لم يأتيهم تأويل القرآن بعد لا ينبغي لهم أن يفتروا بالجمود على مظاهر هذه الحياة الدنيا ويستكثروا الأمد ويستبطنوا الأجل فإنهم سوف يحشرون الى الله فيشاهدون أن ليست الحياة الدنيا إلا متاعاً قليلاً ، ولا اللبث فيها إلا لبثاً يسيراً كان لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم .

فيومئذ يظهر لهم خسرانهم في تكذيبهم بلقاء الله ظهور عيان وذلك بإتيان تأويل الدين وانكشاف حقيقة الأمر وظهور نور التوحيد على ما كان ، ووضوح أن الملك يومئذ الله الواحد القهار جل شأنه .

مركز حقيقہ کامپیوتر علوم اسلامی

وَأَمَّا نُزِيرُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَا فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ
اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ - ٤٦ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ
قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ - ٤٧ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٤٨ . قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا
شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ - ٤٩ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ - ٥٠ . أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَالَانَ
 وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ - ٥١ . ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
 النَّحْلِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ - ٥٢ . وَيَسْتَنْبِئُكَ أَهَقُ
 هُوَ قُلْ أَيَّ وَرَثَةٍ لِّهُ لِحَقٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ - ٥٣ . وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ
 نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
 الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ - ٥٤ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا
 فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
 - ٥٥ . هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ٥٦ .

مركز تحقيق كتاب (بيان)

الآيات تنبئ عن سنة إلهية جارية ، وهي أن الله سبحانه قضى قضاء حق لا يرد ولا يبدل أن يرسل الى كل أمة رسولا يبلغهم رسالته ثم يحكم بينه وبينهم حكما فصلا بإزالة العذاب عليهم وإنهاء المؤمنين وإهلاك المكذابين .

ثم تأمر النبي ﷺ أن يخبرهم أن هذه الامة يجري فيهم ما جرى في الامم الماضية من السنة الإلهية من غير أن يستثنوا من كليتها غير انه ﷺ لم يذكر لهم فيما لقنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلا أن القضاء حتم وللامة عمرا وأجلا كالفرد ينتهي اليه أمد حياتها ، وأما وقت النزول فقد أهبهم إيهاما .

وقد قدمنا في قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » الأنفال: ٣٣ أن الآية لا تخلو عن إشعار بأن الامة ستنتزع منهم نعمة الاستغفار بعد زمن النبي ﷺ فينزل عليهم العذاب ، وقد تقدم أن

الشواهد قائمة على كون الآية مدنيّة فهي بعد هذه الآيات المكتبة من قبيل الايضاح في الجملة بعد الإيهام ومن ملاحم القرآن .

وقد حمل بعض المفسرين ما وقع من حديث العذاب في هذه الآيات على عذاب الآخرة ، وسياق الآيات يأبى ذلك .

قوله تعالى : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون » إما نرينك أصله : إن نرك ، زيد عليه ما والنون الثقيلة للتأكيد ، والترديد بين الإرادة والتوفّي للتسوية واستيعاب التقادير ، والمعنى إلينا مرجعهم على أي تقدير ، ولفظه ثم للتراخي بحسب ترتيب الكلام دون الزمان والآية مسوقة لتطبيب نفس النبي ﷺ ولتكون كالتوطئة لحديث قضاء العذاب الذي ستفصله الآيات التالية لهذه الآية .

والمعنى طب نفساً فإننا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك أو توفيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم إلينا ونحن شاهدون لأفعالهم المستوجبة للعذاب لا تنيب عنا ولا ننساها .

والالتفات من قوله : « نرينك » إلى قوله : « ثم الله شهيد » للدلالة على علّة الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل يقتضى ألوهيته .

قوله تعالى : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » قضاء إلهي منحلّ إلى قضاءين أحدهما : أن لكل أمة من الأمم رسولا يحمل رسالة الله إليهم ويبلغها إليهم ، وثانيها : أنه إذا جاءهم وبلغهم رسالته فاختلفوا من مصدّق له ومكذّب فإن الله يقضي ويحكم بينهم بالقسط والعدل من غير أن يظلمهم . هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى .

ومنه يظهر أن قوله : « فإذا جاء رسولهم » فيه إيجاز بالحذف والإضمار والتقدير : فإذا جاء رسولهم إليهم وبلغ الرسالة فاختلف قومه بالكذب والتصديق ، ويدل على ذلك قوله : « قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه ، ولذا كان السؤال عن القسط وعدم الظلم في القضاء في مورد العذاب

والضرار أسبق الى الذهن .

وقد تقدم الفرق بين الرسول والنبي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب ، وهذا القضاء المذكور في الآية من خواص الرسالة دون النبوة .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود ، وهو القضاء بينهم في الدنيا ، والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي ﷺ ، والدليل عليه أمره أن يحيبهم بقوله : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل » الخ ، فقول بعضهم : إن السؤال عن عذاب يوم القيامة أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت اليه .

قوله تعالى : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل » الى آخر الآية ، لما كان قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في معنى قولنا : أي وقت يفي ربك بما وعدك أو يأتي بما أوعدنا به أنه يقضي بيننا وبينك فيهلكنا وينجيك المؤمنين بك فيصفو لكم الجو ويكون لكم الأرض وتخلصون من شرنا ؟ فهلا عجل لكم ذلك ؟ وذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزاً واستهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية وهذا نظير قولهم : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

لَقَدْ سَبَّحَ النَبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْدَأَ فِي الْجَوَابِ ببيان أنه لا يملك لنفسه ضراً حق يدفعه عنها ولا نفعاً حق يجلبه اليها ويستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من ضرر ونفع فالأمر الى الله سبحانه جميعاً ، واقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء والعذاب من الجهل .

ثم يحيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جواباً اجمالياً بالإغراض عن تعيين الوقت والإقبال على ذكر ضرورة الوقوع ، أما الاول فإنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، وأمره الذي لا يتسلط عليه إلا هو ، وقد تقدم قوله في آيات السورة : « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين » الآية ٢٠ من السورة .

وأما الثاني أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بيّن ذلك بالإشارة الى حقيقة هي من النواميس العامة الجارية في الكون تنحل بها العقدة وتندفع بها الشبهة ، وهي أن لكل أمة أجلا لا يتخطاهم ولا يتخطونه فهو آتيهم لا محالة ، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة ، وهو قوله تعالى : « لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » أي وأنتم أمة من الامم فلا محالة لكم أيضا أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون .

فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبروه بأن لهم أن لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد من أفرادها ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها ، ولها من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغي والثواب والعقاب نصيبها ، وهي مما اعتنى بها التدبير الإلهي نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل .

ويدلهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ ويفضح عنه الآثار من ديارهم الخربة ومساكنهم الخالية ، وقد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وكلدية قوم إبراهيم وأهل سدوم وسائر المؤتفكات قوم لوط والقيط قوم فرعون وغيرهم .

فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخذت أنفاسهم ولم ينقرضوا إلا بعذاب وهلاك ، ولم يعذبوا إلا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات ولم يأت قوما منهم رسوله إلا واختلفوا في الحق الذي جاءهم فمنهم من آمن به ومنهم من كذب به وهم الأكثرون .

فهذا يدلهم على أن هذه الامة - وقد اختلفوا في الحق لما جاءهم - سيقضي الله بين رسوله وبينهم فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الامم وإن الله لبالمرصاد .

وعلى الباحث المتدبر أن يتنبه لأن الله سبحانه وإن بدء في وعيده بالمشركين غير أنه هدد في أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم ، ومن أهل القبلة مجرمون كغيرهم فلينتظروا عذابا واصبا يفصل به الله بينهم وبين نبيه ﷺ ، ولينسوا ما يلقيه الشيطان في روعهم أن أمتهم هذه أمة مرحومة رفع الله عنهم عذاب الدنيا

إكراماً منه لنبيهم نبي الرحمة فهم في أمن من عذاب الله وإن انهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب مع أنه لا كرامة عند الله إلا بالتقوى وقد خاطب المؤمنين من هذه الامة بمثل قوله : « ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به » النساء : ١٢٣ .

وربما تعدى المتعدي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا فذكر أن الامة مغفور لهم محسنهم ومسيئهم فلا يبقى لهم في الدنيا إلا كرامة أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن ، ولا في الآخرة إلا المغفرة والجنة .

ولا يبقى على هذا اللمة والشريعة إلا أنها تكاليف وأحكام جزافية لعب بها رب العالمين ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون تعالى عما يقولون علواً كبيراً .

فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه ، وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيّناً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون » الى آخر الآيتين ، البيّات والتبييت الإتيان ليلاً ويقلب في الشر كقصد العدو عدوه ليلاً .

ولما كان قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في معنى استعجال آية العذاب التي يلجئهم الى الإيمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع الى توبيخهم وذمهم من الجهتين فوبيخهم أولاً على استعجالهم بالعذاب ، وهو عذاب فجاءي من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقناً لنبيه ﷺ : « قل أرأيتم » وأخبروني « إن أتاكم عذابه بيّناً » ليلاً « أو نهاراً » فإنه عذاب لا يأتيكم إلا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله « ماذا يستعجل منه » من العذاب « المجرمون » أي ماذا تستعجلون منه وأنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا أتاكم .

ففي قوله : « ماذا يستعجل منه المجرمون » التفات من الخطاب الى الغيبة وكأن النكته فيه رعاية حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر وليكون تعرضاً لملاك نزول العذاب عليهم وهو إجرامهم .

ووبتخهم ثانياً على تأخير إيمانهم الى حين لا ينفعهم الإيمان فيه وهو حين نزول العذاب فإن آية العذاب يلجئهم الى الإيمان قطعاً على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكة ، ومن جهة أخرى الإيمان توبة والتوبة غير مقبولة عند ظهور آية العذاب والإشراف على الموت .

فقال تعالى : « أثمّ اذا ما وقع » العذاب « آمنتم به » أي بالقرآن او بالدين أو بالله « الآن » أي أتؤمنون به في هذا الآن والوقت « وقد كنتم به تستمعجون » وكان معنى استمعجالمهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب وتحقيره بالاستهزاء به .

قوله تعالى : « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا ما كنتم تكسبون » الأشبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى : « لكل أمة أجل » الخ ، فتكون الآية الاولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم وإهلاكه إياهم ، والآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع والهلاك : ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة ولا تجزون إلا أعمالكم التي كنتم تكسبون وذنوبكم التي تحملونها ، والخطاب تكويفي كسّي به عن شمول العذاب لهم ونيله إياهم ، وعلى هذا المعنى فالآيتان : « قل أرأيتم - الى قوله - تستمعجون » واردتان مورد الاعتراض .

قوله تعالى : « ويستنبؤنك أحقّ هو قل إي وربي إنه لحقّ وما أنتم بمعجزين » إلى آخر الآية - يستنبؤنك أي يستخبرونك ، وقوله : « أحقّ هو » بيان له ، والضمير على ما يفيد السياق راجع الى القضاء أو العذاب ، والمآل واحد ، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يؤكد القول في إثباته من جميع جهاته ، وبعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع .

فقوله : « قل إي وربي إنه لحقّ » إثبات لتحقيقه وقد أكد الكلام بالقسم والجملة الاسمية وإنّ واللام ، وقوله : « وما أنتم بمعجزين » بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم .

قوله تعالى : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لاقتدت به » إلى آخر الآية ، إشارة الى شدة العذاب وأهمية التخلص منه عندهم ، وإسرار الندامة إخفاؤها

وكتانها خشية الشهادة ونحوها ، والظاهر أن المراد بالقضاء والعذاب في الآية هو القضاء والعذاب الدنيويان لا غير .

قوله تعالى: «ألا إنَّ الله ما في السماوات والأرض ألا إنَّ وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون» الآية وما بعدها بيان برهاني على حقيقة ما ذكره من كونه حقاً واقعاً لا يمنع عنه مانع فإنَّ كلَّ شيء مما في السماوات والأرض إذا كان مملوكاً لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها إليه تعالى ، ولم يكن لغيره شيء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف في شيء كان مستنداً إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرف في ذاته المقدسة فيحمله على الفعل ، أو يتقيد بعدم مانع خارجي إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل ، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئاً فعله من غير ممد أو عائق ، وإذا وعد وعداً كان حقاً لا مرد له من غير أن يتغير عن وعده بصارف .

فإمعان النظر في ملكه تعالى المطلق الحقيقي يهدي إلى العلم بأنَّ وعده حق لا يمازجه باطل ولكن أكثرهم وهم العامة من الناس لا يعلمون لمجزمهم عن الإمعان في هذه الأبحاث الحقيقية أو إعجابهم بسذاجة الفهم وانسلاهم في سلك العامة .

فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستعلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم وقد أوتي ملكاً وسلطاناً ومن كل ما يتنافس فيه فيرون له القدرة المطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ثم يجدونه ربما بهم ويسعى ولا يقع ما اهتم به أو وعد وعداً ثم لم يف به رعاية لمصلحة شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره ، ووعدته إلى وعده . على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج وأن لا ينطبق .

مع أنَّ حقيقة معنى ملكه وسلطانه وسعة قدرته ونفوذه إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك ويتصورونه عظيماً فيهم ولو طعنته نازلات الدهر يوماً فأملكته

أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبته ما عنده من ملك وقدره ، ومعنى وقوع ما أَراده أو أَحَبه أن الأسباب الكونية ساعدته على ذلك ووافقته على ما أَحبه ، ولو لم تساعدده ولم توافقه كلّية الأسباب لم يكن له أن يضطرها الى الخضوع لمسا يتوهم لنفسه من القدرة كما لا توافقه على مثل الموت والحياة والشباب والشيب والصحة والمرض وأمور أخرى كثيرة فليس له من الأمر شيء .

لكنه سبحانه مالك الخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكون متحول بأمره منوط بإذنه ، وما تصرف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا اليه تعالى نفسه أو الى غيره بإذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيئته شيء فيرجع الى غيره ولا غير هناك يرجع نحوه وينتسب اليه ؟

وقوله تعالى فعله بما يدل بنفسه على مراده فكيف يتسرب اليه الكذب وهو متن الخارج ، والعين الخارجي لا كذب فيه ؟ وإنما الكذب والخطأ شأن المفاهيم الذهنية من حيث انطباقها على الخارج ، وكيف يكون وعده باطلا ووعدده لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا ، وقد وجه كلّية الأسباب اليه ولا مرد له ؟

فإمعان النظر في هذه الحقائق ينوّر للباحث المتدبر معنى ملكه تعالى لما في السماوات والأرض ، وأنّ لازم ذلك أن وعد الله حق ، وأن الارتباب فيه إنما هو من الجهل بمقامه تعالى .

ولذلك قال تعالى أولاً : «ألا إن الله ما في السماوات والأرض » ثم عقبه بقوله كالاستنتاج منه : «ألا إن وعد الله حق » ثم استدرك فقال : «ولكن أكثرهم لا يعلمون » ثم بين ملكه بقوله : « هو يحيي ويميت » الخ في الآية التالية .

قوله تعالى : « هو يحيي ويميت وإليه ترجعون » احتجاج على ما تقدم في الآية السابقة من ملكه تعالى بالنسبة الى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول : إن أمركم جميعاً من حياة وموت ورجوع اليه تعالى فكيف لا تكونون ملكاً له .

(بحث روائي)

في تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً » يعني ليلاً « أو نهراً ماذا يستعجل منه المجرمون » فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يحسدون نزول العذاب عليهم .
أقول : والرواية تتأيد بالآيات وتؤيد ما أسلفناه من البيان .

وفيه بإسناده عن الحسن بن موسى الحشّاب ، عن رجل ، عن حماد بن عيسى عمّن رواه ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سئل عن قوله تبارك وتعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » قال : قيل له ما ينفعهم إصرار الندامة وهم في العذاب ؟ قال : كرهوا شناعة الأعداء .



يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ — ٥٧ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ — ٥٨ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ — ٥٩ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ — ٦٠ . وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ

ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ - ٦١ . إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ - ٦٢ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ - ٦٣ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ - ٦٤ . وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ - ٦٥ . إِلَّا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ - ٦٦ . هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ - ٦٧ . قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً
سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ - ٦٨ . قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ - ٦٩ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ - ٧٠ .

(بيان)

عاد الكلام في الآيات الى وصف القرآن الكريم بما له من كرائم الأوصاف
ويتلوه متفرقات ترتبط بسابق القول في غرض السورة ، وفيها موعظة وحكمة وحبّة
على مقاصد شتى ، وفيها وصف أولياء الله وبشارتهم .

قوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم » الى آخر الآية .
قال الراغب في المفردات : الوعظ زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل : هو التذكير
بالخير فيما يرق له القلب ، والعظة والموعظة الاسم ، انتهى . والصدر معروف والناس
لما وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه وبه
يعقل الامور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو ويتمنى ، عدوا الصدر
خزانة لما في القلب من أسرارهِ والصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل
ورذائل ، وفي الفضائل صحة القلب واستقامته ، وفي الرذائل سقمه ومرضه ،
والرذيلة داء يقال : شفيت صدري بكذا اذا ذهب به ما في صدره من ضيق وحرَج ،
ويقال : شفيت قلبي ، فشفاء الصدور وشفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها
من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب الى الإنسان الشقاء وتنقص عيشته السعيدة
وتحرمه خير الدنيا والآخرة .

والهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب ، وقد تقدم في
ذيل قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » الأنعام : ١٢٥ في
الجزء السابع من الكتاب بحث فيها .

والرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدة ضر أو نقص في الغير يبعث الراحم
الى جبر كسره وإتمام نقصه ، وإذا نسبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل
التأثر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيته تعالى وإفاضته الوجود
على خلقه .

وعطيته اذا نسبت الى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب اليه تعالى من وجودهم
وبقاءهم ورزقهم الذي يمدّ به بقاؤهم وسائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى
كثرة وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، واذا نسبت الى المؤمنين خاصة كانت هي
ما يختص بهم من سعادة الحياة الانسانية بمظاهرها المختلفة التي ينعم الله بها عليهم
من المعارف الحقّة الإلهية والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، والحياة الطيبة في
الدنيا والآخرة والجنة والرضوان .

ومن ثم اذا وصف القرآن بأنه رحمة للمؤمنين كان معناه أنه يغشي المؤمنين

أنواع الخيرات والبركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها وتلبس بمعانيها ، قال تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » أسرى : ٨٢ .

وإذا أخذت هذه النعوت الأربعة التي عدّها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية أعني أنه موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة ، وقيس بعضها الى بعض ثم اعتبرت مع القرآن كانت الآية بياناً جامعاً لعامة أثره الطيب الجميل وعمله الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أول ما يقرع أسماعهم الى آخر ما يتمكن من نفوسهم ويستقر في قلوبهم .

فإنه يدركهم أول ما يدركهم وقد غشيهيم يمّ الغفلة وأحاطت بهم لجة الحيرة فأظلمت باطنهم بظلمات الشك والريب ، وأمّرضت قلوبهم بأدواء الرذائل وكل صفة او حالة ردية خبيثة فيعظمهم موعظة حسنة ينبههم بها عن رقدة الغفلة ، ويزجرهم عما بهم من سوء السريرة والأعمال السيئة ، ويبعثهم نحو الخير والسعادة .

ثم يأخذ في تطهير سرهم عن خبائث الصفات ، ولا يزال يزيل آفات العقول وأمراض القلوب واحداً بعد آخر حتى يأتي على آخرها .

ثم يدلهم على المعارف الحقّة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة دلالة بلطف برفعهم درجة بعد درجة ، وتقريبهم منزلة فمنزلة حتى يستقروا في مستقر المقربين ، ويفوزوا فوز المخلصين .

ثم يلبسهم لباس الرحمة وينزلهم دار الكرامة ويقرّمهم على أريكة السعادة حتى يلحقهم بالنبیین والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ويدخلهم في زمرة عباده المقربين في أعلى عليين .

فالقرآن واعظ شاف لما في الصدور هاد الى مستقيم الصراط مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه ، وإنما يعظ بما فيه ويشفي الصدور ويهدي ويبسط الرحمة بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصول بين الله وبين خلقه فهو موعظة وشفاء لما في

الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . فافهم ذلك .

وقد افتتح سبحانه الآية بقوله : « يا أيها الناس » وهو خطاب لعامة الناس دون المشركين أو مشركي مكة خاصة وإن كانت الآية واقعة في سياق الكلام معهم وذلك لأن النعوت المذكورة فيها بقوله : « قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » تتعلق بعامتهم دون قبيل خاص منهم .

ومن غريب التفسير قول بعضهم : إن المراد بالرحمة ما يتصف به المؤمنون من الرحمة والرأفة فيما بينهم وهو خطأ يدفعه السياق البتة .

قوله تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » الفضل هو الزيادة ، وتسمى العطية فضلاً لأن المعطي إنما يعطي غالباً ما لا يحتاج إليه من المال ففي تسمية ما يفيضه الله على عباده فضلاً إشارة إلى غناه تعالى وعدم حاجته في إفاضته إلى ما يفيضه ولا إلى من يفيض عليه .

وليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه ، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية إذا انضمت إلى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجموع منها أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج .

ومن الممكن أن يتأيد ذلك بقوله : « بفضل الله وبرحمته » حيث أدخلت باء السببية على كل من الفضل والرحمة ، وهو مشعر بكون كل واحد منها سبباً مستقلاً وإن جمع بينهما ثانياً بقوله : « فبذلك فليفرحوا » للدلالة على استحقاق مجموعها لأن ينحصر فيه الفرح .

ويمكن أن يكون المراد بالفضل غير الرحمة من الأمور المذكورة في الآية السابقة أعني الموعظة وشفاء ما في الصدر والهدى ، والمراد بالرحمة : الرحمة بمعناها المذكور في الآية السابقة وهي العطية الخاصة الإلهية التي هي سعادة الحياة في الدنيا والآخرة .

والمعنى على هذا: إن ما تفضل الله به عليهم من الموعظة وشفاء ما في الصدور

والهدى ، وما رحم المؤمنين به من الحياة الطيبة ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال .

وربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابداً ولكن الله يزكى من يشاء » النور : ٢١ حيث نسب زكاتهم الى الفضل والرحمة معاً واستناد الزكاة الى الفضل بمعنى العطية العامة بعيد عن الفهم ، وبما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد في الرواية من تفسير الآية بالنبي ﷺ وعليه ~~تفسير~~ او بالقرآن والاختصاص به وسيجيء ان شاء الله .

وقوله : « فبذلك فليفرحوا » ذكروا ان الفاء في قوله : « فليفرحوا » زائدة كقول الشاعر : « فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعي » والظرف اعني قوله : « فبذلك » بدل من قوله : « بفضل الله وبرحمته » ، ومتعلق بقوله : « فليفرحوا » قدم عليه لإفادة الحسر ، وقوله : « هو خير مما يجمعون » بيان ثان لمعنى الحصر .

فظهر بذلك كله ان الآية تفريع على مضمون الآية السابقة فانه تعالى لما خاطب الناس امتناناً عليهم بأن هذا القرآن موعظة لهم وشفاء لما في صدورهم وهدى ورحمة للمؤمنين منهم فرع عليه انه ينبغي لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذي اتمن به عليهم من الفضل والرحمة لا بالمال الذي يجمعونه فان ذلك - وفيه سعادتهم وما تتوقف عليه سعادتهم - خير من المال الذي ليس إلا فتنة ربما اهلكتهم واشقتهم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً » الى آخر الآية . نسبة الرزق وهو ما يمد الانسان في بقائه من الامور الأرضية من مأكل ومشروب وملبوس وغيرها الى الإنزال مبني على حقيقة يفيدها القرآن وهي ان الاشياء لها خزائن عند الله تنزل من هناك على حسب ما قدرها الله سبحانه ، قال تعالى : « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ وقال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ وقال : « وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ وقال : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .

واما ما قيل : ان التعبير بالإنزال انما هو لكون ارزاق العباد من المطر الذي

ينزله الله من السماء ، فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الانعام وفي الحديد ، والرزق الذي تذكر الآية ان الله انزله لهم فجعلوا منه حراماً وحلالاً هو الأنعام من الإبل والغنم كالوصيلة والسائبة والحام وغيرها .

واللام في قوله : « لكم » للغاية وتفيد معنى النفع أي انزل الله لأجلكم ولتنتفعوا به ، وليست للتمدية فان الإنزال إنما يتعدى بعلى أو إلى ، ومن هنا افاد الكلام معنى الإباحة والحل أي انزلها الله فأحلها ، وهذا هو النكتة في تقديم التحريم على الإحلال في قوله : « فجعلتم منه حراماً وحلالاً » أي كان الله أحله لكم بانزاله رزقاً لكم تنتفعون به في حياتكم وبقائكم ولكنكم قسمتموه قسمين من عند أنفسكم فحرمتهم قسماً وأحلتم آخر فالمعنى : قل لهم يا محمد : أخبروني عما أنزل الله لكم ولأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين وجعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً ما هو السبب في ذلك ؟ ومن البين انه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى .

وقوله : « قل آله آذن لكم أم على الله تفترون » سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق إلى حرام وحلال ، وإذا كان من البين انه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربه بوحى أو رسول كان من المتعين انه افتراء فالاستفهام في سياق الترديد كناية عن اثبات الافتراء لهم وتوبيخ ودم .

والذي يقضي به النظر الابتدائي ان الترديد في الآية غير حاصر إذ كما يجوز ان يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام وحلال عن إذن من الله أو افتراء عليه تعالى كذلك يجوز ان يكون عن مصلحة احرزوها أو زعموها في ذلك أو عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فيكون افتراء عليه .

ومن وجه آخر الترديد في الآية بين إذن الله والافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراماً وبعضه حلالاً وهو دائر بينهم إما أن يكون من الله أو افتراء عليه ، ومن الممكن أن يمنع ذلك في بادىء النظر فكثير من السنن الدائرة بين الناس كوثنتها طبيعة مجتمعهم أو عاداتهم القومية وغير ذلك .

لكن التدبر في كلامه تعالى والبحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى ، وليس لأحد من خلقه أن يبادر الى تشريع حكم ووضعه في المجتمع الانساني ، قال تعالى : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٤٠ .

وقد أشار تعالى الى لم ذلك في قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمداً على الخلقة والفطرة منطبقاً عليها غير مخالف لما ينطق به الكون والوجود .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً كما قال : « أفحسبتم إنمنا خلقناكم عبثاً » المؤمنون : ١١٥ بـل خلقهم لأغراض إلهية وغايات كالية يتوجهون اليها بحسب جبلتهم ويسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب والأدوات وهداهم اليه من السبيل المستر لهم كما قال : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « ثم السبيل يسره » عبس : ٢٠ .

فوجود الأشياء في بدء خلقها متناسب لما هيى لها من منزلة الكال مجهز بقوى وأدوات يتوصل بها الى غايتها ، ولا يسير شيء منها الى كاله المهيأ له إلا من طريق الصفات الاكتسابية والأعمال ، فمن الواجب بالنظر الى ذلك أن يكون الدين أغني القوانين الجارية في الصفات والأعمال الاكتسابية منطبقاً على الخلقة والفطرة فإن الفطرة لا تنسى غايتها ولا تتخطاها ، ولا تبعث نحو فعل ولا تزجر عن فعل إلا لدعوة ما جهزت به اليه ، ولا يدعو الجهاز إلا لأجل ما جهز لأجله وهو الغاية .

فالإنسان لما كان مجهزاً بجهاز التغذية والنكاح كان حكمه الحقيقي في دين الفطرة هو التغذي والنكاح دون الجوكية والرهبانية مثلاً ، ولما كان مطبوعاً على الاجتماع والتعاون كان من حكمه أن يشارك سائر الناس في مجتمهم ويقوم بالأعمال الاجتماعية ، وعلى هذا القياس .

فالذي يتعين للإنسان من الأحكام والسنن هو الذي يدعو اليه الكون العالمي الذي هو جزء حقير منه ، وقد جهز وجوده بما يسوقه اليه من مرحلة الكال ، فهذا

الكون العام المرتبط بعض أجزائه ببعض ، وهو مركب إرادة الله تعالى هو الحامل
لشريعة الفطرية الانسانية ، والداعي الى دين الله الخفيف .

فالدين الحق هو حكم الله سبحانه لا حكم إله ، وهو المنطبق على الخلقة
الإلهية ، وما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الانسان إلا الى الشقاء والهلاك ولا
يهديه إلا الى عذاب السعير .

ومن هنا ينحل ما تقدم من المعتقدين فإن الحكم لما كان لله سبحانه وحده كان
كل حكم دائر بين الناس إما حكماً الله حقيقة مأخوذاً من لدنه بوحى او رسالة او
حكماً مفترى على الله ، ولا ثالث للقسمين .

على أن المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التي ابتدعوها واستنوا بها
فيما بينهم الى الله سبحانه كما يشير اليه قوله تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا
عليها آباءنا والله أمرنا بها » الآية الأعراف : ٢٨ .

قوله تعالى : « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » الى آخر
الآية ، لما كان جواب الاستفهام المتقدم : « آله أذن لكم أم على الله تفترون » معلوماً
من المورد ، وهو أنه افتراء ، استعظم وخامة عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه
والافتراء من الآثام والذنوب بحكم البداهة فلا محالة له أثر سيئ ، ولذلك قال تعالى
إيماداً وتهديداً : « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » .

وأما قوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » فهو
شكوى وعنبى يشار به الى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمة الله ،
وعدم شكرهم قبال عطيته ونعمته ، والمراد بالفضل هنا هو العطية الإلهية فإن
الكلام في الرزق الذي أنزله الله لهم وهو الفضل ، وتحريمهم بعضه وهو الكفران
وعدم الشكر .

وبرجوع ذيل الآية الى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران
نعمته ، والمعنى أن الله ذو فضل وعطاء على الناس ولكن أكثرهم كافرون لنعمته
وفضله فما ظن الذين يكفرون بنعمة الله ورزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم
القيامة .

قوله تعالى : « وما تكون في شأن ولا تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا » الى آخر الآية ، قال الراغب : الشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح ، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأموال قال : « كل يوم هو في شأن » . انتهى .

وقوله : « ولا تتلو منه من قرآن » الظاهر أن الضمير الى الله سبحانه ومن الاولى للابتداء والنشوء والثانية للبيان ، والمعنى : ولا تتلو شيئاً هو القرآن ناشئاً ونازلاً من قبله تعالى ، والإفاضة في الفعل الخوض فيه جمعا .

وقد وقع في قوله : « إلا كنا عليكم شهودا » الالتفات من الغيبة الى التكلم مع الغير ، والنكتة فيه الإشارة الى كثرة الشهود فإن لله شهوداً على أعمال الناس من الملائكة والناس والله من وراءهم محيط ، والمظالم يتكلمون عنهم وعن غيرهم للدلالة على أن لهم أعواناً وخدمة .

وليس ينبغي أن يغفل عن أن اصل الالتفات يبدأ من اول الآية فإن الآيات السابقة كانت تخاطب النبي ﷺ وتأخذ المشركين على الغيبة وتكلمهم بوساطته من غير أن تواجه بشيء من الخطاب يخص نفسه ، وقد احوالت هذه الآية وجه الكلام الى النبي ﷺ بما يخص به نفسه فقالت : « وما تكون من شأن ولا تتلو منه من قرآن » ثم جمعت والمشركون وغيرهم جميعاً في خطاب واحد فقالت : « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا » وذلك بضمهم الى النبي ﷺ وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول مخاطبك : أنت وقومك تفعلون كذا وكذا .

والدليل على أن هذا الخطاب ينحو الضم والتغليب قوله بعده : « ولا يعزب عن ربك » الخ ، فإنه يكشف عن كون الخطاب معه ﷺ جارياً على ما كان .

وعلى أي حال فالتحول المذكور في خطاب الآية للإشارة الى أن السلطنة والإحاطة التامة الإلهية واقعة على الأعمال شهادة وعلماً على أتم ما يكون من كل جهة من غير أن يستثنى منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك او يغفل عن عمل من الأعمال فلا يتوهم احد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة ،

وليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة وليأخذ حذره .

وذكر تلاوة القرآن مستقلاً مع دخوله في قوله قبلاً : « وما تكون في شأن » فإنه أحد شؤنه ﷺ للايماء الى أهمية أمرها ومزيد العناية بها .

وفي الآية أولاً تشديد في العظة على النبي ﷺ وعلى أمته ، وثانياً : أن الذي يتلوه النبي ﷺ من القرآن للناس من وحي الله وكلامه لا يطرقه تغيير ولا يدب فيه باطل لا في تلقيه من الله ولا في تلاوته للناس فالآية قريبة المضمون من قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم » الجن : ٢٨ .

وقوله : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة » الى آخر الآية . العزوب الغيبة والتباعد والحفاء ، وفيه إشارة الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبة وحفظه لها في كتاب من غير زوال ، وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله : « وعنده مفاتيح الغيب » الأنعام : ٥٩ في الجزء السابع من الكتاب .

قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السورة وهو الدعوة الى الايمان بكتاب الله والندب الى توحيد الله تعالى بمعناه الواسع .

وللدلالة على أهمية المطلب افتتح بلفظة « ألا » التنبيهية ، والله سبحانه يذكر في هذه الآية والآيتين بعدها أولياءه ويعرفهم ويصف آثار ولايتهم وما يختصون به من الخصوصية .

والولاية وإن ذكروا لها معاني كثيرة لكن الأصل في معناها ارتفاع الواسطة الحائلة بين الشئين بحيث لا يكون بينها ما ليس منها ، ثم استعيرت لقرب الشئ من الشئ بوجه من وجوه القرب كالقرب نسباً او مكاناً او منزلة او بصداقة او غير ذلك ولذلك يطلق الولي على كل من طرفي الولاية ، وخاصة بالنظر الى أن كلا منها يلي من الآخر ما لا يليه غيره فالحق سبحانه ولي عبده المؤمن لأنه يلي أمره ويدبر شأنه فيهديه الى صراطه المستقيم ويأمره وينهاه فيما ينبغي له او لا ينبغي وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والمؤمن حقاً وليّ ربه لأنه يليّ منه إطاعته في أمره ونهيه ويوليّ منه عامة البركات المعنوية من هداية وتوفيق وتأيد وتسديد وما يعقبها من الإكرام بالجنة والرضوان .

فأولياء الله - على أي حال - هم المؤمنون فإن الله يعدّ نفسه ولياً لهم في حياتهم المعنوية حيث يقول : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ .

غير أن الآية التالية لهذه الآية المفسرة للكلمة تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ فإن قوله في الآية التالية : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » يعرفهم بالإيمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل : « آمنوا » ثم قيل عطفاً عليه : « وكانوا يتقون » فدلّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم ومن المعلوم أن الإيمان الابتدائي غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى وخاصة التقوى المستمر .

فالمراد بهذه الإيمان مرتبة أخرى من مراتب الإيمان غير المرتبة الأولى منه . فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب آية ١٣٠ من البقرة أن لكل من الإيمان والإسلام وكذا الشرك والكفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض فالمرتبة الأولى من الإسلام إجراء الشهادتين لساناً والتسليم ظاهراً، وتليه المرتبة الأولى من الإيمان وهو الإذعان بمؤدّي الشهادتين قلباً إجمالاً وإن لم يسر إلى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق ، ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات، قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

ولا يزال إسلام العبد يصفو وينمو حتى يستوعب تسليمه لله سبحانه في كل ما يرجع إليه وإلى مصير كل أمر ، وكلما ارتفع الإسلام درجة ورقى مرتبة كان الإيمان المناسب له الإذعان بلوازم تلك المرتبة حتى يسلم العبد لربه حقيقة معنى ألوهيته، وينقطع عنه السخط والاعتراض فلا يسخط لشيء من أمره من قضاء وقدر وحكم ، ولا يعترض على شيء من إرادته ، وبإزاء ذلك الإيمان باليقين بالله وجميع

ما يرجع اليه من أمر ، وهو الايمان الكامل الذي تتم به للعبد عبوديته .

قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » النساء : ٦٥ ، والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الايمان او ما يقرب منه هو المراد بالآية أعني قوله : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فإنه الايمان المسبوق بتقوى مستمر دون الايمان بمرتبته الاولى كما تقدم .

على أن توصيفه أهل هذا الايمان بأنهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يدل على أن المراد منه الدرجة العالية من الايمان الذي يتم معه معنى العبودية والملوكية المحضة للعبد الذي يرى معه أن الملك لله وحده لا شريك له ، وأن ليس اليه من الأمر شيء حتى يخاف فوته او يحزن لفقده .

وذلك أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود اليها ، والحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحبه او تحقق ما تكرهه مما يعود اليها نفعه او ضرره ، ولا يستقيم تحقق ذلك إلا فيما يرى الانسان لنفسه ملكاً او حقاً متعلقاً بما يخاف عليه او يحزن لفقده من ولد او مال او جاه او غير ذلك . وأما ما لا علاقة للانسان به بوجه من الوجوه اصلاً فلا يخاف الانسان عليه ولا يحزن لفقده البتة .

والذي يرى كل شيء ملكاً طلقاً لله سبحانه لا يشاركه في ملكه احد لا يرى لنفسه ملكاً او حقاً بالنسبة الى شيء حتى يخاف في امره او يحزن ، وهذا هو الذي يصفه الله من اوليائه اذ يقول : « الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا ان يشاء الله وقد شاء ان يخافوا من ربهم وان يحزنوا لما فاتهم من كرامته ان فاتهم وهذا كله من التسليم لله فافهم ذلك .

فاطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين : عدم الخوف وعدم الحزن في الشأنين الدنيا والآخرة ، واما مثل قوله تعالى : « إلا المتقين يا عباده لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » الزخرف : ٧٠ فإن ظاهر الآيات وان كان هو انها تريد الأولياء بالمعنى الذي تصفه الآية التي نحن فيها إلا ان اثبات عدم الخوف والحزن لهم يوم القيامة لا ينفي ذلك عنهم في غيره . نعم

هناك فرق من جهة اخرى وهو خلوص النعمة والكرامة وبلوغ صفاتها يوم القيامة وكونها مشوبة غير خالصة في غيره .

ونظيرها قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » فصلت : ٣١ فان الآيات وان كانت ظاهرة في كون هذا التنزل والقول والبشارة يوم الموت لمكان قوله : « كنتم توعدون » وقوله : « ابشروا » غير ان الاثبات في وقت لا يكفي للنفي في وقت آخر كما عرفت .

هذا ما يدل عليه الآية بحسب إطلاق لفظها وتأيد سائر الآيات لها ، وقد قيد اكثر المفسرين قوله : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » - بالاستناد الى آيات الآخرة - بيوم الموت والقيامة ، واهملوا ما تفيدُه خصوصية اللفظ في قوله : « والذين آمنوا وكانوا يتقون » وأخذوا الايمان والتقوى امرين متقارنين فرجع المعنى الى ان اولياء الله هم المتقون من اهل الايمان ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون وهذا - كما عرفت - من التقييد من غير مقيّد .

وعتم بعضهم نفي الخوف والحزن فذكر انهم متصفون به في الدنيا والآخرة غير انه أفسد المعنى من جهة اخرى فقال : ان المراد بالاولياء على ما تفسرهم به الآية الثانية جميع المتقين من المؤمنين ، والمراد بعدم خوفهم وحزنهم انهم لا يخافون في الآخرة مما يخاف منه الكافرون والفاسقون والظالمون من احوال الموقف وعذاب الموقف وعذاب الآخرة ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم .

قال : واما اصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشرية التي لا يسلم منها احد في الدنيا ، وانما يكون المؤمنون الصالحون اصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه اذا ابتلاه بشيء مما يخيف او يحزن فانما يرببهم بذلك لتكامل نفوسهم وتحميصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجركم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة . انتهى .

اما تقييده الآية بأن المنفي عن الاولياء هو الخوف والحزن اللذين يعرضان

للكفار دون ما يعرض لعامة المؤمنين بحسب الطبع البشري واستناداً في ذلك الى الآيات الكثيرة فهو من التقييد من غير مقيد ، وأما قوله : إن اصل الخوف والحزن مما لا يسلم منه احد أصلاً فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمقه في البحث عن الأخلاق العالية والمقامات المعنوية الانسانية فحملة ذلك على ان يقيس حال المكرمين من عباد الله المقربين من الانبياء والأولياء الى ما يحده من حال المتوسطين من عامة الناس فزعم ان ما يغشى العامة من الاعراض التي سماها أحوالاً طبيعية يغشى الخاصة لا محالة ، وان ما يتعذر او يتعسر على المتوسطين من الاحوال فهو كذلك عند الكاملين ، ولا يبقى حينئذ للمقامات المعنوية والدرجات الحقيقية إلا انها اسماء ليس وراءها حقيقة ، واعتبارات وضعية اصطلح عليها نظير المقامات الوهمية والدرجات الرسمية الاجتماعية التي نتداولها في مجتمعاتنا لمصلحة الاجتماع .

فلا وفي حق البحث العلمي حق يهديه الى حق النتيجة فيقبن ان التوحيد الكامل يقصر حقيقة الملك في الله سبحانه فلا يبقى لغيره شيء من الاستقلال في التأثير حق يتعلق به لنفسه حب او بغض او خوف او حزن ولا فرح ولا أسى ولا غير ذلك ، وإنما يخاف هذا الذي غشيه التوحيد ويحزن او يحب او يكره بالله سبحانه ، ويرتفع التناقض حينئذ بين قولنا : إنه لا يخاف شيئاً إلا الله وبين قولنا : إنه يخاف كثيراً مما يضره ويحذر أموراً يكرهها فافهم ذلك .

ولا البحث القرآني اتقن واستفرغ فيه الوسع حق يظهر له ان قوله تعالى : « ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أطلق فيه نفي الخوف والحزن من غير تقييد بشيء او حال إلا ما صرح به آيات من وجوب مخافة الله فهؤلاء لا يخافون من شيء في دنيا ولا آخرة إلا من الله سبحانه ولا يحزنون .

وأما الآيات الكثيرة التي تصف المؤمنين بمعدم الخوف والحزن عند الموت او يوم القيامة فهي إنما تصف أحوالهم في ظرف ولا يستوجب نفي شيء او إثباته في مورد خلافه في غيره وهو ظاهر .

والآية مع ذلك تدل على ان هذا الوصف إنما هو لطائفة خاصة من المؤمنين

يمتازون عن غيرهم بمرتبة خاصة من الايمان تخصهم دون غيرهم من عامة المؤمنين وذلك بما يفترها من قوله : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» بما تقدم من تقرير دلالته .

وبالجملة ارتفاع الخوف من غير الله والحزن عن الأولياء ليس معناه أن الخير والشر والنفع والضرر والنجاة والهلاك والراحة والعناء واللذة والألم والنعمة والبلاء متساوية عندهم ومتشابهة في إدراكهم فإن العقل الانساني بل الشعور العام الحيواني لا يقبل ذلك .

بل معناه أنهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً، ويقصرون الملك والحكم فيه تعالى فلا يخافون إلا إياه او ما يحب الله ويريد أن يحذروا منه او يحزنوا عليه .

قوله تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك الفوز العظيم » يبشّره الله تعالى بشارة إجمالية بما تقر به أعينهم فإن كان قوله : « لهم البشرى » إنشاء للبشارة كان معناه وقوع ما بشر به في الدنيا وفي الآخرة كليهما ، وإن كان اخباراً بأن الله سيبشّره بشرى كانت البشارة واقعة في الدنيا وفي الآخرة ، وأما المبشّر به فهل يقع في الآخرة فقط او في الدنيا والآخرة معاً ؟ الآية ساكتة عن ذلك .

وقد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ وقوله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » المؤمن : ٥١ وقوله : « بشركم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار » الحديد : ١٢ الى غير ذلك .

وقوله : « لا تبديل لكلمات الله » إشارة الى ان ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبدل اليه ، وفيه تطيب لنفوسهم .

قوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم » تأديب للنبي ﷺ بتعزيته وتسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه والطمع في دينه والاعتزاز بشركائهم وآلهتهم كما يشعر به القول في الآية التالية فكاد يحزن الله فسله

الله وطيب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده وهو أن العزة لله وأنه سميع لمقاهم عليهم بحاله وحالهم وإذ كان له تعالى كل العزة فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزة الوهمية فهذوا ما هذوا ، وإذ كان سميعاً عليماً فلو شاء لأخذهم بالنكال وإذ كان لا يأخذهم فإنما في ذلك مصلحة الدعوة وخير العاقبة .

ومن هنا يظهر أن كلا من قوله : « إن العزة لله » وقوله : « هو السميع العليم » علة مستقلة للنهي ولذا جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : « ألا إن الله من في السماوات ومن في الأرض » إلى آخر الآية فيه بيان مالكيته تعالى لكل من في السماوات والأرض التي بها يتم للإله معنى الربوبية فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه ، وهذا الملك لله وحده لا شريك له فلا يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشراكة إلا ما في ظن الداعين وفي خرصهم من المفهوم الذي لا مصداق له .

فالآية تقيس شركاءهم إليه تعالى وتحكم أن نسبتهم إليه تعالى نسبة الظن والحرص إلى الحقيقة والحق ، والباقي ظاهر في علوم رباني

وقد قيل : « من في السماوات ومن في الأرض » ولم يقل : ما في السماوات وما في الأرض لأن الكلام في ربوبية العباد من ذوي الشعور والمقل وم الملائكة والثقلان .

قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » الآية . الآية تتمم البيان الذي أورد في الآية السابقة لاثبات ربوبيته تعالى والربوبية - كما تعلم - هي الملك والتدبير ، وقد ذكر ملكه تعالى في الآية السابقة ، فبذكر تدبير من تدابير العامة في هذه الآية تصلح به عامة معيشة الناس وتستبقي به حياتهم يتم له معنى الربوبية .

وللاشارة إلى هذا التدبير ذكر مع الليل سكتهم فيه ، ومع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم إلى أنواع الحركات والتنقلات لكسب مواد الحياة وإصلاح شؤون المعاش فليس يتم أمر الحياة الإنسانية بالحركة فقط أو بالسكون فقط فدبر الله

سبحانه الأمر في ذلك بظلمة الليل الداعية الى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العي والتعب والنصب والى الارتياح والانس بالأهل والتمتع بما جمعوا كتسب بالنهار والفراغ للعبودية ، وبضوء النهار الباعث الى الرؤية فلاشتياق فالطلب .

قوله تعالى : « قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات والارض » الى آخر الآية . الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو ان يفصل الموجود الحي بعض اجزاء مادته فيربيه بالحمل او البيض تربية تدريجية حتى يتكون فرداً مثله ، والانسان من بينها خاصة ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر وذخراً ليوم الفاقة ، وهذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عز اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدريج في فعله بريء عن المثل والشبه مستغن عن غيره بذاته .

وقد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكورة كما تعرض لنفيه من جميعها في قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والارض كل له قانتون بديع السماوات والارض واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ وقد مرّت الإشارة الى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب .

واما الآية التي نحن فيها فهي مسوقة للاحتجاج على نفى الولد من الجهة الاخيرة فحسب وهو ان الغرض من وجوده الاستعانة به عند الحاجة وذلك انما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً ، والله سبحانه هو الغني الذي لا يخالطه فقر فانه المالك لما فرض في السماوات والارض من شيء .

وقوله : « ان عندكم من سلطان » اي برهان « بهذا » اثبات لكونهم انما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى انه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه وهو انه تعالى غني على الاطلاق ، والولد انما يطلبه من به فاقة وحاجة ، والكلام على ما اصطلاح عليه في فن المناظرة من قبيل المنع مع السند .

وقوله : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » توبيخ لهم في قولهم ما ليس لهم به

علم، وهو مما يستقبه العقل الانساني ولا سيما في ما يرجع الى رب العالمين عز اسمه .
 قوله تعالى : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » تخويف
 وانذار بشؤم العقوبة ، وفي الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله
 اولاً عنهم من طريق الغيبة قولهم : « اتخذ الله ولدا » ثم خاطبهم خطاب الساخط
 الغضبان مما نسبوا اليه وافترخوا عليه فقال : « ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على
 الله ما لا تعلمون » وانما خاطبهم متذكراً من غير ان يعرفهم نفسه حيث قال :
 « على الله » ولم يقل : عليّ او علينا صوناً لعظمة مقامه ان يخاطبهم معروفاً ثم
 اعرض عنهم تنزهاً عن ساحة جهلهم ورجع الى خطاب رسوله قائلاً : « قل ان الذين يفترون
 على الله الكذب لا يفلحون » لأنه إنذار والإنذار شأنه .

قوله تعالى : « متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما
 كانوا يكفرون » خطاب للنبي ﷺ فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس
 بحذائه إلا متاع قليل في الدنيا ثم الرجوع الى الله والعذاب الشديد الذي يذوقونه .

مركز تحقيق كامبوتر علوم اسلامی
 (بمبحث رواني)

في أمالي الشيخ قال : اخبرنا ابو عمرو قال : اخبرنا احمد قال : حدثنا يعقوب
 ابن يوسف بن زياد قال : حدثنا نصر بن مزاحم قال : حدثنا محمد بن مروان عن
 الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس قال : « بفضل الله وبرحمته » بفضل الله النبي
 ﷺ ، وبرحمته علي ﷺ .

أقول : ورواه الطبرسي وابن الفارسي عنه مرسل ، ورواه أيضاً في الدر
 المنثور عن الخطيب وابن عساكر عنه .

وفي المجمع قال ابو جعفر الباقر ﷺ : فضل الله رسول الله ﷺ ورحمته
 علي بن ابي طالب ﷺ .

أقول : وذلك ان النبي ﷺ نعمة أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من

الرسالة ومواد الهداية ، وعلي عليه السلام هو أول فاتح لباب الولاية وفعلية التحقق بنعمة الهداية فهو الرحمة فينطبق الخبر على ما قدمناه في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس : « قل بفضل الله ، القرآن و « برحمته » حين جعلهم من أهل القرآن .

اقول : أي الفضل مواد المعارف والأحكام التي فيه ، والرحمة فعلية تحققت ذلك في العاملين به فيرجع الى ما قدمناه في تفسير الآية فتبصر ، ولا مخالفة بين هذه الرواية والرواية السابقة حينئذ بحسب الحقيقة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وما تكون في شأن » الآية ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً .

اقول : ورواه في الجمع عن الصادق عليه السلام .

وفي أمالي المفيد بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال : سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقل له : من هؤلاء الأولياء ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : قوم أخلصوا لله في عبادته ، ونظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها فمرفوا آجلها حين غرت الخلق سوامهم بعاجلها فتركوا ما علموا أنه ستركهم ، وأماوا منها ما علموا أنه سيميتهم .

ثم قال : أيها المطل نفسه بالدنيا الراكض على حبالها المجتهد في عمارة ما سيخرب منها ألم تر الى مصارع آبائك في البلاد ومصارع أبنائك تحت الجنادل والثرى ؟ كم مرضت ببدنك وعقلت بكفنك تستوصف لهم الأطباء ، وتستغيث لهم الأعياء فلم تغن عنهم غناءك ، ولا ينجع عنهم دواؤك ؟

وفي تفسير العياشي عن مرثد المعجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال : وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

قال : إذا أدوا فرائض الله ، وأخذوا بسنن رسول الله ﷺ ، وتورعوا عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا ، ورغبوا فيما عند الله ، واكتسبوا الطيب من رزق الله ، ولا يريدون هذا التفاخر والتكاثر ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ما قدموا لآخرتهم .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والحكيم والترمذي عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول : إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله تعالى فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاء من الله . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث في معنى الولاية يرجع بعضها الى بعض وينطبق الجميع على ما قدمناه في تفسير الآية .

وفيه أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » قال : يذكر الله لرؤيتهم .

أقول : ينبغي أن يحمل إلى أن من آثار ولايتهم ذلك لا أن كل من كان كذلك كان من أهل الولاية إلا أن يراد أنهم كذلك في جميع أحوالهم وأعمالهم ، وفي معناها ما روي عن أبي الضحى وسعد عن النبي ﷺ في الآية قال : إذا رأوا ذكر الله .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو القاسم ابن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل من أهل البادية رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » فقال رسول الله ﷺ : أما قوله : « لهم البشرى في الحياة الدنيا » فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه ، وأما قوله : « وفي الآخرة » فإنها بشارة المؤمن عند الموت إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنة ورواها الصدوق

مرسلاً وقوله : « ترى للمؤمن » بصيغة المجهول أعظم من أن يراها هو نفسه أو غيره وقوله : « عند الموت » قد أضيف إليه في بعض الروايات البشرى يوم القيامة بالجنة .

وفي الجمع في قوله : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » عن أبي جعفر عليه السلام في معنى البشارة في الدنيا : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة وهي ما يبشرونهم به الملائكة عند خروجهم من القبور ، وفي القيامة إلى أن يدخلوا الجنة يبشرونهم حالاً بعد حال .

أقول : وقال بعد ذلك : وروي ذلك في حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وآله انتهى وروى مثله عن الصادق عليه السلام ورواه القمي في تفسيره مضمراً .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن زريق عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا » قال : هو أن يبشراه بالجنة عند الموت يعني محمداً وعلياً عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى . قلت : جعلت فداك وما يرى؟ قال : يرى رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول له رسول الله : أنا رسول الله أبشر ، ثم قال : ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول : أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحب أما لأنفعنك اليوم .

قال : قلت له : أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال : إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك قال : وذلك في القرآن قول الله عز وجل : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله » .

أقول : وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بطرق كثيرة جداً وقوله : « وأعظم ذلك » أي عده عظيماً . وقد أخذ في الحديث قوله تعالى : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » كلاماً مستقلاً ففسره بما فسر ، وتقدم نظيره في رواية الدر المنثور عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله مع أن ظاهر السياق كون الآية مفسرة لقوله قبلها : « ألا إن أولياء الله » الآية وهو يؤيد ما قدمناه في بعض الأبحاث

السابقة أن جميع التقادير من التركيبات الممكنة في كلامه تعالى حجة يحتج بها كما في قوله : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » الأنعام : ٩١ وقوله : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم » وقوله : « قل الله ثم ذرهم » وقوله : « قل الله » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ولكن المبشرات . قالوا : يا رسول الله وما المبشرات قال : رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة .

أقول : وروى ما في معناه عن أبي قتادة وعائشة عنه ﷺ .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاث : فالرؤيا الصالحة بشىء من الله ، والرؤيا من تحزن والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه . وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدث به الناس . الحديث .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ : الرؤيا على ثلاثة : تخويف من الشيطان ليحزن به ابن آدم ومنه الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ومنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

أقول : أما انقسام الرؤيا الى الأقسام الثلاثة كما ورد في الروايتين وفي معناها روايات أخرى من طرق أهل السنة وأخرى من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام فسيجيء توضيحه في تفسير سورة يوسف إن شاء الله تعالى .

وأما كون الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فقد وردت به روايات كثيرة من طرق أهل السنة رواها عنه ﷺ جمع من الصحابة كأبي هريرة وعبد بن الصامت وأبي سعيد الخدري وأبي رزين ، وروى أنس وأبو قتادة وعائشة عنه ﷺ أنها من أجزاء النبوة كما تقدم .

وعن الصفدي أنه وجه الرواية بأن مدة نبوة النبي ﷺ ثلاث وعشرون سنة دعا فيها الى ربه ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ، وعشر سنين بعدها ، وقد ورد أن الوحي كان يأتيه ستة أشهر من أولها من طريق الرؤيا الصالحة حتى نزل القرآن ، والنسبة بين الستة الأشهر وبين الثلاث وعشرين سنة نسبة الواحد الى الستة والأربعين .

وقد روي عن ابن عمر وأبي هريرة عنه ﷺ أنها جزء من سبعين جزء من النبوة فإن صحت هذه الرواية كان المراد بالتعداد مجرد التكثير من غير خصوصية لعدد السبعين .

واعلم أن الرؤيا ربما أطلقت في لسان القرآن والحديث على ما يشاهده الرائي ما لا يشاهده غيره وإن لم يتم نومه الطبيعي ، وقد نبهنا عليه في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وأحسن كلمة في تفسيرها قوله ﷺ : تمام عيني ولا ينام قلبي .



وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبَرَ عَلَيْكُمْ
مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
تُنْظِرُونِ - ٧١ . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - ٧٢ . فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ
مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ - ٧٣ . ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى
قَوْمِهِمْ فَجَاهَوْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ - ٧٤ .

(بيان)

تذكر الآيات إجمال قصة نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل الى زمن موسى وهارون عليها السلام ، وما عامل به الله سبحانه أمهم المكذبين لرسولهم حيث أهلكهم ونجا رسله والمؤمنين بهم ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الامة .

قوله تعالى: « وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » الى آخر الآية المقام مصدر مبني واسم زمان ومكان من القيام ، والمراد به الأول او الثالث أي قيامي بأمر الدعوة الى توحيد الله او مكائفي ومنزلي وهي منزلة الرسالة ، والإجماع العزم وربما يتعدى بعلى قال الراغب : وأجمعت كذا اكثر ما يقال فيها يكون جمعا يتوسل اليه بالفكرة نحو فأجمعوا كيدكم وشركاءكم .

والغمة هي الكربة والشدة وفيه معنى التغطية كأن الله يغطي القلب ، ومنه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء ، والقضاء الى الشيء إتمام أمره بقتل وإفناء ونحو ذلك .

ومعنى الآية : « وَاَتْلُ » يا محمد « عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » وخبره العظيم حيث واجه قومه وهو واحد يتكلم عن نفسه ، وهو مرسل الى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بداهم إن قدروا على ذلك ، وأتم الحجة على مكذبيه في ذلك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كِبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي » ونهضني لأمر الدعوة الى التوحيد او منزلي من الرسالة « وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ » وهو داعيكم لا محالة الى قتلي وإيقاع ما تقدرون عليه من الشر بي لإراحة أنفسكم مني « فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ » قبال ما يهددني من تخرج صدوركم وضيق نفوسكم عليّ بإرجاع أمري اليه وجعله وكيلا يتصرف في شؤني ومن غير أن أشتغل بالتدبير « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الذين ترعونون أنهم ينصرونكم في الشدائد ، واعزموا عليّ بما بدالكم ، وهذا أمر تعجيزي « ثُمَّ لَا يَكُنْ »

أمركم عليكم غمة « إن لم تكونوا اجتهدتم في التوصل الى كل سبب في دفعي و ثم اقضوا إليّ ، بدفعي وقتلي « ولا تنظرون ، ولا تهلوني .

وفي الآية تحديه ~~عليه~~ على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم ، وإظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه وإن أجمعوا عليه وانتصروا بشركائهم وأهنتهم .

قوله تعالى : « فإن توليتم فما سألتكم عليه من أجر » الى آخر الآية . تقرير على توكله بربه ، وقوله : « فما سألتكم » الخ ، بمنزلة وضع السبب موضع السبب والتقدير فإن توليتم وأعرضتم عن استجابة دعوتي فلا ضير لي في ذلك فإنني لا أتضرر في إعراضكم شيئاً لأنني إنما كنت أتضرر بإعراضكم عني لو كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالإعراض وما سألتكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله .

وقوله : « وأمرت أن أكون من المسلمين » اي الذين يسلمون الأمر اليه فيما أراده لهم وعليهم ، ولا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها ويتوقعوا به إيصال نفع او دفع شر .

قوله تعالى : « فكذبوه فتجيئنا ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف » الى آخر الآية ، الخلائف جمع خليفة اي جعلنا هؤلاء الناجين خلائف في الارض والباقيين من بعدهم يخلفون سلفهم ويقومون مقامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ثم بعثنا من بعده رسلاً الى قومهم » الى آخر الآية ، يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى عليهم السلام . وظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزة التي اقترحتها الأمم على انبيائهم بعد مجيئهم ودعوتهم وتكذيبهم لهم فأتوا بها وكان فيها القضاء بينهم وبين اممهم ، ويؤيده قوله بعده : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » الخ ، فإن السابق الى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لا اعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانياً بما كذبوا به أولاً .

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بشوا دعوتهم فيهم ودعوهم الى توحيد الله فكذبوا به وبهم ثم اقترحوا

عليهم آية معجزة فجاءوهم بها فلم يؤمنوا .

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآية في تفسير قوله : « فسا كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » الأعراف : ١٠١ في الجزء الثامن من الكتاب ، وبيتنا هناك أن في الآية إشارة الى عالم الذرة غير أنه لا ينافي إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفاً فليراجع .

(بحث روائي)

في الكافي عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن اسماعيل عن صالح ابن عقبة عن عبد الله بن محمد الجعفي وعقبة جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب فكان مما أحب^(١) أحب أن خلقه من طين الجنة وخلق من أبغض مما أبغض وكان مما أبغضه أن خلقه من طينة النار ثم بعثهم في الظلال ، فقلت : وأي شيء الظلال ؟ فقال : ألم ترَ الى ظلك في الشمس شيء وليس بشيء .

ثم بعث منهم النبيين فدعوم الى الإقرار بالله عز وجل : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ثم دعوم الى الإقرار بالنبيين فأقر بعض وأنكر بعض ، ثم دعوم الى ولايتنا فأقر بها والله من أحب وأنكرها من أبغض ، وهو قوله : « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » . ثم قال أبو جعفر عليه السلام : كان التكذيب من قبل .

أقول : ورواه في العلل بإسناده الى محمد بن اسماعيل عن صالح عن عبد الله وعقبة عنه عليه السلام ، ورواه العياشي عن الجعفي عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : خلق الخلق وهم أظلة فأرسل رسوله محمد ﷺ فمنهم من آمن به ومنهم من كذبه ثم بعث في الخلق الآخر فآمن به من كان آمن به في الأظلة وجعده من جعده يومئذ

فقال : « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .

أقول : قد فصلنا القول في ما يسمى عالم الذر في تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » الآية . وأوضحنا هناك أن آيات الذر تثبت عالماً إنسانياً آخر غير هذا العالم الإنساني المادي التدريجي المشوب بالآلام والمصائب والمعاصي والآثام المشهود لنا من طريق الحس .

وهو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعاً من المقارنة لكنه غير محكوم بهذه الأحكام المادية ، وليس تقدمه على عالمنا هذا تقدماً بالزمان بل بنوع آخر من التقدم نظير التقدم المستفاد من قوله : « أت يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ فإن « كن » و« يكون » يحكيان عن مصداق واحد وهو وجود الشيء خارجاً لكن هذا الوجود بعينه بوجهه الذي إلى الله متقدم عليه بوجهه الآخر ، وهو بوجهه الرباني غير تدريجي ولا زماني ولا غائب عن ربه ولا منقطع عنه بخلاف وجهه إلى الخلق على التفصيل الذي تقدم هناك .

والذي أوردناه من الرواية في هذا البحث الروائي تشير إلى عالم الذر كالذي مررت سابقاً غير أنها تختص بمزية وهي ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإن بإجادة التأمل في هذا التعبير يتضح المراد احسن الاتضاح فإن في الأشياء الكونية أموراً هي كالظلال في أنها لازمة لها حاكية لخصوصيات وجودها وآثار وجودها ، ومع ذلك فهي هي وليست هي .

فإننا إذا نظرنا إلى الأشياء وجرّدنا النظر ومحضناه في كونها صنع الله وفعله المحض غير المنفك منه ولا المنفصل عنه - وهي نظرة حقة واقعية - لم يتحقق فيها إلا التسليم لله والخضوع لإرادته والتذلل لكبريائه والتعلق برحمته وأمر ربوبيته والايان بوحدانيته وبما أرسل به رسله وأنزله اليهم من دينه .

وهذه الوجودات ظلال - أشياء وليست بأشياء - إذا قيست إلى وجودات الأشياء المادية ، وأخذ العالم المادي اصلاً مقيساً إليه وهو الذي بنت عليه الآيات من جهة كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفاً لا محيص عنه مسؤولاً عنه يوم القيامة .

ولو أخذت جهة الرب تعالى أصلاً وقيس إليه هذا العالم المادي بما فيه من الموجودات المادية — وهو أيضاً نظر حق — كان هذا العالم هو الظل وكانت جهة الرب تعالى هو الأصل والشخص الذي له الظل كما يشير إليه قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » القصص : ٨٨ ، وقوله : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » الرحمن : ٢٧ .

وأما ما رواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » قال : « بعث الله الرسل إلى الخلق وهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء فمن صدق حينئذ صدق بعد ذلك ، ومن كذب حينئذ كذب بعد ذلك » .

فظاهره أن للبعث تعلقاً بالنطف التي في الأصلاب والأرحام . وهم أحياء عقلاء مكلفون ، وهذا مما يدفعه الضرورة كما تقدم في الكلام على آية النذر اللهم إلا أن يحمل على أن المراد كون عالم النذر محيطاً بهذا العالم المادي التدريجي الزماني من جهة كونه غير زماني فلا يتعلق الوجود الذري بزمان دون زمان ، وهو مع ذلك يحمل بعيد .

* * *

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ — ٧٥ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ — ٧٦ . قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ — ٧٧ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ — ٧٨ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ

عَلِيمٌ - ٧٩ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
 - ٨٠ . فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ - ٨١ . وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ - ٨٢ . فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ
 مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ
 لَمِنَ الْمُشْرَفِينَ - ٨٣ . وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ
 فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ - ٨٤ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
 لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ - ٨٥ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ - ٨٦ . وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا
 بِمِصْرَ يُثُونًا وَأَجْعَلُوا يُثُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
 - ٨٧ . وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ - ٨٨ . قَالَ
 قَدْ أَجِيبْتَ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ - ٨٩ .
 وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
 حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا
 إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ - ٩٠ . آ لثَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ

مِنَ الْمُفْسِدِينَ - ٩١ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ - ٩٢ . وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ - ٩٣ .

(بيان)

ثم ساق الله سبحانه نبأ موسى وأخيه ووزيره هارون مع فرعون وملأه وقد أوجز في القصة غير أنه ساقها سوقاً ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثة النبي ﷺ ودعوته عتاة قومه والطواغيت من قريش وغيرهم ، وعدم إيمانهم به إلا ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجأوا إلى الهجرة فهاجر هو ﷺ وجمع من المؤمنين به إلى المدينة فعقبه فرأعنة هذه الأمة وملؤهم فأهلكهم الله بذنوبهم وبوأ الله المؤمنين ببركة الإسلام مبوأ صدق ورزقهم من الطيبات ثم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وسيقضي الله بينهم .

فكان ذلك كله تصديقاً لما أسر الله سبحانه إلى نبيه ﷺ في هذه الآيات فيما سيستقبله وقومه من الحوادث ، ولقوله ﷺ يخاطب أصحابه وأمة : لتبعن سنة بني إسرائيل حتى أنهم لو دخلوا جعر ضب لدخلتموه .

قوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ، النخ ، أي ثم بعثنا من بعد نوح والرسل الذين من بعدهم موسى وأخاه هارون بآياتنا إلى فرعون والجماعة الذين يختصون به من قومه وهم القبط فاستكبروا عن آياتنا وكانوا مستمرين على الإجرام .

قوله تعالى : « فلما جاءهم الحق من عندنا ، النخ ، الظاهر أن المراد بالحق هو الآية الحقة كالثعبان واليد البيضاء ، وقد جعلها الله آية لرسالته بالحق فلما جاءهم

الحق قالوا وأكذبوا القول : إن هذا - يشيرون الى الحق من الآية - لسحر مبين واضح كونه سحراً ، وانما سُمي الآية حقاً قبال تسميتهم إياها سحراً .

قوله تعالى : « قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا » الخ ، أي فلما سمع مقاتلهم تلك ورميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكراً لقولهم في صورة الاستفهام : « أتقولون للحق لما جاءكم » إنته لسحر ؟ ثم كرّر الإنكار مستفهماً بقوله : « أسحر هذا » ؟ فقول القول في الجملة الاستفهامية محذوف إيجازاً لدلالة الاستفهام الثاني عليه ، وقوله : « ولا يفلح الساحرون » يمكن أن يكون جملة حالية معلة للإنكار الذي يدل عليه قوله : « أسحر هذا » ، ويمكن أن يكون إخباراً مستقلاً بياناً للواقع يبرّئ به نفسه من أن يفتروا السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح وللساحرين أنهم لا يفلحون .

قوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » الخ ، اللفت هو الصرف عن الشيء ، والمعنى : قال فرعون وملأه لموسى معاتبين له : « أجئتنا لتلفتنا » وتصرفنا « عما وجدنا عليه آباءنا » يريدون سنة قدمائهم وطريقتهم « ويكون لكما الكبرياء في الأرض » يعنون الرئاسة والحكومة وانبساط القدرة ونفوذ الإرادة يؤتمن بذلك انتكما اتخذتما الدعوة الدينية وسيلة الى إبطال طريقتنا المستقرة في الأرض ، ووضع طريقة جديدة أنما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها في الناس وإيماننا بكما وطاعتنا لكما الكبرياء والعظمة في المملكة .

وبعبارة أخرى إنما جئنا لتبدلا الدولة الفرعونية المتعركة في القبط الى دولة إسرائيلية تدار بإمامتكم وقيادتكم ، وما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتهما وتبلغا غايتكما من هذه الدعوة المزورة .

قوله تعالى : « وقال فرعون انتوني بكل ساحر عليم » كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحرة معجزة موسى كما فصل في سائر الآيات القاصّة للقصة وتدل عليه الآيات التالية .

قوله تعالى : « فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال وواجهوا موسى وتهيؤوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال

والعصي ، وقد كانوا هيئوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيات والثعابين بسحرهم .

قوله تعالى : فلما ألقوا قال لهم موسى ما جئتم به السحر ، ما قاله **عيسى** بيان حقيقة من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيرورة العصا ثعباناً يلقف ما ألقوه من الجبال والعصي وأظهروه في صور الحيات والثعابين بسحرهم .

والحقيقة التي بيتنها لهم أن الذي جاءوا به سحر والسحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورة الحق الواقع لخواس الناس وأنظارهم ، وإذا كان باطلاً في نفسه فإن الله سيبطله لأن السنة الإلهية جارية على إقرار الحق وإحقاقه في التكوين وإزهاق الباطل وإبطاله فالدولة للحق وإن كانت للباطل جولة أحياناً .

ولذا علل قوله : « إن الله سيبطله » بقوله : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » فإن الصلاح والفساد شأنان متقابلان ، وقد جرت السنة الإلهية أن يصلح ما هو صالح ويفسد ما هو فاسد أي إن يرتب على كل منها أثره المناسب له المختص به وأثر العمل الصالح أن يناسب ويلانم سائر الحقائق الكونية في نظامها الذي تجري هي عليه ، ويعتز بها ويخالطها فيصلحها الله سبحانه ويجريه على ما كان من طباعه ، وأثر العمل الفاسد أن لا يناسب ولا يلانم سائر الحقائق الكونية فيما تقتضيه بطباعها وتجري عليه يجبلتها فهو امر استثنائي في نفسه ، ولو اصلحه الله في فساده كان ذلك إفساداً للنظام الكوني .

فيعارضه سائر الأسباب الكونية بما لها من القوى والوسائل المؤثرة ، وتعيده إلى السيرة الصالحة إن أمكن وإلا أبطلته وأفنته ومحنته عن صحيفة الوجود البتة .

وهذه الحقيقة تستلزم أن السحر وكل باطل غيره لا يدوم في الوجود وقد قررها الله سبحانه في كلامه في مواضع مختلفة كقوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » وقوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » وقوله : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » المؤمن : ٢٨ ، ومنها قوله في هذه الآية : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .

وأكد به تقريره في جانب الإثبات بقوله في الآية التالية : « ويحق الله الحق

بكلماته ولو كره المجرمون ، كما سيأتي توضيحه .

قوله تعالى : « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة في جانب النفي بقوله : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » أبان عنه في جانب الإثبات أيضاً في هذه الآية بقوله : « ويحق الله الحق بكلماته » وقد جمع تعالى بين معنيي النفي والإثبات في قوله : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » الأنفال : ٨ .

ومن هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآية أقسام الأفضية الإلهية في شؤون الأشياء الكونية الجارية على الحق فإن قضاء الله ماض وسنته جارية أن يضرب الحق والباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى ويعفى أثره ويبقى الحق على جلائه ، وذلك قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فبمكث في الأرض » الرعد : ١٧ ، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآية إن شاء الله تعالى .

والحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنة إلهية حقة غفلوا عنها ، وليهيم نفوسهم لما سيظهره عملاً من غلبة الآية المعجزة على السحر وظهور الحق على الباطل ، ولذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزة ، وألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه .

وقوله : « ولو كره المجرمون » ذكر الإجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم وبنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهية من ظهور الحق ، ولذلك نسب الله كراهية ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون في قوله : « ولو كره المجرمون » وفي معناه قوله في أول الآيات : « فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .

قوله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه » إلى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير في « قومه » راجع إلى فرعون ،

والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى ؛ وقيل : الذرية بعض أولاد القبط ؛ وقيل : أريد بها امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون ، وقد ذكرا في القرآن وجارية وامرأة هي مشاطة امرأة فرعون .

وذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بني إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون ؛ وقيل : هم جميع بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف نسمة ستمائة ذرية لضعفهم ؛ وقيل : ذرية آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد ، وهذه الوجوه — كما ترى — لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ .

والذي يفيد السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعاً الى موسى والمراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملائمة الأقوياء والشرفاء ، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعاً كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم ، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت الى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي ، ويتقربوا الى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراعاة النصيح والتجنب عما لا يرتضيه فلم يكن في وسع الملأ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته ، ويتظاهروا بالإيمان به .

على أن قصص بني إسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني إسرائيل ومستكبريهم لم يؤمنوا بموسى الى أواخر عهده وإن كانوا يتسلّمون له ويطيعونه في عامة أوامره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم وحرية شعبهم ومنافع اشخاصهم ، فالإطاعة في هذه الامور أمر والإيمان بالله وما جاء به الرسول أمر آخر .

ويستقيم على هذا معنى قوله : « وملائمة » بأن يكون الضمير الى الذرية ويفيد الكلام أن الذرية الضعفاء كانوا في إيمانهم يخافون الملأ والأشراف من بني إسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم انفسهم او تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه

ويطّيبوا أنفسهم فلا يضيّقوا عليهم وينقصوا من إيمانهم والتشديد عليهم .

وأما ما قيل : إن الضمير راجع الى فرعون لأنه ذو اصحاب او للذرية لأنهم كانوا من القبط فما لا يصار اليه البتة وخاصة أول الوجهين .

وقوله : « أن يفتنهم » اي يعذبهم ليعودوا الى ملته ، وقوله : « وإن فرعون لعال في الأرض » اي والظرف هذا الظرف وهو أن فرعون عال في الارض مسرف في الامر .

فالمعنى - والله أعلم - فتفرع على قصة بعثها واستكبار فرعون وملاه أنه لم يؤمن بموسى إلا ضعفاء من بني اسرائيل وهم يخافون ملامهم ويخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم وكان ينبغي لهم ومن شأنهم أن يخافوا . فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الارض مسلطاً عليهم وأنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم ويجاوز الحد في الظلم والتعذيب .

ولو صح أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى وبلغتهم الرسالة وهم القبط وبنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة الى ما تقدم من تكلفاتهم .

قوله تعالى : « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » لما كان الايمان بالله بما يفيد للمؤمن من العلم بمقام ربه ولو إجمالاً وأنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهي كل سبب ، وهو المدبر لكل أمر ، يدعو الى تسليم الأمر اليه والتجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل ، ولازم ذلك إرجاع الأمر اليه والتوكل عليه ، وقد أمرهم في الآية بالتوكل على الله ، علّقه أولاً على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام .

فالكلام في تقدير : إن كنتم آمنتم بالله ومسلمين له فتوكلوا عليه . وقد فرق بين الشرطين ولعله لم يجمع بينهما فيقول : « إن كنتم آمنتم وأسلمتم فتوكلوا » لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعاً محرزاً منهم ، وأما الاسلام فهو من كمال

الإيمان ، وليس من الواجب الضروري ان يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأخرى أن يكمل إيمانه بالإسلام .

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجباً واقعاً منهم ، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله - وقد آمنتم - وكنتم مسلمين له - وينبغي أن تكونوا كذلك - فتوكلوا على الله؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى .

قوله تعالى : « فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » الى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون وملأه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم : « ربنا لا تجعلنا فتنة » الخ ، سؤال منهم نتيجة توكلهم وهو ان ينزع الله منهم لباس الضعف والذلة ، وينجيهم من القوم الكافرين .

أما الأولى فقد اشاروا اليه بقولهم : « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » وذلك أن الذي يغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنة للقوي الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندهما من حيازة الحب فتنة للإنسان، قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » التغابن : ١٥ . والدنيا فتنة لطالبها فسؤالهم ربهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف والذلة بسلب الغرض منه وهو سلب الشيء بسلب سببه .

وأما الثاني أعني التنجية فهو الذي ذكره حكاية عنهم في الآية الثانية : « ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً » الخ ، التبوي أي أخذ المسكن والمنزل ، ومصر بلد فرعون ، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل. أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي جهة واحدة وكان الغرض أن يتمكنوا منهم بالتبليغ ويتمكنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدل عليه او يشعر به قوله بعده : « واقموا الصلاة » لوقوعه بعده .

وأما قوله: « وبشّر المؤمنين » فالسياق يدل على أن المراد به البشارة بإجابة ما سأله في دعائهم المذكور آنفاً: « ربنا لا تجعلنا فتنة » إلى آخر الآيتين .

والمعنى: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر - وكأنهم لم يكونوا إلى ذلك الحين إلا كهنة البدويين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها - واجعلا أنما وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات، وأقيموا الصلاة وبشّر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون وقومه .

قوله تعالى: « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً » الخ ، الزينة بناء نوع من الزين وهي الهيئة التي تجذب النفس إلى الشيء ، والنسبة بين الزينة والمال العموم من وجه فبعض الزينة ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه واعتدال القامة ، وبعض المال ليس بزينة كالأنعام والأراضي ، وبعض المال زينة كالخلي والتقابل الواقع بين الزينة والمال يعطي أن يكون المراد بالزينة جهة الزينة من غير نظر إلى المالية كالخلي والرياش والأثاث والأبنية الفاخرة وغيرها .

وقوله: « ربنا ليضلوا عن سبيلك » قيل اللام للعاقبة ، والمعنى وعاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك ، ولا يجوز أن يكون لام الغرض لأننا قد علمنا بالأدلة الواضحة أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال ولا يريد أيضاً منهم الضلال ، وكذلك لا يؤتيمهم المال ليضلوا . انتهى .

وهو حقّ لكن في الإضلال الابتدائي المستحيل عليه تعالى ، وأما الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبت به كلامه في موارد كثيرة ، وقد كان فرعون وملؤه مصرّين على الاستكبار والإفساد ملحّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيمهم الله بذلك زينة وأموالاً ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا .

وربما قيل: إن اللام في « ليضلوا » للدعاء، وربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أي لئلا يضلوا عن سبيلك ، والسياق لا يساعد على شيء من الوجهين .

والطمس — كما قيل — تغيّر إلى الدثور والدروس بمعنى « اطمس على أموالهم » غيرها إلى الفناء والزوال ، وقوله : « واشدد على قلوبهم » من الشد المقابل للحل أي أقس قلوبهم واربط عليها ربطاً لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب ، وقول بعضهم : إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم وآلم ، وكذا قول آخرين : إنه كناية عن إماتتهم وإهلاكهم من الوجوه البعيدة .

فمعنى الآية : وقال موسى — وكان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون وملئه وبقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال والإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه — ربنا إنك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوهم جزاء السوء فأثبتهم زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا إرادة منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك ، وإرادتك لا تبطل وغرضك لا يلفو ربنا آدم على سخطك عليهم واطمس على أموالهم وغيرها عن مجرى النعمة إلى مجرى النعمة ، واجعل قلوبهم مشدودة مربوطة فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفاً لا ينفعهم الإيمان وهو زمان يرون فيه العذاب الإلهي .

وهذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم ، وعلمه أنه لا يترقب منهم في الحياة إلا أن يضلوا ويضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » نوح : ٢٧ ، وحاشا ساحرة الأنبياء عليهم السلام أن يتكلموا على الحرص والمظنة في موقف يشاهدون فيه رب العالمين جلّت كبريأؤه وعز شأنه .

قوله تعالى : « قال قد أجيبك دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » الخطاب — على ما يدل عليه السياق — لموسى وهارون ولم يحك الدعاء في الآية السابقة إلا عن موسى ، وهذا يؤيد ما ذكره المفسرون : أن موسى عليه السلام كان يدعو ، وكان هارون يؤمن له وآمين دعاء فقد كانا معاً يدعوان وإن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده .

والاستقامة هو الثبات على الأمر ، وهو منها عليها السلام الثبات على الدعوة

الى الله وعلى إحياء كلمة الحق ، والمراد بالذين لا يعلمون الجهالة من شعب إسرائيل وقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله: «قال إنكم قوم تجهلون» الأعراف: ١٣٨.

والمعنى : «قال» الله مخاطباً لموسى وهارون «قد أجيبتم دعوتكما» من سؤال العذاب الأليم لفرعون وملئه ، والطمس على أموالهم والشدة على قلوبهم «فاستقيما» واثبتا على ما أمرتما به من الدعوة الى الله وإحياء كلمة الحق «ولا تتبعان» البتة «سبيل الذين لا يعلمون» بإجابة ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم ودواعي شهواتهم ، وفيه نوع تلويح الى أنهم سيألون أموراً فيها إحياء سنتهم القومية وسيرتهم الجاهلية .

وبالجملة فالآية تذكر إجابة دعوتها المتضمنة لعذاب فرعون وملئه وعدم توفيقهم للإيمان ووعدهما بذلك، ولذلك ذكر في الآية التالية وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التي فيه .

ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب وعلى ذلك جرى أيضاً سياق الآية الدال على القبول والإجابة وكذا الآية المخبرة عن كيفية إنجازها ، وقد نقل في المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة قال : وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه عنه عليه السلام في الاحتجاج وكذا في الكافي وتفسير العياشي عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وفي تفسير القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عنه عليه السلام .

قوله تعالى : « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وحنوده بنيًا وعدواً » الى آخر الآية ، البغي والعدو كالعدوان الظلم وإدراك الشيء اللحق به والتسلط عليه كما أن اتباع الشيء طلب اللحق به .

وقوله : « آمنتم أنه لا إله إلا الذي آمنتم به بنو إسرائيل » أي آمنتم بأنه . وقد وصف الله بالذي آمنتم به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم وهو مجاوزة البحر والأمان من الفرق ، ولذلك أيضاً جمع بين الإيمان والإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصية وهو الشرك بالله والاستكبار على الله ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « آلاّن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » آلاّن بالمد أصله « آلاّن أي أتؤمن بالله الآّن وهو حين أدركك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب وبجيء الموت من كل مكان » وقد عصيت قبل هذا وكنت من المفسدين ، وأقنيت أيامك في معصيته ، ولم تقدم التوبة لوقتها فإذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته وهذا هو الذي كان موسى وهارون سألاه ربها ان يأخذه بعذاب أليم ويسد سبيله الى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئاً .

قوله تعالى : « فاليوم ننجيّك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » التنجية والإنجاء تفعيل وإفعال من النجاة كالتخليص والإخلاص من الخلاص وزناً ومعنى .

وتنجيته ببدنه تدل على أن له امرأ آخر وراء البدن فقدّه بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمى ايضاً روحاً ، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفاها الله ويأخذها حين موتها كما قال تعالى : « الله يتوفى الانفس حين موتها » الزمر : ٤٢ ، وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكتل بكم » الم السجدة : ١١ ، وهي التي يخبر عنها الانسان بقوله : « أنا » وهي التي بها تتحقق للإنسان إنسانيته ، وهي التي تدرك وتريد وتفعل الأفعال الانسانية بواسطة البدن بما له من القوى والأعضاء المادية ، وليس للبدن إلا أنه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها المادية .

ولمكان الاتحاد الذي بينها وبين البدن يسمى بإسمها البدن وإلا فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم ، وناهيك في ذلك التغير المستمر الذي يعرض البدن مدة الحياة ، والتبدل الطبيعي الذي يطرأ عليه حيناً بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه الى أجزاء آخر تتركب بدنأ آخر فلو كان زيد هو البدن الذي ولدته امه يوم ولدته والاسم له لكان غيره وهو ذو سبعين وثمانين قطعاً والاسم لغيره حتماً ، ولم يشب ولم يعاقب الانسان وهو شائب على ما عمله وهو شاب لأن الطاعة والمعصية لغيره .

فهذه وأمثالها شواهد قطعية على أن إنسانية الانسان بنفسه دون بدنه ، والأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الانسان ويعرفها إجمالاً وإن كان ربما أنكرها

في مقام التفصيل .

وبالجملة فالآية : « اليوم نتجيك ببدنك » كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان ، وأن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد .

فمعنى « نتجيك ببدنك » نخرج بدنك من المم وننقيه ، وهو نوع من تنجيتك - لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعاً بنحو على الآخر - لتكون لمن خلفك آية ، وهذا بوجه نظير قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم » طه : ٥٥ فإن الذي يعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد .

وقد ذكر المفسرون أن الإنجاء والتنجية لما كان دالاً بلفظه على سلامة الذي أنجى إنجاء كان مفاد قوله : « نتجيك » أن يكون فرعون خارجاً من المم حياً وقد أخرجه الله ميتاً فالتممين أخذ قوله : « نتجيك » من النجوة وهي الأرض المرتفعة التي لا يعلوها السيل ، والمعنى اليوم نخرج بدنك إلى نجوة من الأرض .

وربما قال بعضهم : إن المراد بالبدن الدرع ، وقد كان لفرعون درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه ليكون لمن خلفه آية وعبرة ، وربما قال بعضهم إن التعبير بالتنجية تهكم به .

والحق أن هذا كله تكلف لا حاجة إليه ، ولم يقل : « نتجيك » وإنما قيل « نتجيك ببدنك » ومعناه تنجي بدنك ، والباء للآلية أو السببية ، والعناية هي الاتحاد الذي بين النفس والبدن .

على أن جعل « نتجيك ببدنك » بمعنى نجعلك على نجوة من الأرض لا يفي بدفع الاشكال من أصله فإن الذي جعل على نجوة هو بدن فرعون على قولهم ، وهو غير فرعون قطعاً وإلا كان حياً سالماً ، ولا مناص إلا أن يقال : إن ذلك بعناية الاتحاد الذي بين الإنسان وبدنه ، ولو صححت هذه العناية إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غير نفس لكان لها أن تصحح نسبة التنجية إلى الإنسان من جهة وقوع

النتيجة ببذنه ، وخاصة مع وجود القرينة الدالة على أن المراد بالنتيجة هي التي للبدن دون التي للإنسان المستتبع لحفظ حياته وسلامته نفساً وبذناً ، والقرينة هي قوله : « ببذنك » .

قوله تعالى : « ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوثاً صدق ورزقناهم من الطيبات » أي أسكنناهم مسكن صدق ، وإنما يضاف الشيء إلى الصدق نحو وعد صدق وقدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق للدلالة على أن لوازم معناه وآثاره المطلوبة منه موجودة فيه صدقاً من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعدها بلسان دلالة الالتزامية لطالبه فوعد صدق مثلاً هو الوعد الذي سيفي به واعدده ، ويسر بالوفاء به مواعده ، ويحق أن يطمع فيه ويرجى وقوعه . فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه ولوازم معناه .

وعلى هذا فقوله : « مبعوثاً صدق » يدل على أن الله سبحانه بوأهم مبعوثاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء والهواء وبركات الأرض ووفور نعمها والاستقرار فيها وغير ذلك ، وهذه هي نواحي بيت المقدس والشام التي أسكن الله بني إسرائيل فيها وسماها الأرض المقدسة المباركة وقد قص القرآن دخولهم فيها .

وأما قول بعضهم : إن المراد بهذا المبعوث مصر دخلها بنو إسرائيل واتخذوا فيها بيوتاً فأمر لم يذكره القرآن . على أنهم لو فرض دخولهم فيها ثانياً لم يستقروا فيها استقراراً مستمراً ، وتسمية ما هذا شأنه مبعوث صدق مما لا يساعد عليه معنى اللفظ .

والآية أعني قوله : « ولقد بوأنا بني إسرائيل - إلى قوله - من الطيبات » مسوقة سوق الشكوى والعتبى ، ويشهد به تذييلها بقوله : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » وقوله : « إن ربك يقضي بينهم » إلى آخر الآية بيان لعاقبة اختلافهم عن علم وبمؤلة أخذ النتيجة من القصة .

والمعنى : أنا أتمننا على بني إسرائيل النعمة وبوأنهم مبعوثاً صدق ورزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مدة طويلة كانوا فيها في أسارة القبط فوحدنا

شعبهم وجمعنا شملهم فكفروا النعمة وفرّقوا الكلمة واختلفوا في الحق ، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل وإنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

* * *

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ — ٩٤ .
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ — ٩٥ .
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ — ٩٦ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ — ٩٧ . فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ — ٩٨ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ — ٩٩ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ — ١٠٠ . قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ — ١٠١ . قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ — ١٠٢ . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ — ١٠٣ .

(بيات)

تتضمن الآيات الاستشهاد على حقيقة ما أنزله الله في السورة من المعارف الراجعة الى المبدء والمعاد وما قصه من قصص الأنبياء وأممهم - ومنهم نوح وموسى ومن بينها من الأنبياء عليهم السلام وأممهم - إجمالاً بما قرأه أهل الكتب السماوية فيها قبل نزول القرآن على النبي ﷺ .

ثم تذكر ما هو كالفذلكة والمعنى المحصل من البيانات السابقة وهو أن الناس لن يملكوا من انفسهم أن يؤمنوا بالله وآياته إلا بإذن الله ، وانما يأذن الله في إيمان من لم يطبع على قلبه ولم يجعل الرجس عليه وإلا فمن حققت عليه كلمة الله لن يؤمن بالله وآياته حتى يرى العذاب .

فالسنة الجارية أن الناس منذ خلقوا واختلفوا بين مكذب بآيات الله ومصدق لها ، وقد جرت سنة الله على ان يقضي فيهم بالحق بعد مجيء رسلهم اليهم فينجي الرسل والمؤمنين بهم ، وبأخذ غيرهم بالهلاك .

قوله تعالى : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك » الى آخر الآية الشك الريب ، والمراد بقوله : « مما أنزلنا اليك » المعارف الراجعة الى المبدء والمعاد والسنة الإلهية في القضاء على الامم مما تقدم في السورة ، وقوله : « يقرءون الكتاب من قبلك » « يقرءون » فعل مضارع استعمل في الاستمرار « ومن قبلك » حال من الكتاب عامله متعلقة المقدّر ، والتقدير منزلاً من قبلك . كل ذلك على ما يعطيه السياق .

والمعنى « فان كنت » أيها النبي « في ريب » وشك « مما أنزلنا اليك » من المعارف الراجعة الى المبدء والمعاد وما قصصنا عليك إجمالاً من قصص الأنبياء الحاكية لسنة الله الجارية في خلقه من الدعوة أولاً ثم القضاء بالحق « فاسأل » أهل الكتاب « الذين » لا يزالون « يقرءون » جنس « الكتاب » منزلاً من السماء « من قبلك » أقسم « لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » المترددين .

وهذا لا يستلزم وجود ريب في قلب النبي ﷺ ولا تحقق شك منه فان

هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب والشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول وبيّنة من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبر مما تعاضدت عليه الحجج وتجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شك في واحدة منها كان له أن يأخذ بالآخرى .

وهذه طريقة شائعة في عرف التخاطب والتفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جرياً على ما تدعوم اليه قرائنهم ترى الواحد منهم يقيم الحجة على أمر من الأمور ثم يقول : فإن شككت في ذلك أو سلمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجة أخرى على ذلك وهي أن كذا كذا، وذلك كناية عن أن الحجج متوفرة متعاضدة كالدعائم المضروبة على ما لا يحتاج إلى مزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكل والبعض .

فيؤول معنى الكلام إلى أن هذه معارف بيّنها الله لك بحجج تضطر العقول إلى قبولها وقصص تحكي سنة الله في خلقه والآثار تدل عليها، بيّنها في كتاب لا ريب فيه ، فعلى ما بيّنه حجة وهناك حجة أخرى وهي أن أهل الكتب السماوية الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدء ومعاد ، وهناك دين إلهي بعث به رسله يدعون إليه ، ولم يدعوا أمة من الأمم إلا انقسموا قبيلين مؤمن ومكذب فأنزل الله آية فاصلة بين الحق والباطل وقضى بينهم .

وهذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه ، وإنما كانوا ينكرون بشارات النبي ﷺ وبعض ما يختص به الإسلام من المعارف وما غيروه في الكتب من الجزئيات ، ومن لطيف الإشارة أن الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصة هود وصالح لعدم تعرض التوراة الموجودة عندهم لقصتها وكذا قصة شعيب وقصة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها وليس إلا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه .

فهذه الآية في لقاء الحجة على النبي ﷺ وزانها وزان قوله تعالى : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ في لقاء الحجة إلى الناس . على أن السورة من أوائل السور النازلة بمكة ، ولم تشتد الخصومة يومئذ بين

المسلمين وأهل الكتاب وخاصة اليهود اشتدادها بالمدينة ، ولم يركبوا بعد من العنا واللبجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجرة النبي ﷺ ، ونشوب الحروب بينهم وبين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » الأنعام : ٩١ .

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى ، وأظنك إن أعمنت في تدبر الآية وسائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي ﷺ بحقية ما نزل إليه من ربه ، ويتحدى على البشر بمعجزم عن إتيان مثله ، وما يصف النبي ﷺ أنه على بصيرة من أمره ، وأنه على بينة من ربه أقنعتك ذلك فيما قدمناه من المعنى ، وأغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها والبحث عنها .

قوله تعالى : « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » نهي عن الارتياح والامتراة أولاً ثم ترقى إلى النهي عن التكذيب بآيات الله وهو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها وظهور بيانها وتكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنياً إلا على العناد واللبجاج .

وقوله : « فتكون من الخاسرين » تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجة وعاقبة فهو المنهي عنه بالحقيقة . والمعنى : « ولا تكن من الخاسرين » والخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه ، وهو الإيمان بالله وآياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادة حياته في الدنيا والآخرة على ما يستفاد من الآية التالية حيث يعطى خسرانهم بأنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية » الخ ، تعليل للنهي السابق ببيان ما للنهي عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال : لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله « الذين حقت عليهم كلمة ربك » موضع « المكذبين » للدلالة على سبب الحكم وأن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمة الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه .

والكلمة الإلهية التي حقت على المكذبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة

العامّة لأدم وزوجته فمن بعدهما من ذريتهما: « قلنا اهبطوا منها جميعاً - الى قوله - والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

وهذا هو الذي يريد به بقوله في مقام بيان سبب خسران المكذّبين: إن الذين حققت عليهم كلمة ربك « وهم المكذّبون حققت عليهم كلمة العذاب فهم « لا يؤمنون » ولذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم وهو الإيمان فحرموه وحرموا بركاته في الدنيا والآخرة ، وإذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم الى الإيمان ولو جاءتهم كل آية « حق يروا العذاب الأليم » ولا فائدة في الإيمان الاضطراري .

وقد كرر الله سبحانه في كلامه هذا القول واستتباعه للخسران وعدم الإيمان كقوله : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » يس : ٧ ، وقوله : « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » يس : ٧٠ أي بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم ، وقوله : « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين » حم السجدة : ٢٥ الى غير ذلك .

وقد ظهر من الآيات أولاً: أن العناد مع الحق والتكذيب بآيات الله يحق كلمة العذاب الخالد على الانسان .

وثانياً : أن رأس مال سعادة الحياة للانسان هو الإيمان .

وثالثاً : أن كل إنسان فهو مؤمن لا محالة إما إيماناً اختيارياً مقبولاً يسوقه الى سعادة الحياة الدنيا والآخرة ، وإما إيماناً اضطرارياً غير مقبول حيث يرى العذاب الأليم .

قوله تعالى : « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي » الخ ، ظاهر السياق أن لولا التحضيض ، وأن المراد بقوله : « آمنت » الإيمان الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده : « فنفعها إيمانها » ولوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفي فاستقام الاستثناء الذي في قوله : « إلا قوم يونس » .

والمعنى : هلا كانت قرية - من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم -

آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها . لا ولم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم بالحياة الى حين آجالهم العادية الطبيعية . ومنه يعلم أن الاستثناء متصل .

وذكر بعضهم أن المعنى : لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلاً كانت القرى كلها هكذا .

وفيه أنه في نفسه معنى لا بأس فيه إلا أن الآية بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات وهو ظاهر .

وذكر بعض آخر : أن المعنى لم يكن معهوداً من حال قرية من القرى أن يكفر ثم يؤمن فينفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب ومتعناهم . والإشكال عليه كالإشكال على سابقه .

قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » أي لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم ولا يؤمن فالمشيئة في ذلك الى الله سبحانه ولم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه ولا أن تحتج بذلك لأنك لا تقدر على إكراههم وإجبارهم على الإيمان ، والإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه وإجبار .

ولذلك قال بعد ذلك في صورة الإستفهام الإنكاري : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » أي بعد ما بيننا أن أمر المشية الى الله وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة لم يبق لك إلا أن تكره الناس وتجبرهم على الإيمان ، وأنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك ولا أنا أقبل الإيمان الذي هذا نعته .

قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » لما ذكر في الآية السابقة أن الأمر الى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآية في بيان ذلك ما محصله أن الملك — بالكسر — لله فله أصالة التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات .

والإيمان بالله عن اختيار والاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج في تحقيقه الى سبب يخصه ، ولا يؤثر هذا السبب ولا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكن الله سبحانه يجعل الرجس والضلال على أهل العناد والجحود لم يأذن في إيمانهم ، ولا رجاء في سعادتهم .

ولو أنه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أولئك المكذبين فقوله : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » حكم عام حقيقي ينيط تملك النفوس للإيمان الى إذن الله ، وقوله : « ويجعل الرجس » الخ ، يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم .

وقد أريد في الآية بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان ، وقد عرّف في قوله تعالى : « ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

وقد أريد ايضاً بقوله : « الذين لا يعقلون » أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقت عليه كلمة العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال : « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » التوبة : ٩٣ .

قوله تعالى : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض » اي من المخلوقات المختلفة المنتشرة التي كل واحد منها آية من آيات الله تعالى تدعو الى الإيمان ، وقوله : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ظاهره أن « ما » استفهامية والجملة مسوقة بداعي الإنكار وإظهار الأسف كقول الطبيب : بماذا أعالج الموت ؟ أي إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا : « قل انظروا في السماوات » الخ ، لكن أي تأثير للنذر فيهم او للآيات فيهم وهم لا يؤمنون اي عازمون بمجموعهم على أن لا يؤمنوا بالطبع الذي على قلوبهم وربما قيل : إن ما نافية .

قوله تعالى : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » تفريع على ما في الآية السابقة من قوله : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » اي اذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئاً وهم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام

الذين خلوا من قبلهم ، وإنما يحبسون نفوسهم لآية العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضي عليهم لأنهم حققت عليهم كلمة العذاب .

ولذا أمر النبي ﷺ أن يبلغهم ذلك بقوله : « قل فانتظروا » أي مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعني يوم العذاب الذي يفصل بيني وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم « إني معكم من المنتظرين » .

وقد تبين بما مر أن الاستفهام في الآية إنكاري .

قوله تعالى : « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا » الجملة تنمة صدر الآية السابقة وقوله : « قل فانتظروا » النخ ، جملة معترضة والنظم الأصلي بحسب المعنى « فهل ينتظرون » أي قومك هؤلاء « إلا مثل أيام الذي خلوا من قبلهم » من الأمم الذين كانت تحق عليهم كلمة العذاب فترسل إليهم آية العذاب « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا » .

وإنما اعترض بقوله : « قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين » بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذي يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جواباً لهم ، وهو يتضمن انتظار النبي ﷺ للقضاء بينه وبينهم ، وأما تنجيته وتنجية المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبي ﷺ والمؤمنون لا هو وحده ، ولا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاة من العذاب ، وهو مع ذلك لا يتعلق به غرض في المقام الذي سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لبشير النبي ﷺ والمؤمنين فافهم ذلك .

وأما قوله : « كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » فعناه كما كنا ننجي الرسل والذين آمنوا في الأمم السابقة عند زول العذاب كذلك ننجي المؤمنين بك من هذه الأمة حقاً علينا ذلك حقاً ، فقوله : « حقاً علينا » مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف ، واللام في « المؤمنين » للعهد والمراد به مؤمنو هذه الأمة ، وهذا هو الوعد الجميل للنبي ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة بالإنجاء .

وليس من البعيد أن يستفاد من قوله : « ننج المؤمنين » أن فيه تلويحاً إلى أن النبي ﷺ لا يدرك هذا القضاء ، وإنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون ولم يذكر

معهم النبي ﷺ مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرار قوله تعالى في كلامه: «فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» أو ما في معناه .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن محمد بن سعيد الأسدي أن موسى بن محمد بن الرضا أخبره أن يحيى بن أكرم كتب إليه يسأله عن مسائل: أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك» من المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب فيها النبي فقد شك فيما أنزل الله، وإن كان المخاطب بها غيره فعلى غيره إذا نزل الكتاب .

قال موسى: فسألت أخي عن ذلك . قال: فأما قوله: «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك» فإن المخاطب بذلك رسول الله ﷺ ولم يكن في شك مما أنزل الله، ولكن قالت الجبهة: كيف لم يبعث إلينا نبياً من الملائكة؟ إنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء في المأكل والمشرب والمشي في الأسواق فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك بمحض الجبهة هل بعث الله رسولا من قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشي في الأسواق؟ ولك بهم أسوة .

وإنما قال: «فإن كنت في شك» ولم يكن ولكن ليتبعهم كما قال له: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»، ولو قال: تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيئون للباهلة، وقد عرف أن نبيّه مؤدّ عنه رسالته وما هو من الكاذبين، كذلك عرف النبي ﷺ أنه صادق فيما يقول ولكن أحب أن ينصف من نفسه .

أقول: ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن موسى بن محمد بن علي، وهو

يرجع الى ما قدمناه ، وقد ورد في بعض الروايات أن الآية نزلت ليلة المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك ، وهم الذين أرادهم بقوله : « الذين يقرءون الكتاب من قبلك » وروي الوجه أيضاً عن الزهري لكن في انطباقه على لفظ الآية خفاء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : لا أشك ولا أسأل .

وفي تفسير العياشي عن معمر قال : قال أبو الحسن الرضا عليه السلام : إن يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه فأظلم العذاب ففرقوا بينهم وبين أولادهم وبين البهائم وأولادها ثم عجبوا إلى الله وضجوا فكف الله العذاب عنهم . الحديث .

أقول : وسيأتي إن شاء الله قصة يونس وقومه في ذيل بعض الآيات المتعرضة لتفصيل قصته عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن علي بن أبي طالب قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي » الآية .

أقول : وروي ما في معناه عن ابن النجار عن عائشة عن النبي ﷺ .

وفي الكافي والبصائر مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الرجس هو الشك ولا نشك في ديننا أبداً .

* * *

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - ١٠٤ . وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - ١٠٥ . وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذْنٌ مِنَ الظَّالِمِينَ - ١٠٦ . وَإِنْ يَمَسُّكَ
اللَّهُ بِضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ - ١٠٧ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ
فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ - ١٠٨ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ - ١٠٩ .

(بيان)

الآيات ، ختام السورة تفرغ المحصل من بياناتها فتشير إجمالاً الى التوحيد والمعاد
والنبوة ، وتأمّر باتّباع القرآن والصبر في انتظار حكم الله بينه وبين أمته .

قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني » الخ ، قد تقدم
غير مرة أن الدين هو السنة المعمول بها في الحياة لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعة
كما في قوله تعالى : « وأخلصوا دينهم لله » النساء : ١٤٦ وربما استعمل بمعنى الجزاء .

وقوله : « إن كنتم في شك من ديني » أي في طريقي التي أسلكها
وأثبت عليها وشك الانسان في دين غيره وطريقته المعمولة له إنما يكون في ثباته
عليه هل يستقر عليه ويستقيم ؟ وقد كان المشركون يطمعون في دينه ﷺ وربما
رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته الى التوحيد ورفض الشرك بالآلهة .

فالمنعني : إن كنتم تشكون فيما أدين به وأدعو إليه هل أستقيم عليه ؟ أو شكتم
في ديني ما هو ؟ ولم تحصلوا الأصل الذي يبتني عليه فأني أصرح لكم القول فيه

وأبينه لكم وهو أني لا أعبد آلهتكم وأعبد الله وحده .

وقد أخذ في قوله : « ولكن أعبد الله الذي يتوفناكم » له تعالى وصف توفيتهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجة اليه في دفع الضرر وجلب النفع ، والتوفي أمر لا يشكون أنه سيصيبهم وأنه الله وحده فساس الحاجة الى الأمن من ضرره يوجب عبادة الله سبحانه .

على أن اختيار التوفي للذكر ليكون في الكلام تلويح الى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعداً قطعياً ، ووفاة المشركين ميعاد عذابهم ، ويؤيد ذلك إتباع قوله : « ولكن أعبد الله الذي يتوفناكم » بقوله : « وأمرت أن أكون من المؤمنين » فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذي ذكره الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبل - الى قوله - نتج المؤمنين » .

والمعنى : فاعلموا واستيقنوا أني لا أعبد آلهتكم ولكن أعبد الله الذي وعد عذاب المكذبين منكم وإنجساء المؤمنين وأمرني أن أكون منهم كما أمرني أن أجتنب عبادة الآلهة .

قوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين الحنيف » عطف على موضع قوله : « وأمرت أن » النخ ، فإنه في معنى وكن من المؤمنين ، وقد مر الكلام في معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير مرة .

قوله تعالى : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » نهي بعد نهي عن الشرك ، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحقق عليه ما أوعده الله به الظالمين في كلامه .

ومن لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء : « ما لا ينفعك ولا يضرك » وحين ذكر العبادة : « الذين تعبدون من دون الله » فإن العبادة بالطبع يعطي للمعبود شعوراً وعقلاً فناسب أن يعبر عنه بنحو « الذين » المستعمل في ذوي العلم والعقل ، والدعاء وإن كان كذلك لمساوقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع ولا يضر ، وربما توهم أن ذوي العلم والعقل يصح أن تتفع وتضر ، عبر بلفظة « ما » ليلوح الى أنها جماد لا يتخيل في حقهم إرادة نفع أو ضرر .

وفي التعبير نفسه أعني قوله : « ما لا ينفعك ولا يضرك » إعطاء الحجة على النهي عن الدعاء .

قوله تعالى : « إن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » الخ ، الجملة حالية وهي تنم عن البيان في الآية السابقة ، والمعنى : ولا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده ولا ضرر ، والحال أن ما مسك الله به من ضرر لا يكشفه غيره وما أرادك به من خير لا يردده غيره فهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته وإرادته ، وهو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده ويرحمهم ، واتصافه بهذه الصفات الكريمة وكون غيره صفر الكف منها يقتضي تخصيص العبادة والدعوة به .

قوله تعالى : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » وهو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوة الحقة ، وقوله : « فمن اهتدى » إلى آخر الآية ، إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيرة ببيان حقيقة هي أن الحق - وقد جاءهم - من حكمه أن من اهتدى إليه فإنما يهتدي ونفعه عائد إليه ، ومن ضل عنه فإنما يضل وضرره على نفسه فلمهم أن يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع أو ضرر ، وليس هو صلى الله عليه وسلم وكذا لم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآية كناية عن وجوب اهتدائهم إلى الحق لأن فيه نفعهم .

قوله تعالى : « واتبع ما يوحى إليك من ربك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » أمر باتباع ما يوحى إليه والصبر على ما يصيبه في جنب هذا الاتباع من المصائب والمحن ، ووعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه وبين القوم ، ولا يحكم إلا بما فيه قرة عينه فالآية تشتمل على أمره بالاستقامة في الدعوة وتسليته فيما يصيبه ، ووعدده بأن العاقبة الحسنى له .

وقد اختتمت الآية بحكمه تعالى ، وهو الذي عليه يعتمد معظم آيات السورة في بيانها . والله اعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة هود مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ - ٢ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا
حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ - ٣ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٤ .

مركز تحقيق كتاب تبيين علوم اسلامی
(بیان)

السورة كما يظهر من مفتتحها ومختتمها والسياق الذي يجري عليه آياتها تبين
غرض الآيات القرآنية على كثرتها وتشتتها ، وتصف المحصل من مقاصدها على
اختلافها والملخص من مضامينها .

فتذكر أنها على احتوائها معارف الدين المختلفة من أصول المعارف الإلهية
والأخلاق الكريمة الإنسانية ، والأحكام الشرعية الراجعة الى كليات العبادات
والمعاملات والسياسات والولايات ثم وصف عامة الخليفة كالعرش والكرسي واللوح
والقلم والسماء والأرض والملائكة والجن والشیاطین والنبات والحيوان والإنسان ،
ووصف بدء الخليفة وما ستعود إليه من الفناء والرجوع الى الله سبحانه .

وهو يوم البعث بما يتقدمه من عالم القبر وهو البرزخ ثم القيام لرب العالمين والحشر والجمع والسؤال والحساب والوزن وشهادة الأشهاد ثم فصل القضاء ثم الجنة أو النار بما فيها من الدرجات والدركات .

ثم وصف الرابطة التي بين خلقه الانسان وبين عمله ، وما بين عمله وما يستتبعه من سعادة أو شقاوة ونعمة أو نقمة ودرجة أو دركة ، وما يتعلق بذلك من الوعد والوعيد والإنذار والتبشير بالموعظة والمجادلة الحسنة والحكمة .

فآيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية والحقائق الحقة تعتمد على حقيقة واحدة هي الأصل وتلك فروعها ، وهي الأساس الذي بني عليه بنيان الدين وهو توحيد تعالى توحيد الاسلام بأن يعتقد أنه تعالى هو رب كل شيء لا رب غيره ويسلم له من كل جهة فيوفي له حق ربوبيته ، ولا يخشع في قلب ولا يخضع في عمل إلا له جلّ أمره .

وهذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها وشرائعها بالتحليل ، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب .

فالسورة تبين ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمة الإنذار والتبشير بذكر ما لله من السنة الجارية في عباده ، وإيراد أخبار الأمم الماضية ، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابة الدعوة الإلهية والإفساد في الأرض والإسراف في الأمر ، ووصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أوعده الله به الذين كفروا وكذبوا بالآيات ، وتبين في خلال ذلك أموراً من المعارف الإلهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والمعاد .

وبما تقدم يظهر ما في قول بعضهم عند ما ذكر غرض هذه السورة: أنها في معنى سورة يونس وموضوعها ، وهو أصول عقائد الاسلام في الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات ، وقد فصل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرسل عليهم السلام . انتهى .

وقد عرفت أن السورتين مسوقتان لفرضين مختلفين لا يرجع أحدهما إلى الآخر

البتة فسورة يونس تبين أن السنة الإلهية جارية على القضاء بين الرسل وبين أممهم المكذابين لهم، ثم توعده هذه الأمة بما جرى مثله على الذين من قبلهم، وسورة هود تبين أن المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أن التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية والفرعية .

والسورة — على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها — مكية نازلة دفعة واحدة، وقد روي عن بعضهم استثناء قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » الآية ١٢ فذكر أنها مدنية .

واستثنى بعضهم قوله : « أفمن كان على بينة من ربه » الآية ١٧ ، وبعضهم قوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » الآية ١١٤ ، ولا دليل على شيء من ذلك من طريق اللفظ ، وظاهر اتصالها أنها جميعاً مكية .

قوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » المقابلة بين الأحكام والتفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض ، والتفرقة بين الأمور المندجة كل منها في آخر تدل على أن المراد بالأحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر وإرجاع طرف منه إلى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذي أجزاء وأبعاد .

ومن المعلوم أن الكتاب إذا اتصف بالأحكام والتفصيل بهذا المعنى الذي مر فإنما يتصف بها من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه أو غير ذلك ، وأن حال المعاني في الأحكام والتفصيل والاتحاد والاختلاف غير حال الأعيان فالمعاني المتكثرة إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع وهو بعينه على إجماله هذه التفاصيل ، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال وهذا كله ظاهر لا ريب فيه .

وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة أولاً ثم مفصلة ثانياً معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وتشئت مقاصدها وأغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط ، وغرض فارد أصلي لا تكثر فيه ولا تشئت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصداً من المقاصد ولا ترمي إلى هدف إلا والغرض الأصلي هو الروح

الساري في جثثانه والحقيقة المطلوبة منه .

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته وتفرق أبعاضه إلا غرض واحد متوحد إذا فصل كان في مورد أصلاً دينياً وفي آخر أمراً خلقياً وفي ثالث حكماً شرعياً وهكذا كلما تنزل من الاصول الى فروعها ومن الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ ، ولا يخطي غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد والأخلاق والأعمال ، وهي بتحليلها وإرجاعها الى الروح الساري فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد .

فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزّه وكبريائه مثلاً في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنی وصفاته العليا ، وفي مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا والتسليم والشجاعة والعفة والسخاء ونحو ذلك والاجتناب عن الصفات الرذيلة ، وفي مقام الأعمال والأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة والورع عن محارم الله .

وإن شئت فقل : إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يدينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب وكذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص .

فقد تبين أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف والشرائع القرآنية الى أصل واحد هو بحيث إذا ركتب في كل مورد من موارد العقائد والأوصاف والأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكماً يخصه من الأحكام القرآنية ؛ وبذلك يظهر :

أولاً : أن قوله : « كتاب » خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هذا كتاب ، والمراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسم الى السور والآيات ، ولا ينافي ذلك ما ربما يذكر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو في اللوح فإن هذا الكتاب المقروء متحد مع ما في اللوح اتحاد التنزيل مع التأويل .

وثانياً : أن لفظة « ثم » في قوله : « ثم فصلت » الخ ، لإفادة التراخي بحسب ترتيب الكلام دون التراخي الزماني إذ لا معنى للتقدم والتأخر الزماني بين المعاني المختلفة بحسب الأصلية والفرعية او بالإجمال والتفصيل .

ويظهر ايضاً ما في بعض ما ذكره أرباب التفاسير في معنى الآية كقول بعضهم: إن معناها أحكت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب والشرائع ثم فصلت ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام .

وفيه : أن الواجب على هذا المعنى ان يقيّد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنية نفسها مما لا ينبغي الارتياح فيه . والتقيد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية .

وكقول بعضهم: إن المراد أحكت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وفيه أنه تحكّم لا دليل عليه أصلاً .

وكقول بعضهم : إن المراد إحكام لفظها يجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزاً ، وتفصيلها بالشرح والبيان . والكلام في هذا الوجه كسابقه .

وكقول بعضهم : المراد بإحكام آياته جعلها محكمة متقنة لا خلل فيها ولا باطل ، والمراد بتفصيلها جعلها متتابعة بعضها إثر بعض . وفيه : ان التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغة إلا ان يقترن بمعنى التفرقة والتكثير ويرجع حينئذ الى ما قدمناه من المعنى .

وكقول بعضهم: إن المراد أحكت آياته جملة ثم فرقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلف أمكن من النظر والتأمل .

وفيه : أن الأخرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » الدخان : ٣ ، وقوله : « وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » أسرى : ١٠٦ وما في هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن للقرآن مرتبة عند الله هي اعلى من سطح الأفهام ثم نزل الى مرتبة تقبل التفهم والتفقه رعاية لحال الأفهام العادية كما يشير اليه ايضاً قوله : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

وأما آيتنا التي نحن فيها : « كتاب أحكت آياته ثم فصلت » الخ ، فقد علق

فيها الأحكام والتفصيل معاً على الآيات ، وليس ذلك إلا من جهة معانيها فتفيذ أن الأحكام والتفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثرة فلها جهة واحدة وبساطة وجهة كثرة وتركيب ، وينطبق على ما قدمناه من المعنى لا على ما ذكره الراجع الى مسألة التأويل والتزويل فافهم ذلك .

وكقول بعضهم : إن المراد بالأحكام والتفصيل إجمال بعض الآيات وتبيين البعض الآخر ، وقد مثل لذلك بقوله تعالى في هذه السورة : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع » الآية : ٢٤ ، فإنه بجمل محكم يتبين بما ورد فيها من قصة نوح وهود وصالح . وهكذا .

وفيه : أن ظاهر الآية أن الأحكام والتفصيل متحدان من حيث المورد بمعنى أن الآيات التي ورد عليها الأحكام بعينها هي التي ورد عليها التفصيل لا أن الأحكام وصف لبعض آياته والتفصيل وصف بعضها الآخر كما هو لازم ما ذكره .

وقوله تعالى : « من لدن حكيم خبير » الحكيم من اسمائه الحسنی الفعلية يدلّ على اتقان الصنع ، وكذا الخبير من اسمائه الحسنی يدلّ على علمه بجزئيات احوال الامور الكائنة ومصالحها ، وإسناد الأحكام والآيات وتفصيلها الى كونه تعالى حكيماً خبيراً لما بينها من النسبة .

قوله تعالى : « أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » الآية ، وما بعدها تفسير لمضمون الآية الاولى : « كتاب أحسكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وإذا كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله الى ... له آيات محكمة ثم مفصلة كانت العناية في تفسيرها متوجهة الى إيضاح هذه الجهات .

ومن المعلوم أن هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس ويبلغهم له وجسه خطاب الى الرسول ﷺ ووجه خطاب الى الناس بوساطته أما وجه خطابه الى الرسول ﷺ وهو الذي يتلقاه الرسول من وحي الله فهو أن انذر وبشر وادع الناس الى كذا وكذا ، وهذا الوجه هو الذي عني به في اول سورة يونس حيث قال تعالى : « اوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر

الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم « يونس : ٢ .

واما وجه خطابه الى الناس وهو الذي يتلقاه الناس من الرسول ﷺ فهو ما يلقيه الى الناس من المعنى في ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أني ادعوكم الى الله دعوة نذير وبشير ، وهذا الوجه من الخطاب هو الذي غني به في قوله : « ان لا تعبدوا إلا الله انني لكم نذير وبشير » الخ .

فالآية من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوة الرسول اياهم بتلاوة كتاب الله عليهم ، وليس كلاماً للرسول بطريق الحكاية ولا بتقدير القول ولا من الالتفات في شيء ، ولا ان التقدير : امركم بأن لا تعبدوا او : « فصلت آياته لأن لا تعبدوا إلا الله » بأن يكون قوله : « لا تعبدوا » نفياً لا نهياً فإن قوله بعد : « وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » معطوف على قوله : ان لا تعبدوا الا الله ، وهو يشهد بأن « لا تعبدوا » نهى لا نفى . على ان التقدير لا يصار اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعة البلاغة في الآية .

وعلى هذا فقوله : « ان لا تعبدوا الا الله » دعوة الى توحيد العبادة بالنهي عن عبادة غير الله من الآلهة المتخذة شركاء لله ، وقصر العبادة فيه تعالى ، وقوله : « وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » امر بطلب المغفرة من الله وقد اتخذوه رباً لهم برفض عبادة غيره ثم امر بالتوبة والرجوع اليه بالأعمال الصالحة ، ويتحصل من الجميع سلوك الطريق الطبيعي الموصل الى القرب والزلقي منه تعالى ، وهو رفض الآلهة دون الله ثم طلب المغفرة والطهارة النفسانية للحضور في حظيرة القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحة .

وقد جيء بأن التفسيرية ثانياً في قوله : « وأن استغفروا » الخ ، لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » وهي مرحلة التوحيد بالعبادة مخلصاً ، وقوله : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » وهي مرحلة العمل الصالح وإن كانت الثانية من نتائج الاولى وفروعها .

ولكون التوحيد هو الأصل الأساسي والاستغفار والتوبة نتيجة وفرعاً متفرعاً

عليه أورد النذر والبشارة بعد ذكر التوحيد، والوعد الجميل الذي يتضمنه قوله : « يمتعكم الخ » بعد ذكر الاستغفار والتوبة فقال : « أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير » فبيّن به أن النذر والبشرى كائنين ما كانا يرجعان الى التوحيد ويتعلقان به ثم قال : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً » الخ فإن الآثار القيمة والنتائج الحسنة المطلوبة إنما تترتب على الشيء بعد ما تم في نفسه وكمل بصفاته وفروعه ونتائجه ، والتوحيد وإن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعة لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها ويتفرع عليها فروعها وأغصانها ، « كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .

والظاهر أن المراد بالتوبة في الآية الإيمان كما في قوله تعالى : « فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » المؤمنون : ٧ فيستقيم الجمع بين الاستغفار والتوبة مع عطف التوبة عليه بثم ، والمعنى اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصية ثم آمنوا بربكم .

وقيل : إن المعنى اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليه بالتوبة وهو غير جيد ومن التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى : استغفروا من ذنوبكم الماضية ثم توبوا إليه كلما أذنبتم في المستقبل وكذا قول آخر : إن « ثم » في الآية بمعنى الواو لأن التوبة والاستغفار واحد .

وقوله : « يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى » الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي إليه الحياة لا تتخطاه البتة ، فالمراد هو التمتع في الحياة الدنيا بل بالحياة الدنيا لأن الله سبحانه سماها في مواضع من كلامه متاعاً ، فالمتاع الحسن الى أجل مسمى ليس إلا الحياة الدنيا الحسنة .

فيؤول معنى قوله : « يمتعكم متاعاً حسناً » على تقدير كون « متاعاً » مفعولاً مطلقاً الى نحو من قولنا : يمتعكم تمتعاً حسناً بالحياة الحسنة الدنيوية ، ومتاع الحياة إنما يكون حسناً إذا ساق الإنسان الى سعادته الممكنة له ، وهداه الى أمانى الإنسانية من التمتع بنعم الدنيا في سعة وأمن ورفاهية وعزة وشرافة فهذه الحياة الحسنة تقابل

المعيشة الضئيلة التي يشير إليها في قوله : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضئيلة » طه : ١٢٤ .

ولأحسن لمتاع الحياة الدنيا ولا سعة في المعيشة لمن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه فإن البعض من الناس وإن أمكن أن يؤتى سعة من المال وعلواً في الأرض ثم يحسب أن لا أمانة من أمانى الإنسانية إلا وقد أوتىها لكنه في غفلة عن ابتهاج من تحقق بحقيقة الإيمان بالله ودخل في ولاية الله فأثابه الله الحياة الطيبة الإنسانية ، وآمنه من ذلة الحياة الحيوانية التي لا حكومة فيها إلا للحرص والشر والافتراء والتكالب والجهالة ، فالنفس الحرة الإنسانية تدم من الحياة ما يستأثره النفوس الرذيلة الخسيسة وإن استتبع الذلة والمسكنة وكل شناعة .

فالحياة الحسنة للمجتمع صالح حر أن يشتركوا في التمتع من مزايا النعم الأرضية التي خلقها الله لهم اشتراكاً عن تراحم بينهم وتعاون وتعاضد من غير تعدد وتزاحم بحيث يطلب كل خير نفسه ونفعها في خير مجتمعهم ونفعه من غير أن يعبد نفسه ويستعبد الآخرين .

وبالجملة التمتع بالحياة الحسنة إلى أجل مسمى هو تمتع الفرد بالحياة على ما تستحسنه الفطرة الإنسانية وهو الاعتدال في التمتع بالمادية في ضوء العلم النافع والعمل الصالح هذا إذا نسب إلى الفرد ، وأما إذا نسب إلى المجتمع فهو الانتفاع العام من نعم الحياة الأرضية الطيبة بتخصيص ما يناله الأفراد بكدهم وسعيهم بالمجتمع الملتزم الأجزاء من غير تضاد بين أبعاضه أو تناقض .

وقوله : « ويؤت كل ذي فضل فضله » الفضل هو الزيادة وإذا نسب الفضل في قوله : « كل ذي فضل » إلى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينة على كون الضمير في « فضله » راجعاً إلى ذي الفضل دون اسم الجلالة كما احتمله بعضهم والفضل والزيادة من المعاني النسبية التي إنما تتحقق بقياس شيء إلى شيء وإضافته إليه .

فالمنعنى : ويعطي كل من زاد على غيره بشيء من صفاته وأعماله وما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر وخصوص موهبة السعادة تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه أو يغصب فضله أو يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينية وإن كانت مدنية

راقية فلم تزل البشرية منذ سكنت الأرض وكونت أنواع المجتمعات الهمجية او الراقية او ما هي أرقى تنقسم الى طائفتين مستعلية مستكبرة قاهرة ، ومستذلة مستعبدة مقهورة ، وليس يعدل هذا الافراط والتفريط ولا يسوي هذا الاختلاف إلا دين التوحيد

فدين التوحيد هو السنة الوحيدة التي تقصر المولوية والسيادة في الله سبحانه وتسوي بين القوي والضعيف والمتقدم والمتأخر والكبير والصغير والأبيض والأسود والرجل والمرأة وتنادي بمثل قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم » الحجرات : ١٣ ، وقوله : « أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » آل عمران : ١٩٥ .

ثم إن وقوع قوله : « ويؤت كل ذي فضل فضله » الحاكي عن الاعتناء بفضل كل ذي فضل بعد قوله : « يتمتع متاعاً حسناً الى أجل مسمى » الدال على تمتيع الجميع مشعر :

اولاً : بأن المراد بالجملة الاولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع وبعبارة أخرى حياة المجتمع العامة الحسنة ، وبالجملة الثانية المزايا التي يؤتاها بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل .

وثانياً : أن الجملة الاولى تشير الى التمتع بمتاع الحياة الدنيا والثانية الى ابتاء ثواب الآخرة قبال الأعمال الصالحة القائمة بالفرد او ابتاء كل ذي فضل فضله في الدنيا والآخرة معاً بتخصيص كل من جاء بزيادة في جهة دنيوية بما تقتضيه زيادته من المزية في جهات الحياة بإقامة كل ذي فضيلة في صفة او عمل مقامه الذي تقتضيه صفته او عمله ووضع موضعه من غير أن يسوي بين الفاضل والمفضول في دينها او تزاح الخصوصيات وتبطل الدرجات والمنازل بين الأعمال والمساعي الاجتماعية فلا يتفاوت حال الناشط في عمله والكسلان ، ولا يختلف أمر المجتهد في العمل الدقيق المهم في بابيه واللاعب بالعمل الحقيق الهين وهكذا .

وقوله : « فإن تولوا فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » أي فإن تتولوا

الخ بالخطاب ، والدليل عليه قوله : « عليكم » وما تقدم في الآيتين من الخطابات المتعددة فلا يصفي الى قول من يأخذ قوله : « تولوا » جمعاً مذكراً غائباً من الفعل الماضي فإنه ظاهر الفساد .

وقد أغرب بعض المفسرين حيث قال في قوله تعالى : « يتمتع متاعاً حسناً الى أجل مسمى » : والآية تتضمن نجاة هذه الامة المحمدية من عذاب الاستئصال كما بيناه في تفسير سورة يونس ايضاً انتهى ، ولست أدري كيف استفاد من الآية ما ذكره ولعله بنى ذلك على ان الآية اشترطت للامة الحياة الحسنة من غير استئصال إن آمنوا بالله وآياته ثم إنهم آمنوا وانتشر الاسلام في الدنيا ، لكن من المعلوم أن الرسول ﷺ مرسل الى اهل الدنيا عامة ولم يؤمن به عامتهم ، ولا أن المؤمنين به أخلصوا جميعاً لإيمانهم من النفاق وسرى الايمان من ظاهرهم الى باطنهم ومن لسانهم الى جنانهم .

ولو كانت مجرد إيمان بعض الامة مع كفر الآخرين كافياً في تحقق الشرط وارتفاع عذاب الاستئصال لكفى في أمة نوح وهود عليها السلام وغيرها وقد دعوا أمهم الى ما دعا اليه محمد ﷺ ، واشتروطوا لهم مثل ما اشترط لامته ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال وكان حقاً عليه نصر المؤمنين .

وقد حكى الله سبحانه عن نوح قوله لقومه في ضمن دعوته : « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » نوح : ١٢ وحكى عن هود قوله : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » هود : ٥٢ ، وحكى جملة عن نوح وهود وصالح والذين من بعدهم قولهم : « أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوك ليغفر لك من ذنوبك ويؤخركم الى اجل مسمى » إبراهيم : ١٠ .

واما قوله : « وقد بيناه في سورة يونس ايضاً » فلم يأت هناك إلا بدعوى خالية وقد قدمنا هناك ان آيات سورة يونس صريحة في ان الله سيقضي بين هذه الامة وبين نبيها ﷺ فيعذبهم وينجي المؤمنين سنة الله التي قد خلت في عباده

ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

قوله تعالى : « الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير » في مقام التعليل لما يفيد قوله : « فإن تولتوا فإني اخاف عليكم عذاب يوم كبير » من المعاد ، وذيل الآية ، مسوق لازاحة ما يمكن ان يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت ، والمعنى وان تولوا عن إخلاص العباداة له ورفض الشركاء فإني اخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه وهو يوم البعث بعند الموت لأن مرجعكم الى الله والله على كل شيء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الإماتة فإياكم ان تستبعدوا ذلك .

فالآية قرينة على ان المراد باليوم الكبير يوم القيامة ، وروى القمي في تفسيره مضمراً ان المراد بعذاب يوم كبير : الدخان والصيحة .



أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ - ٥ .
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ - ٦ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ - ٧ . وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ

لَيَقُولَنَّ مَا يَجْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ - ٨ . وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا
مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كُفُورًا - ٩ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّاهُ
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا - ١٠ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ - ١١ . فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ
بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ
كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ
- ١٢ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ١٣ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ - ١٤ . مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفَّ إِلَيْهِمْ
أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ - ١٥ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ - ١٦ .

(يان)

جمل وفصول من أعمال المشركين وأقوالهم في الردة على نبوة النبي ﷺ وما
نزل عليه من الكتاب تذكرها الآيات وتجب عنها بإلقاء الحجة كاستغفائهم من الله،

وقولهم : ما يحبس العذاب عنا ، وقولهم : لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك ، وقولهم : إنه افترى القرآن . وفيها بعض معارف آخر .

قوله تعالى : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه » الى آخر الآية ، ثنى الشيء يثناه ثنياً كفتح يفتح فتحة اي عطفه وطواه ورداً بعضه على بعض قال في المجمع : أصل الثني العطف تقول : ثنيته عن كذا اي عطفته ، ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى ، ومنه الثناء لعطف المذائق في المدح ، ومنه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه ، انتهى . وقال ايضاً : الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال : استخفى وتخفى بمعنى ، وكذلك استغشى وتغشى ، انتهى .

فالمراد بقوله : « يثنون صدورهم ليستخفوا منه » أنهم يميلون بصدورهم الى خلف ويغطون رؤوسهم ليتخفوا من الكتاب اي من استماعه حين تلاوته وهو كناية عن استخفائهم من النبي ﷺ ومن حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتازمهم الحجة .

وقوله : « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم » الخ ، كأنهم كانوا يسترّون رؤوسهم ايضاً بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فقد ذكر الله سبحانه ذلك وأخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسترّون وما يعلنون فما يغنيهم التخفي عن استماع القرآن والله يعلم سرّهم وعلاانيتهم .

وقيل : إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلاً عند أخذ المضاجع للنوم ، وهو أخفى ما يكون فيه الانسان وأخلى أحواله ، والمعنى : أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم ، والله يعلم سرّهم وعلاانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال وهو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم ، ولا يخلو الوجه من ظهور .

هذا ما يفيد السياق في معنى الآية ، وربما ذكر لها معان أخر بعيدة من السياق منها قولهم : إن الضمير في « ليستخفوا منه » راجع اليه تعالى او الى النبي ﷺ ومنها قول بعضهم : « يثنون صدورهم » اي يطوونها على الكفر ، وقول آخرين : اي يطوونها على عداوة النبي ﷺ الى غير ذلك من المعاني المذكورة وهي جميعاً معان بعيدة .

قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » الى آخر الآية ، الدابة على ما في كتب اللغة كل ما يدب ويتحرك ، ويكثر استعماله في النوع الخاص منه ، وقرينة المقام تقتضي كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعة علمه تعالى ، ولذلك عقب به قوله : « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه علم بذات الصدور » .

وهذا المعنى أعني كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعة علمه لكل دابة في جميع احوالها يستوجب أن يكون قوله : « ويعلم مستقرها ومستودعها » بمنزلة عطف التفسير لقوله : « على الله رزقها » فيعود المعنى الى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها - ولن تبقى بغير رزق - فهو تعالى علم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالخوت في الماء وكالصدف فيما وقعت واستقرت فيه من الأرض رزقها هناك وإن كانت خارجة من مستقرها وهي في مستودع ستتركه الى مستقرها كالطير في الهواء او كالمسافر الغارب عن وطنه او كالجنين في الرحم رزقها هناك وبالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق وخبرة منه بما حل فيه من محل دائم او معجل ومستقر او مستودع .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمستقر والمستودع المحل الذي تستقر فيه الدابة ما دامت دابة تدب في الأرض وتعيش عيشة دنيوية والمحل الذي تحل فيه ثم تودعه وتفارقه ، وأما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر والمستودع أماكنها في الحياة وبعد الممات أو أن المراد بها الأصلاب والأرحام أو أن المراد بها مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقارن حين كانت بعد بالقوة فمعان بعيدة عن سياق الآية اللهم إلا أن يجعل قوله : « ويعلم مستقرها ومستودعها » كلاماً مستأنفاً بحالها غير مفسر لما قبله .

وقد تقدم في قوله تعالى : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » الأنعام ٩٨ ما يناسب هذا المقام فليراجع اليه من شاء .

وأما قوله : « على الله رزقها » فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى وقد

تكرر في القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصة به وأنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى : « أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ، الملك : ٢١ ، وقال تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، الذاريات : ٥٨ وقال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ .

ولا ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره إذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره ، ولذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال : « كتب على نفسه الرحمة ، الأنعام : ١٢ ، وقال : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ الى غير ذلك من الآيات .

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحى وجوده وإذا كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله ، وإذا لا شريك له تعالى في إيجاد لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق .

وقد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آية : ٥٩ وفي سورة يونس آية : ٦١ فليراجع .

قوله تعالى : « وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما يظهر من كلامه تعالى ويفسره ما ورد في ذلك عن اهل العصمة عليهم السلام موكول الى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

وإجمال القول الذي يظهر به معنى قوله : « ستة أيام » وقوله : « وكان عرشه على الماء » هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات - بلفظ الجمع - ويقارنها بالأرض ويصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكل ما علاك وأظلك فهو سماء على ما قيل والعلو والسفل من المعاني الإضافية .

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا وتحيط بها فإن الأرض

كروية الشكل على ما يفيد قوله تعالى : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً »
الاعراف ٥٤ .

والسماوات الأولى هي التي ترتيبه مصابيح النجوم والكواكب فهي الطبقة التي
تتضمنها أو هي فوقها وتزين بها كالسقف يتزين بالقناديل والمشاي وأما ما فوق
السماوات الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى : « سبع سماوات
طباقاً » الملك : ٣ ، وقوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل
القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً » نوح : ١٦ حيث يدل على مطابقة
بعضها بعضاً .

وقد ذكر الله سبحانه في صفة خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها ومتفرقة متلاشية
فجمعها وركبها وأنها كانت دخاناً فصيرها سماوات ، قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا
أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون »
الأنبياء : ٣٠ وقال : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا
طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل
سماة أمرها » حم السجدة ١٢ فأفاد أن خلق السماوات إنما تم في يومين ، واليوم
مقدار معتد به من الزمان وليس من الواجب أن يطابق اليوم في كل ظرف ووعاء
يوم أرضنا الحاصل من دورة واحدة من حركتها الوضعية كما أن اليوم الواحد في القمر
الذي لهذه الأرض يعدل تسعة وعشرين يوماً ونصفاً تقريباً من أيام الأرض واستعمال
اليوم في البرهة من الزمان شائع في الكلام .

فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في الأرض :
« خلق الأرض في يومين » - إلى أن قال - « وقدّر فيها أوقاتها في أربعة أيام » حم
السجدة : ١٠ فأنبأ عن خلقها في يومين وهما عهدان وطوران وجعل الأوقات في
أربعة أيام وهي الفصول الأربعة .

فالمتحصل من الآيات أولاً : أن خلق السماوات والأرض على ما هي عليه اليوم
من الصفة والشكل لم يكن عن عدم بحت بل هي مسبوقة الوجود بمادة متشابهة

مر كومة مجتمعة ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضاً في برهتين من الزمان وقد كانت السماء دخاناً ففصلت وقضيت سبع سموات في برهتين من الزمان .

وثانياً: أن ما نراه من الأشياء الحية إنما جعلت من الماء فمادة الماء هي مادة الحياة . وبما قدمنا يظهر معنى الآية التي نحن فيها فقوله : « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام » المراد بخلقها جمع أجزائها وفصلها وفتحها من سائر ما يختلط بها من المادة المتشابهة المركومة ، وقد تم أصل الخلق والرتق في السماوات في يومين وفي الأرض أيضاً في يومين ويبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك .

وأما قوله : « وكان عرشه على الماء » فهو حال والمعنى وكان عرشه يوم خلقهن على الماء وكون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقراً يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه ، واستقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما ان استواءه على العرش احتواءه على الملك وأخذه في تدبيره .

وقول بعضهم : إن المراد بالعرش البناء أخذاً من قوله تعالى : « بما يعرشون » النحل : ٦٨ أي يبنون كلام بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « لنبلوكم أيتكم أحسن عملاً » اللام للغاية والبلاء الامتحان والاختبار ، وقوله : « أيتكم أحسن عملاً » بيان للاختبار والامتحان في صورة الاستفهام والمراد أنه تعالى خلق السماوات والأرض على ما خلق للغاية امتحانكم وتمييز المحسنين منكم من المسيئين .

ومن المعلوم أن البلاء والامتحان أمر مقصود لغيره وهو تمييز الجيد من الردي والحسن من السيئ ، وكذلك الحسنة والسيئة إنما يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء ، وكذلك الجزاء إنما يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق ولذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة فقال في كون الابتلاء غاية للخلقة : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيتهم أحسن عملاً » الكهف : ٧ ، وقال في معنى التمييز والتمحيص : « ليميز الله الخبيث من الطيب » الأنفال : ٣٧ ،

وقال في خصوص الجزاء : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » الجاثية : ٢٢ وقال في كون الإعادة لإنجاز الوعد : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » الأنبياء : ١٠٤ الى غير ذلك من الآيات ، وقال في كون العبادة غرضاً في خلق الثقلين : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » الذاريات : ٥٦ .

وعد العمل الصالح او الانسان المحسن غاية للخلقة لا ينافي اشتغال الخلقة على غايات أخرى بعد ما كان الانسان أحد تلك الغايات حقيقة لأن الوحدة والاتصال الحاكم على العالم يصحح كون كل واحد من أنواع الموجودات غاية للخلقة بما أنه محصول الارتباط ونتيجة الازدواج العام بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كل نوع من أنواع الخلقة أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات والأرض بما أنها تؤدي اليه .

على أن الانسان أكمل وأتقن المخلوقات الحسانية من السماوات والأرض وما فيها صنماً ولئن غمي في جانب العلم والعمل فناء حسناً كان أفضل ذاتاً مما سواه وأرفع مقاماً وأعلى درجة من غيره وإن كان بعض الخلقة كالسما أشد منه خلقاً كما ذكره الله تعالى ومن المعلوم أن كمال الصنع هو المقصود منه اذا اشتمل على ناقص ولذا كنا نعد مراحل وجود الانسان المختلفة من النوية والجنينية والطفولية وغيرها مقدمة لوجود الانسان السوي الكامل وهكذا .

وبهذا البيان يظهر أن أفضل افراد الانسان — إن كان فيهم من هو أفضل مطلقاً — غاية لخلق السماوات والأرض، ولفظ الآية ايضاً لا يخلو عن إشارة او دلالة على ذلك فإن قوله : « أيكم أحسن عملاً » يفيد أن القصد الى تمييز من هو أحسن عملاً من غيره سواء كان ذلك الغير محسناً او مسيئاً فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين وأعمالهم دون عمله او مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقة، وبذلك يستصح ما ورد في الحديث القدسي من خطابه تعالى لنبيه ﷺ : « ولولاك لما خلقت الأفلاك » فإنه ﷺ أفضل الخلق .

وفي الجمع : قال الجبائي : وفي الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السماوات

والأرض والملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من شيء مكلف ، وقال علي بن عيسى : لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائي وهو الذي اختاره المرتضى قدس الله روحه . انتهى .

أقول : وما ذكرناه مبني على ما ذهب إليه المعتزلة : أن أفعال الله سبحانه معاملة بالأغراض وقابعة للمصالح وجهات الحسن ولو كان ذلك بأن يخلق خلقاً ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به ويؤمنوا له فيتم بذلك مصلحة من مصالحهم ، وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن الله سبحانه لا يحكم عليه ولا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أي شيء آخر مفروض وأن غيره أي شيء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمراً ذا واقعية ووجود إن الحكم إلا لله والله خالق كل شيء .

فجهات الحسن والمصلحة وهي التي تحكم علينا وتبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجة عن أفعالنا مؤثرة فينا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادة الحياة ، وأما هو سبحانه فإنه أجل من ذلك . وذلك أن جهات الحسن والمصلحة هذه إنما هي قوانين عامة مأخوذة من نظام الكون والروابط الدائرة بين أجزاء الخلقة ، ومن الضروري أن الكون وما فيه من النظام الجاري فعله سبحانه ، ومن الممتنع جداً أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه ولا يقنع حق يتقدم على فاعله الموجد له .

وأما ما في الآية من تعليل خلق السماوات والأرض بقوله : « ليباؤكم أيكم أحسن عملاً » ونظائره الكثيرة في القرآن فإنما هو وأمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة والمصالح المتفرعة وقد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال : « الذي أحسن كل شيء خلقه » ألم السجدة : ٧ ، فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه وهو الحسن لا قبح عنده وما كان كذلك لم يصدر عنه شر ولا قبيح البتة .

وليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذي أمر به وإن استقبحه العقل ، ومعنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذي نهى عنه

وإن استحسنه العقل واستصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء » الأعراف : ٢٨ .

قوله تعالى : « ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » لما كان قوله : « ليلوكم » الخ ، يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجه به الكفار ذكره ﷺ للمعاد برمييه بأنه سحر من القول .

فظاهر الآية أنهم كما كانوا يسمون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة وبلاغة النظم سحراً ، كذلك كانوا يسمون ما ينخر به القرآن او النبي ﷺ من حقائق المعارف التي لا يصدقها أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً ، وعلى هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله والتعنّت والعناد مع الحق الصريح حيث تعدوا عن رمي اللفظ لفصاحته وبلاغته بالسحر الى رمي المعنى لصحته واستقامته بالسحر .

ومن الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة والتمويه بإظهار الباطل في صورة الحق على نحو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير المورد : « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنسى تسحرون » المؤمنون : ٨٩ .

قوله تعالى : « ولئن أخرجنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسهم » الى آخر الآية. اللام في صدر الآية للقسم ولذلك أكد الجواب أعني قوله : « ليقولن » باللام والنون والمعنى : وأقسم لئن أخرجنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين : ما الذي يحبس هذا العذاب الموعود عنا ولماذا لا ينزل علينا ولا يحل بنا .

وفي هذا إشارة أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ﷺ ما يوعدهم بعذاب لا يحبس منه وأن الله أخر ذلك تأخيراً رحمة لهم فاستهزئوا به وسخروا منه بقولهم : « ما يحبسهم » ويؤيده قوله تعالى عقيب ذلك : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » الخ .

وهذا يتأيد أن السورة - سورة هود - نزلت بعد سورة يونس لمكان قوله تعالى فيها: «ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط» الى آخر الآيات.

وقوله: «إلى أمة معدودة» الامة الحين والوقت كما في قوله تعالى: «وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة» يوسف: ٥٤ أي بعد حين ووقت.

وربما أمكن أن يراد بالامة الجماعة فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً ويمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم قال: «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» المائدة: ٥٤ ، وقال: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم - الى أن قال - يعبدونني لا يشركون بي شيئاً» النور: ٥٥ . وهذا وجه لا بأس به .

وقيل: إن المراد بالامة الجماعة وهم قوم يأتي الله بهم بعد هؤلاء فيصرون على الكفر فيعذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح ، أو هم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرون على معصية الله فتقوم عليهم القيامة .

والوجهان سخيغان لبنائهما على كون المعذبين غير هؤلاء المستهزئين من الكفار وظاهر قوله تعالى: «ألا يوم يأتيهم» الخ ، أن المعذبين هم المستهزئون بقولهم: «ما يحبسه» .

وقوله: «ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزءون» بمنزلة الجواب عن قولهم: «ما يحبسه» الواقع موقع الاستهزاء فإنه في معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب ، ومحصله أن هذا العذاب الذي يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب فإننا كافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب .

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف ويعيق بهم هذا العذاب الذي كانوا به يستهزئون .

وبما تقدم يظهر أن هذا العذاب الذي يهددون به عذاب دنيوي سيحقق بهم وينزل عليهم دون عذاب الآخرة ، وعلى هذا فهذه الآية والتي قبلها يذكر كل منها شيئاً من ما تهوّن به الكفار بجہالتهم فالآية السابقة تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث وأنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا : إن هذا إلا سحر مبين ، وهذه الآية تذكر أن الله إذا أخر عنهم العذاب إلى أمة وأخبروا بذلك قالوا مستهزئين : ما يحبس .

قوله تعالى : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور » قال في المجمع : الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم ، وسمى الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقة لسرعة زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل : أحلام نوم أو كظل زائل والنزع قلع الشيء عن مكانه ، واليؤس فعول من يؤس - صيغة مبالغة - واليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون ونقيضه الرجاء . انتهى .

وقد وضعت الرحمة في الآية مكان النعمة للإشعار بأن النعم التي يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمة وهي رفع حاجة الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق وإيجاب والمعنى : إنا إن آتيناه الإنسان شيئاً من النعم التي يتنعم بها ثم نزعناها يؤس منها واشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها إليه ثانياً ممكناً وكفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمة من حقه الثابت علينا ويراها غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه والكفران ، وقد أخذ في الآية لفظ الإنسان وهو لفظ دال على نوعه - للدلالة على أن الذي يذكر من صفته من طبع نوعه .

قوله تعالى : « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور » قال في المجمع : النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر الحال بها لأنها أخرجتنا نخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء وعيناء مع ما فيها من المبالغة ، والفرح والسرور من النظائر وهو انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم - إلى أن قال : - والفخور الذي يكثر فخره وهو التطاول بتعديد المناقب وهي

صفة ذم اذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه . انتهى .

والمراد بالسيئات بقرينة المقام المصائب والبلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه ، والمعنى : ولئن أصبناه بالنعمة بعد الضراء ليقولنَّ ذهب الشدائد عني ، وهو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد والنوازل لا تعود بعد زوالها ولا تنزل بعد ارتقاعها ثانياً .

وقوله : « إنه لفرح فخور » بمنزلة التعليل لقوله : « ذهب السيئات عني » فإنه يفرح ولا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء ، ولو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقاءه ولا اعتماد على دوامه ، وأن الأمر ليس إليه بل إلى غيره ومن الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنه لا فرح في أمر مستعار غير ذي قرار .

وأنه ليفخر بما أوتي من النعماء على غيره ، ولا فخر إلا بكرامة أو منقبة يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمراً بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه وينزعه منه ويعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات ولذلك يفخر ويكثر من الفخر .

قوله تعالى : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشدة والبلاء من اليأس والكفر وعند الرخاء والنعماء من الفرح والفخر ، ومغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يحده في حاله الحاضرة ، ويذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عودة وأنها كانت من عند الله سبحانه ، وله تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه ويتعلق قلبه به بالرجاء والمسألة ، وإن عادت إليه نعمة بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح وفخر ولم ير لله تعالى صنفاً في ذلك حتى يشكره عليها ويكف عن الفرح وعن التطاول على غيره بالفخر .

استثنى سبحانه طائفة من الإنسان ووصفهم بقوله « الذين صبروا وعملوا الصالحات » ثم وعدهم وعداً حسناً بقوله : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » وذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند

الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس والكفر ، ويعملون الصالحات من الشكر بشأنه تعالى على ما كشف الضراء وأعقب بالنماء وصرف نعمه في ما يرضيه ويريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح والفخر .

وهؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بإحسان آثار ذلك الطبع المذموم ووضع الخصال الحمودة موضعه ولهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير .

وفي الآية دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة وأجرأ كبيراً ، والمغفرة لا تنال المشركين ، قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » النساء : ١١٦ .

وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآية أعني المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين في قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » فاطر : ٧ ، وقوله تعالى : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » الملك : ١٢ .

واتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان في الآيات السابقة مسوقاً في كفر الكافرين ورميهم الوعد بالبعث بالسحر ومقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالإستهزاء ، فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبيعي لا يرون لما عندهم من نعمة الله زوالاً بنزول العذاب ولا لما بهم من رث الحال تبديلاً إلى العيش الهنيء والمتاع الحسن الذي وعدم الله به في صدر السورة .

قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » إلى آخر الآية ، لما كانت رسالة النبي ﷺ بما أيدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذي عقل إنكارها ولا لإنسان صحيح المشاعر ردها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين وإنكار المشركين أمراً مستبعداً بحسب الطبع ، وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعداً أخذ الإنسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلباً للمخرج من نسبة الوقوع إلى ما يستبعده الطبع .

ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام وكان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين وإنكار المشركين لما جاء به النبي ﷺ اليهم من الحق الصريح وما أنزل اليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج مما لا ينبغي أن يدعن به لبعده طبعاً بيتن تعالى لذلك وجهاً بعد وجه على سبيل الترجي فقال : « ولعلك تارك بعض ما يوحى اليك » الخ ، « أم يقولون افتراء » الخ .

فكانه قيل : من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح ويسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك ويكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وغير داعيهم اليه ولذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله ولذلك لم يؤمنوا به . فإن كنت تركت بعض الوحي خوفاً من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلا ما شاء الله ، وان يقولوا افتراء فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات « الخ » .

ومما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجي والاحتمال لرعاية ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد ومقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير في الحادثة المستبعدة ، اعتبر ذلك في ملك ينتهي اليه ثمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله الى دعوتهم الى السمع والطاعة ويكتب في ذلك كتاباً يأمره أن يقرأه عليهم ويلومهم على ثرودهم واستكبارهم على ما بهم من الضعف والذلة ولمولاهم من القوة والسطوة والعزة ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله ، ويكتب اليه كتاباً ثانياً يأمره بقراءته عليهم واذا فيه : لعلك لم تقرأ كتابي عليهم مخافة أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي وإنما افتريته علي افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ وان كان الثاني فإن الكتاب بخطي كتبه بيدي وختمت عليه بخاتمي ولا يقدر أحد غيري أن يقلدني في ذلك .

والتأمل في هذا المثال يعطي أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثاني من الخطاب مقام الاستبعاد وأن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الإبلاغ وزعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جداً أو احتمال زعمهم الكذب والفرية جداً ، وإنما ذكر الوجهان

لداعي أن يكونا كالمقدمة لذكر ما يزول به الشبهتان وهو أن الرسول ليس له من الأمر شيء حتى يقترح عليه بما يقترح، وأن الكتاب للملك ليس فيه ريب ولا شك.

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » الخ ، ليس يفيد الترجي الجسدي ولا مسوقاً لتوبيخ النبي ﷺ ولا مراداً به تسليته وتطيب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والأسى بكفرهم وجحودهم لما أتى به من الحق الصريح بل الكلام مسوق ليتوصل به إلى ذكر قوله : « إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » .

فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنبي النبي ﷺ عن الحزن وضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر والجحود، والنهي نهي تسليّة وتطيب للنفس نظير ما في قوله : « ولا تحزن عليهم ولائك في ضيق مما يمكرون » النحل : ١٢٧ ، وقوله : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلمت أعناقهم لها خاضعين » الشعراء : ٤ كلام ليس في محله .

ويظهر أيضاً أن قوله : « فلعلك تارك » الخ ، وقوله : « أم يقولون افتراء » الخ ، كشقتي التردد ويتصلان معاً بما قبلها من وجه واحد كما ذكرناه .

وقوله : « تارك بعض ما يوحى إليك » إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنة لتبليغ الوحي في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا إليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبهوك بما جبهوك به من الرد والجحود ، وذلك أن القرآن بعضه بوضوح بعضاً وشرط منه يقرب شرطاً منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتبهة على الدعاوي ، وآيات الثواب والعقاب تقرب الحق من القبول بالتطمين والتخويف ، وآيات القصص والعبر تستميل النفوس وتلين القلوب .

وقوله : « وضائق به صدرك أن يقولوا » الخ ، قال في المجمع : ضائق وضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين : أحدهما : أنه عارض والآخر أنه أشكل بقوله تارك انتهى .

والظاهر أن ضمير « به » راجع الى قوله : « بعض ما يوحى » وإن ذكر بعضهم أن الضمير راجع الى قولهم : « لو لا أنزل عليه كنز » الخ ، أو الى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله « أن يقولوا » الخ ، بدلاً من الضمير في « به » وما ذكرناه أوفق بكونه مفعولاً له لقوله : « تارك » والتقدير : لعلك تارك ذلك مخافة أن يقولوا : لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

وقوله : « إنما أنت نذير » جواب عن اقتراحهم بقولهم : لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وقد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيء الملك وزيد في بعضها عليه غيره كاقترح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة وأن يكون له جنة يأكل منها وأن ينزل من السماء كتاباً يقرءونه . وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعاً بمثل ما أجاب به هنا وهو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فليس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله في ذلك شيئاً ويأذن في إتيان آية كما قال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » المؤمن : ٧٨ .

ثم عقب قوله : « إنما أنت نذير » بقوله : « والله على كل شيء وكيل » لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي ﷺ بالمعجزات ومحصله : أن النبي ﷺ بشر مثلهم ولم يؤمر إلا بالإنذار وهو الرسالة بإعلام الخطر ، والقيام بالامور كلها وتديرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو الى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي ﷺ فيما ليس اليه .

وذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها وفاطرها وهو القائم على كل شيء فيما يجري عليه من النظام فما من شيء إلا وهو تعالى المبدئ في أمره وشأنه والمنتهى سواء الامور الجارية على العادة والخارقة لها فهو تعالى الذي يسلم اليه أمره ويدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذي يسلم اليه الأمر وينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل .

وبذلك يظهر أن قوله : « والله على كل شيء وكيل » بمعونة من قوله : « إنما أنت نذير » يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي ﷺ أمراً ليس إليه وإنما هو إلى الله تعالى .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور » قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ « أم » متصلة لكون قوله : « فلعلك تارك » الخ ، في معنى الاستفهام ، والتقدير : أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفاً من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرء عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به وقيل : إن أم منقطعة والمعنى : بل يقولون افتراء .

وقوله : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » في الكلام تحدّ ظاهر والضمير راجع إلى القرآن أو إلى السورة بما أنها قرآن والفاء في « فأتوا » تفيد تفريع الأمر على قوله : « افتراء » وفي الكلام حذف وإيصال رعاية للإيجاز ، والتقدير : قل لهم : إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندي وكان من الجائر أن يأتي بمثله غيري فإن كنتم صادقين في دعواكم ومجددّين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات واستعينوا في ذلك بدعوة كل من تستطيعون من دون الله من أوثانكم الذين تزعمون أنهم آلهة تتسرعون اليهم في الحاجات وغيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الأسباب والوسائل ولا يبقى أحد ممن يطمع في تأثير إعانته ويرجى نفعه في ذلك فلو كان من عندي لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله .

وقد بان بهذا البيان أن التحدي بالقرآن في الآية الكريمة ليس من حيث نظمه وبلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستعداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء في ذلك آلهتهم وغير آلهتهم وفيهم من لا يعرف الكلام العربي أو جزالة نظمه وصفة بلاغته فالتحدي عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقية والحجج والبراهين الساطعة والمواعظ الحسنة والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والأخبار الغيبية والفصاحة والبلاغة نظير ما في قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

أمرى: ٨٨ ، وقد تقدمت الإشارة الى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الاول من الكتاب .

وبذلك يظهر فساد ما قيل إن جهة إعجاز القرآن انما هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص لأنه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك لما قنع في المعارضة بالإفتراء والاختلاق لأن البلاغة ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز وأدناها وأوسطها ممكن فالتحدي في الآية انما وقع في الطبقة العليا منها ، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام ابلغ في باب الإعجاز .

والمثل المذكور في الآية لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس لأن مثله في الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدي ، وإنما يرجع في ذلك الى ما هو متعارف بين العرب في تحدي بعضهم بعضاً كما اشتهر من مناقضات امرئ القيس وعلقمة وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة وجريز والفرزدق وغيرهم . انتهى .

فإن فيه أولاً: أن لو كانت جهة الإعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب وهي امر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتشريك غيرهم في التحدي معنى ، ولم يرجع قوله: « وادعوا من استطعتم من دون الله » على ما فيه من العموم وكذا قوله: « لئن اجتمعت الإنس والجن » الآية الى معنى محصل ولكان من الواجب أن يقال: « لئن اجتمعت العرب » وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لفتكم .

وثانياً: أنه لو كانت جهة الإعجاز هي البلاغة فقط لم يصح الاحتجاج بمثل قوله: « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » النساء: ٨٢ ، الظاهر في نفي مطلق الاختلاف فإن أكثر الاختلافات وهي التي يرجع الى المعاني لا تضرر بلاغة اللفظ .

وثالثاً: أنه تعالى يتحدى بمثل قوله: « فليأتوا بحديث مثله » الطور: ٣٤ ، ويقول في سورة يونس: « فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » آية ٣٨ ، وقد استفدنا فيما تقدم أن سورة يونس قبل سورة هود في ترتيب النزول

ويؤيده الأثر، ثم بقوله في هذه السورة : « فأتوا بعشر سور مثله مفتریات وادعوا من استطعتم من دون الله » ولو كان جهة الإعجاز هي البلاغة خاصة لكانت هذه التحديات خارجة عن النظم الطبيعي إذ لا يصح أن يكلف البلغاء من العرب المنكرين لكون القرآن من عند الله بإتيان مثل سورة منه ثم بعده بإتيان عشر سور مفتریات بل مقتضى الطبع أن يتحدى بتكليفهم بإتيان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فبإتيان عشر سور مثله مفتریات فإن عجزوا فبإتيان سورة مثله .

وقد ذكر بعضهم في التفصّي عن هذا الإشكال أن الترتيب بين السور وتزول بعضها قبل بعض لا يستلزم الترتيب بين آيات السور فكم من آية مكيّة موضوعة في سورة مدنية وبالعكس فمن الجائز حينئذ أن تكون آيات التحدي بتمام القرآن نازلة قبل غيرها مطلقاً ثم تكون آية التحدي بعشر سور مفتریات نازلة بعدها ، وآية التحدي بسورة واحدة نازلة بعد الجميع .

وفيه : أنه إنما ينفع لو صح تزول الآيات على ما صوره وإلا فالإشكال على حاله والحق أن القرآن معجز في جميع صفاته المختصة به من بلاغة وفصاحة وما فيه من المعارف الحقيقية والأخلاق الكريمة والنرائع الإلهية والقصص والعبر والأخبار بالمغيبات وما له من السلطان على القلوب والجمال الحاكم في النفوس .

وأما الوجه في التحدي بعشر سور مع ما في سورة يونس من التحدي بواحدة فقد قال في المجمع : فإن قيل : لم ذكر التحدي مرة بعشر سور ومرة بسورة ومرة بحديث مثله ؟ فالجواب : أن التحدي إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدى مرة بالأقل ومرة بالأكثر . انتهى .

أقول : وهو يصلح وجهاً لأصل التحدي بالواحد والكثير وأما التحدي بالعشر بعد الواحدة ولا سيما على ما يراه من كون إعجازه بالبلاغة فحسب فلا .

وذكر بعضهم في توجيه ذلك أن القرآن الكريم معجز في جميع ما يتضمنه من المعارف والأخلاق والأحكام والقصص وغيرها وينعت به من الفصاحة والبلاغة

وانتفاء الاختلاف ، وإنما يظهر صحة المعارضة والاتيان بالمثل عند إتيان عدة من السور يظهر به ارتفاع الاختلاف وخاصة من بين القصص المودعة فيها مع سائر الجهات كالفصاحة والبلاغة والمعارف وغيرها .

وإنما يتم ذلك بإتيان أمثال السور الطويلة التي تشتمل على جميع الشؤون المذكورة وتتضمن المعرفة والقصة والحجة وغير ذلك كسورتي الأعراف والانعام .

والتي نزلت من السور الطويلة القرآنية مما يشتمل على جميع الفنون المذكورة قبل سورة هود على ما ورد في الرواية هي سورة الأعراف وسورة يونس وسورة مريم وسورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة القمر وسورة ص فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود، وهذا هو الوجه في التحدي بأمرهم أن يأثوا بعشر سور مثله مفتريات ، انتهى بتلخيص منا وقد أطنب في كلامه .

أقول : فيه أولاً : أن لا تعويل على الأثر الذي عول عليه في ترتيب نزول السور فإنما هو من الآحاد التي لا تخلو عن ضعف ولا ينبغي بناء البحث التفسيري على أمثالها .

وثانياً : أن ظاهر قوله : « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » أن رميهم النبي ﷺ بالإفتراء على الله سبحانه قول تقولوه بالنسبة الى جميع السور القرآنية طوالتها وقصيرتها من غير أن يخصوا به سورة دون سورة فمن الواجب أن يحابوا بما يحسم مادة الشبهة بالنسبة الى كل سورة قرآنية ، والتحدي بما يفي بذلك ، وعجزهم عن إتيان عشر سور مفتريات طويلة تجمع الفنون القرآنية لا يثبت به كون الجميع حتى السور القصار كسورتي الكوثر والعصر من عند الله اللهم إلا ببيان آخر يضم اليه واللفظ خال من ذلك .

وثالثاً : أن قوله : « بعشر سور مثله » إن كان ما فيه من الضمير راجعاً الى القرآن كما هو ظاهر كلام هذا القائل أفاد التحدي بإتيان عشر سور مفتريات مثله مطلقاً سواء في ذلك الطوال والقصار فتخصيص التحدي بعشر سور طويلة جامعة

تقييد للفظ الآية من غير مقيّد وهو تحكّم وأشدّ منه تحكّماً القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التي عدّها .

وإن كان الضمير راجعاً الى سورة هود كان مستتبشعاً من القول وكيف يستقيم أن يقال لمن يقول : إن سورة الكوثر والمعوذتين من الافتراء على الله : اثنت بعشر سور مفتریات مثل سورة هود ويقتصر على ذلك ؟ اللهم إلا أن يهذروا بأن سورة هود وحدها من الافتراء على الله تعالى فيتحدّى عندئذ بأن يأتوا بمثله ، ولم نسمع أحداً منهم تفوّه بذلك .

ويمكن أن يقال في وجه الاختلاف الذي يلوح من آيات التحدي كقوله : « فأتوا بسورة مثله » يونس : ٣٨ الظاهر في التحدي بسورة واحدة وقوله : « فأتوا بعشر سور مثله مفتریات » الظاهر في التحدي بعدد خاص فوق الواحد وقوله : « فليأتوا بحديث مثله » الطور : ٣٤ الظاهر في التحدي بحديث يماثل القرآن وإن كان دون السورة أن كل واحدة من الآيات تؤم غرضاً خاصاً في التحدي .

بيان ذلك : أن جهات القرآن وشؤنه التي تتقوم به حقيقته وهو كتاب إلهي مضافاً الى ما في لفظه من الفصاحة وفي نظمه من البلاغة إنما ترجع الى معانيه ومقاصده لست أعني من المعنى ما يقصده علماء البلاغة في قولهم : إن البلاغة من صفات المعنى والالفاظ مطروحة في الطريق يعنون به المفاهيم من جهة ترتبها الطبيعي في الذهن فإن الذي يعنون به من المعنى موجود في الكذب الصريح من الكلام وفي الهزل وفي الفحش والهجو والفرية اذا جرت على أسلوب البلاغة وتوجد في الكلام الموروث من البلغاء نظماً ونثراً شيء كثير من هذه الامور .

بل المراد من معنى القرآن ومقصده ما يصفه تعالى بأنه كتاب حكيم ، ونور مبين ، وقرآن عظيم ، وفرقان ، وهاد يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، وقول فصل وليس بالهزل ، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر وأنه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأنه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، وأنه تبيان لكل شيء ولا يمسه إلا المطهرون .

فمن البين أن هذه كلها صفات لمعنى القرآن . وليست صفات لما يقصده علماء البلاغة بالمعنى البليغ الذي ربما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذي يسميه القرآن الكريم لغوا من القول وإثماً وينهى الإنسان عن تعاطيه والتفوّه به وإن كان بليغاً بل المعنى المتصف بهذه الصفات هو شيء من المقاصد الإلهية التي تجري على الحق الذي لا يخالطه باطل ، وتقع في صراط الهداية ، ويكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعمة وغرض هذا شأنه هو الذي تتعلق العناية الإلهية بتنزيله وجعله رحمة للمؤمنين وذكرأ للعالمين .

وهذا هو الذي يصح أن يتحدى به بمن قوله : « فليأتوا بحديث مثله » فإننا لا نسمي الكلام حديثاً إلا إذا اشتمل على غرض هام يتحدث به فينقل من ضمير الى ضمير ، وكذا قوله : « فأتوا بسورة مثله » فإن الله لا يسمي جماعة من آيات كتابه وإن كانت ذات عدد سورة إلا إذا اشتملت على غرض إلهي تميز بها من غيرها .

ولولا ذلك لم يتم التحدي بالآيات القرآنية وكان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عدداً ذا كثرة كقوله تعالى : « والصبح » « والعصر » « والطور » « في كتاب مكنون » « مدهامتان » « الحاقة ما الحاقة » « وما أدراك ما الحاقة » « الرحمن » « ملك الناس » « إله الناس » « وخسف القمر » « كلا والقمر » « سندع الزبانية » الى غير ذلك من مفردات الآيات ثم يقابل كلاماً منها بما يناظرها من الكلام العربي من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض واشتغالها على غرض يجمعها ويخرجها في صورة الوحدة .

فالذي كلف به الخصم في هذه التحديات هو أن يأتي بكلام يماثل القرآن مضافاً الى بلاغة لفظه في بيان بعض المقاصد الإلهية المشتمة على أغراض ممنوعة بالنعوت التي ذكرها الله سبحانه .

والكلام الإلهي مع ما تحدي به في آيات التحدي يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج اليه نوع الإنسان الى يوم القيامة من معارف أصلية وأخلاق كريمة وأحكام فرعية ، والسورة من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الأغراض الإلهية المتعلقة بالهدى ودين الحق على بلاغتها

الحارقة ، وهذه خاصة غير الخاصة التي يختص بها مجموع القرآن الكريم ، والعدة من السور كالعشر والعشرين منها تختص بخاصة أخرى وهي بيات فنون من المقاصد والأغراض والتنوع فيها فإنها أبعد من احتمال الاتفاق فإن الخصم اذا عجز عن الإتيان بسورة واحدة كان من الممكن أن يختلج في باله أن عجزه عن الإتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الإتيان بمثلها لا على كونها نازلة من عند الله موحاة بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات والأعمال الانسانية التي من الممكن في كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتفاقاً لتصادف أسباب موجبة لذلك كفرد من الانسان موصوف بأنه اطول الأفراد او اكبرهم جثة او أشجعهم او أسخام او أجبنهم او أنجلهم .

وهذا الاحتمال وإن كان مدفوعاً عن السورة الواحدة من القرآن أيضاً التي يقصدها الخصم بالمعارضة فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حققة ذات صفات كريمة خالية عن مادة الكذب ، وما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق والصدفة من غير أن يكون مقصوداً في نفسه ذا غرض يتعلق به الإرادة .

إلا أنه أعني ما مر من احتمال الاتفاق والصدفة عن السور المتعددة أبعد لأن إتيان السورة بعد السورة وبيان الغرض بعد الغرض والكشف عن خبيء بعد خبيء لا يدع مجالاً لاحتمال الاتفاق والصدفة وهو ظاهر .

إذا تبين ما ذكرنا ظهر أن من الجائز أن يكون التحدي بمثل قوله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » أسرى : ٨٨ وارداً مورد التحدي بجميع القرآن لما جمع فيه من الأغراض الإلهية ويختص بأنه جامع لعامة ما يحتاج اليه الناس الى يوم القيامة ؛ وقوله : « قل فأتوا بسورة مثله » لما فيها من الخاصة الظاهرة وهي أن فيها بيان غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهي بياناً فصلاً من غير هزل ؛ وقوله : « قل فأتوا بعشر سور » تحدياً بعشر من السور القرآنية لما في ذلك من التفنن في البيان والتنوع في الأغراض من جهة الكثرة ، والعشرة من ألفاظ الكثرة كالمائة والألف

قال تعالى : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » البقرة : ٩٦ .

فالمراد بعشر سور - والله أعلم - السور الكثيرة الحائزة لبعض مراتب الكثرة المعروفة بين الناس فكأنه قيل : فأتوا بعدة من سورها ولتكن عشرأ ليظهر به أن تنوع الأغراض القرآنية في بيانه المعجز ليس إلا من قبل الله .

وأما قوله : « فليأتوا بحديث مثله » فكأنه تحد بما يعم التحديات الثلاثة السابقة فإن الحديث يعم السورة والعشر سور والقرآن كله فهو تحد بمطلق الخاصة القرآنية وهو ظاهر .

بقي هنا أمران أحدهما : أنه لم يقع في شيء من آيات التحدي المذكورة توصيف ما يأتي به الخصم بالافتراء إلا في هذه الآية إذ قيل فيها : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » بخلاف قوله : « فأتوا بسورة مثله » فلم يقل فيه : « فأتوا بسورة مثله مفتراة » وكذا في سائر آيات التحدي .

ولعل الوجه في ذلك أن نوع العناية في الآية المبحوث عنها غير نوع العناية في سائر آيات التحدي فإن العناية في سائر الآيات متعلقة بأنهم لا يقدررون على الإتيان بمثل القرآن أو بمثل السورة لمسا أنه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلق بها قدرة الانسان ولا يظهر عليها غيره تعالى وقد أطلق القول فيها إطلاقاً .

وأما هذه الآية فلما عقبته بقوله : « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » دل ذلك على أن التحدي فيها إنما هو بكون القرآن متضمناً لما يختص علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه ، وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته فكأنه قيل : إن هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لأمور من العلم الإلهي الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه ، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدعون أنها افتراء ، واستعينوا بمن استطعتم من دون الله فإن لم تقدرروا عليه فاعلموا أنه من العلم الخصوص به تعالى . فافهم ذلك .

وثانيها : معنى التحدي بالمثل حيث قيل : « بمثل هذا القرآن » « بحديث

مثله « بسورة مثله » « بعشر سور مثله » والوجه الظاهر فيه أن الكلام لما كان آية معجزة فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى في إبطال كونه آية معجزة ولم يحتاج إلى الإتيان بما يترجح عليه في صفاته ويفضل عليه في خواصه ..

وربما يورد عليه أن عدم قدرة غيره عليه السلام على ذلك لا يدل على كونه معجزة غير مستندة إليه لأن صفات الكمال التي توجد في النوع الانساني كالبلغة والكتابة والشجاعة والسخاء وغيرها لها مراتب متفاوتة مختلفة يفضل بعضها على بعض، وإذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع وهو غاية ما يمكن أن ترتقي إليه النفس الانسانية البتة .

فكل صفة من صفات الكمال يوجد بين الأفراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجة العليا والغاية القصوى منها بحيث لا يعدله غيره ولا يعارضه أحد ممن سواه فبالضرورة بين أفراد الانسان عامة من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامه وأكبرهم جثة ، ولم لا يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أفصح الناس جميعاً وأبلغهم والقرآن من كلامه الذي لا يسع لأحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفاً ليس لغيره فيه موضع قدم ؟ فلا يكون عندئذ عجز غيره عن الاتيان دليلاً على كونه كلاماً إلهياً غير بشري لجواز كونه كلاماً بشرياً مختصاً به صلى الله عليه وسلم مضموناً عن غيره . هذا .

ويدفعه أن الصفات الانسانية التي يقع فيها التفاضل وإن كانت على ما ذكر لكنها أياماً كانت فهي مما تسمح بها الطبيعة الانسانية بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق ومن غير سبب يمكن للفرد الموصوف من الاتصاف بها .

وإذا كان كذلك وفرض فرد من الانسان اختص بصفة فاضلة لا يعد له غيره ولا يفوقه سواه كان لغيره أن يسلك ما مهده من السبيل ويتعود بالتمرن والتدرب والارتياض بما يأتيه من الاعمال التي تصدر عما عنده من صفة الكمال فيأتي بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال ويقلده في نبذة من أعماله وإن لم يقدر على أن يزاحمه في الجميع ويمثله في الكل ، ويبقى للفرد النابغ المذكور مقام الأصالة والسبقة والتقدم

في ذلك فالحاتم مثلاً وإن كان هو المتفرد غير المعارض في سخائه وجوده من غير أن يسع غيره أن يتقدم عليه ويسبقه لكن من الممكن أن يرتاض يرتاض في سبيله فيتمرن ويتدرب فيه فيأتي بشيء من نوع سخائه وجوده وإن لم يقدر على مزاحمته في الجميع وفي أصل مقامه ، والكالات الانسانية التي هي منابع للأعمال سبيلها جميعاً هذا السبيل ، ويتمكن الانسان بالتمرن والتدرب على سلوك سبيل السابقين المبدعين فيها والاتيان بشيء من أعمالهم وإن لم يسع مزاحمتهم في أصل موقفهم .

فلو كان القرآن من كلام النبي ﷺ على فرض أنه أبلغ إنسان وأفصحه كان من الجائز أن يهتم غيره فيتمرن على سلوك ما أبدعه في كلامه من النظم البديع فيقدر على تقليده في شيء من الكلام وإتيان شيء من القول بسورة مثله وإن لم يقدر على تقليد القرآن كله والاتيان بجميعه .

ولم يقل فيما تحدى به : فليأتوا بحديث أبلغ منه أو أحسن أو بسورة هي أبلغ أو أحسن حتى يقال : إن القرآن أبلغ كلام بشري أو أحسنه ليس هناك ما هو أبلغ أو أحسن منه حتى يأتي به آت فلا يدل عدم القدرة على الاتيسان بذلك على كونه كلاماً لغير البشر ، بل إنما قال : « فليأتوا بحديث مثله » « قل فأتوا بسورة مثله » وهكذا وفي وسع البشر الاتيان بمثل كلام غيره من البشر وإن فرض يكون ذلك الغير ذا موقف من الكلام لا يعارضه غيره على ما بيناه فالشبهة مندفة بقوله تعالى « بمثله » .

قوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » إجابة الدعوة واستجابتها بمعنى .

والظاهر من السياق ان الخطاب في الآية للمشركين ، وأنه من تمام كلام النبي ﷺ الذي أمر بقوله تعالى : « قل » أن يلقيه اليهم ، وعلى هذا فضمير الجمع في قوله : « لم يستجيبوا » راجع الى الآلهة وكل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله : « وادعوا من استطعتم من دون الله » .

والمعنى : فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتوهم من

آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء أهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والامم والكهنة المستعدين من إلقاء شياطين الجن ، وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الانسانية بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يخلق عن علمي أنا ولا غيري ممن تزعمون أنه يعلمني ويعلي علي ، واعلموا أيضاً ان ما ادعوكم اليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتوه اليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره ؟

فقوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لكم » في معنى قولنا : فإن لم تقدرُوا على المعارضة بعد الاستعانة والاستعداد بمن استطعتم أن تدعوم من دون الله ، وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد ، ولهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم ، وأيضاً ما عند غير آلهتهم من المدد ، وإذا لم يستجيبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية.

وقوله : « فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو الغيب الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بإذنه كما قال تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ ، قال : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك » يوسف : ١٠٢ ، وقال : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، وقال : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يحسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين » الواقعة : ٨٠ .

فالمعنى : فإن لم تقدرُوا على معارضته بأي سبب بمد تعلقت به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذي يختص به تعالى فهو الذي أنزله علي وكلمني به وأراد تفهيمي وتفهمكم بما فيه من المعارف الحققة وذخائر الهداية .

وذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له ، وذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بتنظيمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك ، وهذه معان واهية بعيدة عن الفهم .

والجملة أعني قوله : « إنما أنزل بعلم الله » إحدى النتيجةين المأخوذتين من عدم استجابة شركائهم لهم . والنتيجة الأخرى قوله : « وأن لا إله إلا هو » ولزوم هذه النتيجة من وجهين : أحدهما : أنهم إذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهة فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه وخاصة إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذي أتى به النبي ﷺ كان يقطع دابرهم ويميت ذكركم ويصرف الناس عن التوجه اليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم إذا دعواهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفي ألوهيتهم .

وثانيهما : أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به ، ومما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه .

وقوله : « فهل أنتم مسلمون » أي لما علمتم واتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائكم من دون الله وعجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه وكون هذا القرآن كتاباً نازلاً بعلمه ؟ وهو أمر بالإسلام في صورة الاستفهام . هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية .

وقيل : إن الخطاب في قوله : « فإن لم يستجيبوا لكم » الخ ، للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجمع تعظيماً له وتفخيماً لشأنه وضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي إليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله وأن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره .

وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم وأما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع .

مضافاً الى ان استناد الوحي الإلهي والتكليم الرباني اليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حق يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي ﷺ دلالة على كونه كلاماً من الله دلالة ضرورية غير محتاجة الى حجة حق يحتاج عليه بعدم إجابة المشركين الى معارضة القرآن وعجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان والجن والملك وأي هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجي من حسن أو عقل ، وقد تقدمت إشارة الى ذلك في قصة زكريا من سورة آل عمران ، وسيجيء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء الله تعالى.

على أن خطاب النبي ﷺ بمثل قوله : « وأنه لا إله إلا هو » ، وقوله : « فهل أنتم مسلمون » لا يخلو عن بشاعة . على أن نفس الاستدلال ايضاً غير تام كما سنبين .

وقيل : إن الخطاب في الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً او للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه ﷺ في الدعوة الدينية والتحدثي بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى : فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله ؟

ولما تفتطن بعضهم أن لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله وازدادوا به ايماناً و يقيناً وأنه لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والإخلاص فيه ؟

وفيه أنه تقييد للآية من غير مقيّد والحجة غير تامة وذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه من الجن والإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلاً واضحاً يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر وتمت بذلك الحجة عليهم ، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأثموا بمبأ أمروا به بقوله : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق وإنما كان قولهم :

« افتراء » قولاً ناشئاً عن العناد واللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه ، أو لأنهم كانوا آتسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة ، أو لأنهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذراً .

وبالجملة عدم استجابة المشركين للنبي ﷺ أو للمؤمنين أو لهم جميعاً لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلاً من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابة المذكورة بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضة وعدم استجابتهم لهم ، ولم يتحقق من المشركين دعوة على هذه الصفة ، وبمجرد عدم استجابة المشركين انفسهم لا ينفع شيئاً ، ولا يبقى إلا أن يقال : إن معنى الآية : فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشركون لكم أيها النبي ومعاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله الخ ، وهذا هو الذي أومأنا اليه آنفاً أنه تقييد للآية من غير مقيّد .

على أن فيه امرأ للمؤمنين أن يهتدوا في إيمانهم ويقينهم بأمر فرضي غير واقع وكلامه تعالى يحلّ عن ذلك ، ولو أريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك وإن دعوا شركاءهم الى المعارضة كان من حق الكلام أن يقال : فإن لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا الخ ، كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » البقرة : ٢٤ .

قوله تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » التوفية إيصال الحق الى صاحبه وإعطاؤه له بكماله ، والبخس نقص الأجر .

وفي الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم ولا يسلمون له إيثاراً للحياة الدنيا ونسياناً للآخرة ، وبيان لشيء من سنة الاسباب القاضية عليهم باليأس من نعم الحياة الآخرة .

وذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغاية التي ارادها به وعمله

لأجلها، فإن كانت غاية دنيوية تصلح شؤون الحياة الدنيا من مال وجمال وحسن حال ساقه العمل - إن أعانته سائر الأسباب العاملة - إلى ما يرجوه بالعمل وأما الغايات الآخروية فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع ، وبمجرد صلاحية العمل لأن يقع في طريق الآخرة وينفع في الفوز بنعيمها كالسبر والإحسان وحسن الخلق لا يوجب الثواب وارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله ودار ثوابه .

ولذلك عقبه بقوله تعالى: « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » فأخبر أنهم إذا وردوا الحياة الآخرة وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياة كما تأكل النار الخشب وتبهرق كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود ، وتحبط جميع ما صنعوا فيها وتبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا ، ولذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أي الهلاك فقال تعالى: « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها » إبراهيم : ٢٩ ، وبذلك يظهر أن كلا من قوله : « وحبط ما صنعوا فيها » وقوله : « وباطل ما كانوا يعملون » يفسر قوله : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار » نوعاً ما من التفسير .

وبما تقدم يظهر أولاً : أن المراد من توفية أعمالهم اليهم توفية نتائجها وإيصال الآثار التي لها بحسب نظام الأسباب والمسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله ويرجوه بمساعاه فإن يناله الفاعل في هذه النشأة بفعله هو نتيجة الفعل التي يعينه سائر الأسباب العاملة عليها لا ما يؤمه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وقد عبر تعالى عن هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله: « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » الشورى : ٢٠ ، فقال تعالى : « نؤته منها » ولم يقل : نؤته إياها ، وقال في موضع آخر : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » أسرى : ١٨ فذكر ما يريده الإنسان من الدنيا ويناله منها وزاد بياناً أنه ليس كل من يريد أمراً يناله ولا كل ما يراود ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ويقدم من يريد ويؤخر من يريد على ما تجري عليه سنة الأسباب .

وثانياً : أن الآيتين أعني قوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم » الى آخر الآيتين تبينان حقيقة من الحقائق الإلهية .

(بحث روائي)

في الكافي في قوله تعالى : « ألا إنهم يشنون صدورهم » الآية بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال : أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا اذا مروا برسول الله صلى الله عليه وآله حول البيت طأطأ أحداهم رأسه وظهره هكذا وغطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله صلى الله عليه وآله فأئذ قال الله : « ألا إنهم يشنون » الآية .

وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه .

وفي المجمع روي عن علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليهم السلام يشنونني على يفعمعل .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل من أهل البادية فقال : يا رسول الله إن لي بنين وبنات وإخوة وأخوات وبني بنين وبني بنات وبسني إخوة وبني أخوات والمعيشة علينا خفيفة فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا .

قال : وبكى فرق له المسلمون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » من كفل بهذه الأقوال المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صباً كاللؤلؤ المنهمر إن قليل فقليل وإن كثير فكثيراً . قال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وأمن له المسلمون .

قال : قال أبو جعفر عليه السلام : فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن

حاله فقال : من أحسن من خوله حلالاً وأكثرهم مالاً .

وفي الدر المنثور اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : اذا كان أجل أحدكم بأرض أتيت له اليها حاجة حتى اذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعني .

أقول : والرواية غير ظاهرة في تفسير الآية .

وفي الكافي بإسناده عن ابي حمزة الثمالي عن ابي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : ألا إن الروح الامين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حله ، ومن هتك حجاب سر الله عز وجل وأخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال وحوسب عليه .

أقول : الرواية من المشهورات رواها العامة والخاصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير العياشي عن ابي الهذيل عن ابي عبد الله عليه السلام قال : إن الله قسم الأرزاق بين عباده وأفضل فضلاً كبيراً لم يقسمه بين أحد قال الله : « واسألوا الله من فضله » .

أقول : والرواية مروية عن النبي ﷺ ، وقد تقدمت بعض ما في هذا المعنى من الاخبار في ذيل قوله تعالى : « وترزق من تشاء بغير حساب » سورة آل عمران آية ٢٧ ، وقوله تعالى : « واسألوا الله من فضله » سورة النساء : آية ٣٢ .

وفي الكافي عن ابي عبد الله عليه السلام قال : كان امير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول : اعلموا علماً يقيناً أن الله جل وعز لم يجعل للعبد وإن اشتد جهده ، وعظمت حيلته وكثرت مكايده أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم . أيها الناس إنه لن يزداد امرؤ نقيراً بحذقه ، ولن ينقص امرؤ نقيراً لحقه فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة والعالم بهذا التارك له اعظم الناس شغلاً في مضرتة ، ورب

منعم عليه مستدرج بالإحسان اليه ورب مغرور في الناس مصنوع له .
فاتق الله أيها الساعي عن سعيك ، وقصر من عجلتك ، وانتبه من سنة
غفلتك وتفكر فيما جاء عن الله عز وجل على لسان نبيه ﷺ . الحديث .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبدالله بن الحجاج عن أبي عبدالله عليه السلام
قال : إن محمد بن المنكدر كان يقول : ما كنت أظن أن علي بن الحسين يدع خلقاً
أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي فأردت أن أعظه فوعظني فقال له أصحابه :
بأي شيء وعظك ؟ فقال : خرجت الى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني
أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادنًا ثقيلاً وهو متكئ على غلامين أسودين أو
موليين فقلت في نفسي : سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل
هذه الحالة في طلب الدنيا أما إني لأعظنه .

فدنوت منه وسلّمت عليه فردّ عليّ بنهر وهو ينصب عرقاً فقلت : أصلحك
الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا رأيت لو
جاء أجلك وأنت على هذه الحال ؟ فقال : لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني
وأنا في طاعة من طاعة الله عز وجل أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس ، وإنما كنت
أخاف إن جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت يرحمك الله
أردت أن أعظك فوعظتني .

وفيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال : استقبلت أبا عبد الله في
بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت : جعلت فداك حالك عند الله
عز وجل وقربتك من رسول الله ﷺ وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم ؟
فقال : يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني به عن مثلك .

أقول : ولا منافات بين القضاء بالرزق وبين الأمر بطلبه . وهو ظاهر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير
وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن
أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله إن كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان
في عاء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء . .

أقول : العماء الغيم الذي يمنع نفوذ البصر فيه ، و «ماء» في قوله : «ما تحته هواء وما فوقه هواء» موصولة والمراد بالهواء هو الخالي من كل شيء كما في قوله تعالى : «وأفئدتهم هواء» أو أنها نافية والمراد بالهواء معناه المعروف ، والمراد به أنه كان عماء لا يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات .

والرواية من أخبار التجسم ولذا وجه بأن قوله : في عماء «النخ» كناية عن غيب الذات الذي تكل عنه الأبصار وتتحير فيه الألباب .

وفيه أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض . فنادى مناد : ذهب نافتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لو ددت أني تركتها .

أقول : وروى عدة من رجال الحديث هذه الرواية عن بريدة وقال بريدة في آخرها : «ثم أتاني آت فقال : هذه نافتك قد ذهبت فخرجت والسراب ينقطع دونها فلو ددت أني كنت تركتها» وهذا مما يوهن الحديثين .

وفيه في قوله تعالى : «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» أخرج داود بن المحبّر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً . ثم قال : وأحسنكم عقلاً أوزعكم عن محارم الله وأعلمكم ^(١) بطاعة الله .

وفي الكافي مسنداً عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» قال : قال : ليس يعني أكثر [كم ظ] عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة .

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص : الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل والنية أفضل من العمل ألا إن النية هي العمل ثم تلا قوله عز وجل : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته .

أقول : قوله ألا إن النية هي العمل يعني ليس للعمل أثر إلا لما معه من النية .

وفي تفسير النعماني بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « لئن أخروا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » قال : العذاب خروج القائم عليه السلام والامة المعدودة أهل بدر وأصحابه .

أقول : وروى هذا المعنى الكليني في الكافي والقمي والعياشي في تفسيريهما عن علي والباقر والصادق عليهم السلام .

وفي المجمع قيل : إن الامة المعدودة هم أصحاب المهدي ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً كعدة أهل بدر يجتمعون في ساعة واحدة كما يجتمع قزح الخريف قال : وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليها السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » قال : قال : صبروا في الشدة وعملوا الصالحات في الرخاء .

وفي الدر المنثور في قوله : « من كان يريد الحياة الدنيا » اخرج البيهقي في الشعب عن انس قال : قال رسول الله ﷺ : اذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصة ، وفرقة يعبدون الله رياء ، وفرقة يعبدون الله يصبون به دنيا فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول : الدنيا فيقول : لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع اليه انطلقوا به الى النار ، ويقول للذي يعبد الله رياء : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ قال : الرياء فيقول : إنما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إليّ منها شيء ولا ينفعك اليوم انطلقوا به الى النار .

ويقول للذي كان يعبد الله خالصة : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول : بعزتك وجلالك لأنك اعلم به مني كنت اعبدك لوجهك ولدارك قال : صدق عبدي

انطلقوا به الى الجنة .

* * *

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ
 مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
 فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ — ١٧ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
 رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ — ١٨ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ — ١٩ . أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا
 مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ يُضَاعَفُ لَهُمُ
 الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ — ٢٠ .
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ — ٢١ .
 لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ — ٢٢ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ — ٢٣ . مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ
 هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ — ٢٤ .

(بيان)

ظاهر الآيات أنها واقعة موقع التطيب لنفس النبي ﷺ وتقوية إيمانه بكتاب الله وتأكيده ما عنده من البصيرة في أمره فالكلام جار على ما كان عليه من خطابه ﷺ فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء على الله سبحانه فأمره أن يتحدى عليهم بإتيان عشر سور مثله مفتريات ثم أمره أن يطيب نفساً ويثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله فإنما هو على الحق وليس بمفتر فلا يستوحش من إعراض الأكثرين ولا يرتاب .

قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » الجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذي هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله سبحانه ، و « من » مبتدأ خبره محذوف والتقدير : كغيره ، أو ما يؤدي معناه ، والدليل عليه قوله تلوأ : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » .
والاستفهام إنكاري والمعنى : ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن .

وقوله : « على بينة من ربه » البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الأمور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما ينضم إليها ويتعلق بها كالنور الذي هو بين ظاهر ويظهر به غيره ، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة والآية ، ويقال للشاهد على دعوى المدعي بينة .

وقد سمي الله تعالى الحجة بينة كما في قوله : « ليهلك من هلك عن بينة » الأنفال : ٤٢ وسمى آيته بينة كما في قوله : « قد جاءكم بينة من ربكم هذه باقعة الله لكم آية » الأعراف : ٧٣ وسمى البصيرة الخاصة الإلهية التي أوتيتها الأنبياء بينة كما في قوله حكاية عن نوح عليه السلام : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده » هود : ٢٨ أو مطلق البصيرة الإلهية كما هو ظاهر قوله تعالى :

« أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » سورة محمد : ١٤ وقد قال تعالى في معناه : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

والظاهر أن المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقريضة قوله بعد : « أولئك يؤمنون به » وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي ﷺ فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله : « فلا تك في مرية منه » .

فالمراد بها البصيرة الإلهية التي أوتيتها النبي ﷺ لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهراً أن يتفرع عليه قوله : « فلا تك في مرية منه » وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بينة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله : « قل اني على بينة من ربي وكذبتكم به » الأنعام : ٥٧ ، فإن المقام غير المقام .

وبما مرّ يظهر أن قول من يقول : إن المراد بمن كان الخ ، النبي خاصة إرادة استعماله ليس في محله وإنما هو مراد بحسب انطباق المورد . وكذا قول من قال : إن المراد به المؤمنون من اصحاب النبي ﷺ فلا دليل على التخصيص .

ويظهر أيضاً فساد القول بأن المراد بالبينة هو القرآن ، وكذا القول بأنها حجة العقل واضيفت الى الرب تعالى لأنه ينصب الأدلة العقلية والنقلية . ووجه فساد أنه لا دليل على التخصيص ولا تقاس البينة القائمة للنبي ﷺ من ناحيته تعالى بالتمريف الإلهي القائم لنا من ناحية العقول .

وقوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » المراد بالشهادة تأدية الشهادة التي تفيد صحة الأمر المشهود له دون تحملها فإن المقام مقام تثبيت حقيقة القرآن وهو إنما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمل .

والظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقيقة القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره فأمن به عن بصيرته وشهد بأنه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستبحاش وريب التفرّد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرّد فيه ربما اوحشه التفرّد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به أما إذا قال به غيره من الناس وأبد نظره في ذلك زالت

عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جأشه وقد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله :
« قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله
فآمن واستكبرتم » الأحقاف : ١٠ .

وعلى هذا فقوله : « يتلوه » من التلو لا من التلاوة ، والضمير فيه راجع الى
« من » او الى « بيئنة » باعتبار انه نور او دليل ، ومآل الوجهين واحد فإن الشاهد
الذي يلي صاحب البيئنة يلي بيئته كما يلي نفسه والضمير في قوله : « منه » راجع
الى « من » دون قوله : « ربه » وعدم رجوعه الى البيئنة ظاهر ومحصل المعنى :
من كان على بصيرة إلهية من امر ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة امره
واستقامته .

وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين ان المراد بالشاهد علي عليه السلام
إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الارادة الاستعمالية .

وللقوم في معنى الجملة اقوال شتى ف قيل : إن « يتلو » من التلاوة كما قيل :
إنه من التلو ، وقيل : إن الضمير في « يتلو » راجع الى « البيئنة » كما قيل : إنه
راجع الى « من » .

وقيل : المراد بالشاهد القرآن : وقيل : جبرائيل يتلو القرآن على النبي صلى الله عليه وآله
ولعله مأخوذ من قوله تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون » النساء : ١٦٦ ، وقيل : الشاهد ملك يسدّد النبي صلى الله عليه وآله ويحفظه القرآن ،
ولعله لنوع من الاستناد الى الآية المذكورة .

وقيل : الشاهد هو النبي صلى الله عليه وآله وقد قال تعالى : « يا ايها النبي إنا أرسلناك
شاهداً ومبشراً ونذيراً » الأحزاب : ٤٥ ، وقيل : شاهد منه لسانه اي يتلو
القرآن بلسانه .

وقيل : الشاهد علي بن ابي طالب عليه السلام ، وقد وردت به عدة روايات من
طرق الشيعة واهل السنة .

والتأمل في سياق الآية وظاهر جملها يكفي مؤنة إبطال هذه الوجوه غير ما
قدمناه من معنى الآية فلا نطيل الكلام بالبحث عنها والمناقشة فيها .

وقوله تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » الضمير راجع الى الموصول او الى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير « يتلوه » والجملة حال بعد حال اي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند الله والحال ان معه شاهداً منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذي هو على بينة سبقه كتاب موسى إماماً ورحمة او قبل بينته التي منها القرآن او هي القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهادية الى الحق كتاب موسى إماماً فليس هو او ما عنده من البينة ببدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوكة من قبل يهدي اليه كتاب موسى .

ومن هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى وهو التوراة بالإمام والرحمة فإنه مشتمل على معارف حقة وشريعة إلهية يؤتم به في ذلك ويتنعم بنعمته ، وقد ذكره الله بهذا الوصف في موضع آخر من كلامه فقال : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم - الى أن قال - وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » الأحقاف : ١٢ .

والآيات - كما ترى - أقرب الآيات مضموناً من الآية المبحوث عنها تذكر أولاً : أن القرآن بينة إلهية او أمر قامت عليه بينة إلهية ثم تذكر شهادة الشاهد من بني إسرائيل عليه وتأيده بها ثم تذكر أنه مسبوق فيما يتضمنه من المعارف والشرائع بكتاب موسى الذي كان إماماً ورحمة يأتهم به الناس ويهتدون ، وطريقاً مسلوكة مجرباً ، والقرآن كتاب مثله مصدق له منزل من عند الله لإنذار الظالمين وتبشير المحسنين .

ومن هنا يظهر أيضاً : أن قوله : « إماماً ورحمة » حال من كتاب موسى لا من قوله : « شاهد منه » على ما ذكره بعضهم .

قوله تعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » المشار اليهم بقوله : « أولئك » بناء على ما تقدم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا

على بينة من ربهم المدلول عليهم بقوله : « أفمن كان » الخ ، وأما إرجاع الإشارة الى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم .

وكذا الضمير في قوله : « به » راجع الى القرآن من جهة أنه بينة منه تعالى او امر قامت عليه البينة ، وأما إرجاعه الى النبي ﷺ فلا يلائم ما قررناه من معنى الآية فإن في صدر الآية بيان حال النبي ﷺ بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله : « فلاتك في مرية منه » كأنه قيل : إنك على بينة كذا ومعك شاهد وقيلك كتاب موسى ، ومن كان على هذه الصفة يؤمن بما اوتي من كتاب الله ، ولا يصح أن يقال : ومن كان على هذه الصفة يؤمن بك ، والكلام في الضمير في « ومن يكفر به » كالكلام في ضمير « يؤمنون به » .

وأمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى الى الوف من الاحتملات بعضها صحيح وبعضها خلافه .

قوله تعالى : « فلاتك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » المرية كجلسة النوع من الشك ، والجملة تفريع على صدر الآية ، والمعنى أن من كان على بينة من ربه في امر وقد شهد عليه شاهد منه وقبلة إمام ورحمة ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من امر الله ولا يوحشه إعراض اكثر الناس عما عنده ، وأنت كذلك فإنك على بينة من ربك وبتلوك شاهد ومن قبلك كتاب موسى إماماً ورحمة وإذا كان كذلك فلاتك في مرية من امر ما أنزل اليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله ولكن اكثر الناس لا يؤمنون .

وقوله : « إنه الحق من ربك » تعليل للنهي وقد اكد بأن ولام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهي قيام البينة وشهادة الشاهد وتقديم كتاب موسى إماماً ورحمة .

قوله تعالى : « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً » الى آخر الآية ، من الممكن أن يكون ذيلًا للسياق السابق من حيث كان تطيباً لنفس النبي ﷺ فيقول المعنى الى أنك إذ كنت على بينة من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفترياً على الله

الكذب لأن المفترى على الله كذباً من أظلم الظالمين، ولهم من وبال كذبهم كذا وكذا. وكيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه أو نسبة شيء إليه بغير الحق أو بغير علم، والافتراء من أظهر أفراد الظلم والإثم، ويعظم الظلم بعظم متعلقه حقاً إذا انتهى إلى ساحة العظمة والكبرياء كان من أعظم الظلم. والكلام واقع موقع قلب الدعوى عليهم إذ كانوا يقولون للنبي ﷺ : إنه افترى على الله كذباً بنسبة القرآن إليه فقلب القول عليهم أنهم هم الذين افترؤا على الله كذباً إذ أثبتوا له شركاء بغير علم وهو الله لا إله إلا هو، وإذا صدوا عن سبيل الله ومعناه نفي كونه سبيلاً لله وهو افتراء، وإذا طلبوا سبيلاً أخرى فاستنتوا بها في حياتهم وكان ذلك تغييراً لسبيل الله التي تهدي إليها الفطرة والنبوة، وإذا كفروا بالآخرة فنفوها وذلك إثبات مبدع من غير معاد ونسبة اللغو وفعل الباطل إليه تعالى وهو افتراء عليه.

وبالجملة انتحلهم بغير دين الله ونحلته، وأخذهم بالعقائد الباطلة في المبدع والمعاد واستثناهم بغير سنة الله في حياتهم الدنيوية الاجتماعية - والذي من الله إنما هو الحق ولا سنة عند الله إلا دين الحق - وافتراء على الله، وسيشهد عليهم الأشهاد بذلك يوم يعرضون على ربهم.

وقوله تعالى : « أولئك يعرضون على ربهم » العرض إظهار الشيء ليرى ويوقف عليه، ولما كان ارتفاع الحجب بينهم وبين ربهم يوم القيامة بظهور آياته ووضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضوراً اضطرارياً منهم لفصل القضاء سماه عرضاً لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزاً منهم لله فقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ، وقال : « وبرزوا لله الواحد القهار » إبراهيم : ٤٨ فقال : « أولئك يعرضون على ربهم » أي يأتي بهم الملائكة الموكلون بهم فيوقفونهم موقفاً ليس بينهم وبين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

وقوله : « ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » الأشهاد جمع شهيد كأشراف جمع شريف وقيل : جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب ، ويؤيد الأول قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » النساء : ٤١ وقوله : « وجاءت

كل نفس معها سائق وشهيد « ق : ٢١ .

وقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله اي سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادة الأشهاد عليهم بذلك في موقف لا يذکر فيه إلا الحق ولا مناص فيه عن الاعتراف والقبول كما قال تعالى : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » النبأ : ٣٨ وقال تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً » آل عمران : ٣٠ .

قوله تعالى : « ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله » الخ ، تنمة قول الأشهاد ، والدليل عليه قوله تعالى : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ .

وهذا القول منهم المحكي في كلامه تعالى تشبیه منهم للبعد واللعن على الظالمين وتسجيل للعذاب ، وليس اللعن والرحمة يوم القيامة كاللعن والرحمة في الدنيا كما في قوله تعالى : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » البقرة : ١٥٩ وذلك أن الدنيا دار عمل ويوم القيامة يوم جزاء فليست فيه من لعنة أو رحمة هو إيصال ما ادّخر لهم إليهم فلعن اللاعن أحداً يوم القيامة طرده من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين وتسجيل عذاب البعد عليه .

ثم فسر سبحانه الظالمين بقوله حكاية عنهم : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون » فهم الذين لا يذعنون بيوم الحساب حتى يعملوا له وإنما يعملون للدنيا ويسلكون من طريق الحياة ما يتمتعون به للدنيا المادية فحسب ، وهو السنة الاجتماعية غير المعنوية بما يريد الله من عباده من دين الحق وملة الفطرة فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع وعملوا بسنة منحرفة عن دين الفطرة وهو الإسلام ام لم يعتقدوا به ممن يقول : ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، ظالمون مفترون على الله الكذب ، وقد تقدم بعض الكلام المتعلق بهذه المعاني في سورة الأعراف آية ٤٤ - ٤٥ .

وقد بان مما تقدم من البحث في الآيتين أولاً : ان الدين في عرف القرآن هو

السنة الاجتماعية الدائرة في المجتمع .

وثانياً : ان السنن الاجتماعية إما دين حق فطري وهو الإسلام او دين محرف عن الدين الحق وسبيل الله عوجاً .

قوله تعالى : « أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء » الى آخر الآية . الاشارة الى المفتريين على الله الموصوفين بما مر في الآيتين السابقتين .

والمقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين في الأرض انهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الارضية حيث خرجوا عن زي العبودية فأخذوا يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً فكل ذلك لا لأن قدرتهم المستعارة فاقت قدرة الله سبحانه ومشيتهم سبقت مشيته ، ولا لأنهم خرجوا من ولاية الله فدخلوا في ولاية غيره وهم الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم وكذا سائر الأسباب التي ركنوا اليها ، وذلك قوله : « وما كان لهم من دون الله من اولياء » .

وبالجملة لا قدرتهم غلبت قدرة الله سبحانه ولا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقة يدبرون امرهم ويحملونهم على ما يأتون به من البغي والظلم بل الله سبحانه هو وليهم وهو المدبر لأمرهم يحازيهم على سوء نياتهم واعمالهم بما يحرمهم الى سوء العذاب ويستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » الصف : ٥ ، وقال : يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

وقوله : « يضاعف لهم العذاب » ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا الله بأنفسهم وحملوا غيرهم على معصية الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصية قال تعالى : « ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم » النحل : ٢٥ وقال : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ .

وقوله : « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » في مقام التعليل ولذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا ولم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة

الله ولا لأن لهم اولياء من دون الله يستظفرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار والتبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث والزجر من قبله وما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم في قوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل » الأعراف : ١٧٩ ، وفي قوله : « ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة » الأنعام : ١١٠ ، وقوله : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » البقرة : ٧ ، وآيات اخرى كثيرة تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم واعينهم وآذانهم غير انه تعالى يحكي عنهم مثل قولهم : « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم » الملك : ١١ ، واعترفهم بأن عدم سمعهم وعقلهم كان ذنباً منهم مع ان ذلك مستند الى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على انهم انفسهم توسلوا الى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ وغيره .

وذكروا في معنى قوله : « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » وجوهاً اخرى :

منها : أن قوله : « ما كانوا » الخ ، في محل النصب بتزع الخافض وهو متعلق بقوله : يضاعف « الخ » ، والاصل : بما كانوا يستطيعون السمع وبما كانوا يبصرون ، والمعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون .

ومنها : أنه عني بقوله : « ما كانوا يستطيعون » الخ ، نفي السمع والبصر عن آلهتهم وأوثانهم ، وتقدير الكلام أولئك الكفتار وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الارض ، وقال مخبراً عن الآلهة : ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون .

ومنها : أن لفظة ما في « ما كانوا » ليست للنفي بل تجري مجرى قولهم : لاواصلنك ما لاح نجم ، والمعنى انهم معذبون ما داموا احياء .

ومنها : ان نفي السمع والبصر بمعنى نفي الفائدة فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله والنظر فيها وكرهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع ولا يبصر

فالكلام على الكناية .

وأعدل الوجوه آخرها وهي جميعاً سخيفة ظاهرة السخافة . والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون »
 أما خسراهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقة — وذلك بتعليمك من الله تعالى — إلا نفسه
 وإذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها وضيعتها بالكفر والمعصية فقد خسر في هذه
 المعاملة التي أقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك ، وأما ضلال ما كانوا
 يفترون فإنه كان كذباً وافتراء ليس له وجود في الخارج من أوهامهم ومزاعمهم التي
 زينتها لهم الأهواء والهوسات الدنيوية وبانطواء بساط الحياة الدنيا يزول وينمحي
 تلك الأوهام ويضلّ ما لاح واستقر فيها من الكذب والافتراء ويومئذ يعلمون أن
 الله هو الحق المبين ، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

قوله تعالى : « لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » عن الفراء : أن
 « لا جرم » في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت
 بمعنى « حقاً » ولهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا . انتهى ، وقد ذكروا أن
 « جرم » بفتحين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام
 كلفظة « لا محالة » وتفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما يتصور نظير
 المعنى في « لا محالة » فعنى الآية على هذا : حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون .

ووجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى غيرهم
 من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها وإضاعتهما بالكفر والعناد فلا
 مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا ويسعدوا
 بالإيمان ما داموا على العناد ، قال تعالى : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون »
 الأنعام : ١٢ . وقال تعالى في هؤلاء المحتوم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم : « وجعلنا
 من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم
 أم لم تنذرهم لا يؤمنون » يس : ١٠ . وقال أيضاً في سبب عدم إمكان إيمانهم :
 « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على
 بصره عشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ .

وان فرض أنهم أخسر بالنسبة الى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم وصدمهم عن سبيل الله حرموا سعادة الحياة التي يمهدها لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلدة وأما الدنيا فليست إلا قليلا، قال تعالى : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » الأحقاف : ٣٥ .

على أن الأعمال تشتد وتضعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » أسرى : ٧٢ ، وأحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآية حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم » الى آخر الآية ، قال الراغب في المفردات : الخبت المطمئن من الأرض وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضع قال الله تعالى : وأخبتوا الى ربهم ، وقال : وبشر المحبتين أي المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته ، وقوله : فتخبت له قلوبهم أي قلبن وتخشع . انتهى .

فالمراد بإخباتهم الى الله اطمئنانهم اليه بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون ولا يرتابون كالأرض المطمئنة التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل ان الأصل ، أخبتوا لربهم فإن ما في معنى الاطمئنان يتعدى إلى دون اللام .

وتقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبات اليه يدل على أن المراد بهم طائفة خاصة من المؤمنين وهم المطمئنون منهم الى الله ممن هم على بصيرة من ربهم ، وهو الذي أشرنا اليه في صدر الآيات عند قوله : « أفمن كان على بينة من ربه » الخ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس وهم أهل البصيرة الإلهية ومن عميت عين بصيرته .

ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعني

قوله : « أفمن كان على بينة من ربه - الى قوله - أفلا تذكرون » بيان لحال الفريقين وهم الذين يكفرون بالقرآن والذين يؤمنون به .

قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع أفلا تذكرون المثل هو الوصف ، وغلب في المثل السائر وهو بيان معنى من المعاني الخفية على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس بأنس به ذهنه ويتلقاه فهمه لينتقل به الى المعنى المعقول المقصود ببيانه ، والمراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقة ، والباقي واضح .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر الحلال قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فقال : أمير المؤمنين عليه السلام هو الشاهد من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بينة من ربه .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين عن الحسن عليهم السلام في خطبة طوييلة خطبها بمحضر معاوية - منها - فأدت الامور وأفضت الدهور الى أن بعث الله محمداً ﷺ للنبوّة واختاره للرسالة ، وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء الى الله عز وجل فكان أبي أول من استجاب لله عز وجل ولرسوله وأول من آمن وصدق الله ورسوله ، وقد قال الله عز وجل في كتابه المنزل على نبيه المرسل : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فرسول الله ﷺ الذي على بينة من ربه ، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه . الخطبة .

أقول : وكلامه عليه السلام أحسن شاهد على ما قدمناه في معنى الآية أن إرادته عليه السلام بالشاهد من باب الانطباق .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن الأصمغ بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لو كسرت لي الوسادة فقمعت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وأهل

الانجيل بأنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد الى الله يزهر ، والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل او نهار إلا وقد علمت فيمن أنزلت ، ولا احد ممن مر على رأسه المواسي إلا وقد أنزلت آية فيه من كتاب الله تسوقه الى الجنة أو النار .

فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ما الآية التي نزلت فيك ؟ قال : أما سمعت الله يقول : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فرسول الله ﷺ على بينة من ربه وأنا الشاهد له ومنه .

أقول : وروى هذا المعنى المفيد في الأمالي مسنداً وفي كشف الغمة مرسلان عن عباد بن عبد الله الأسدي عنه عليه السلام ، والعياشي في تفسيره مرسلان عن جابر عن عبد الله بن يحيى عنه عليه السلام وكذا ابن شهر آشوب عن الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عنه عليه السلام وكذا عن الأصبغ وعن زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما من رجل من قریش إلا نزل فيه طائفة من القرآن فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » رسول الله ﷺ على بينة من ربه ، وأنا شاهد منه .

أقول : وفي تفسير البرهان عن تفسير الثعلبي بإسناده عن الشعبي يرفعه الى علي عليه السلام مثله وفيه عن ابن المغازلي يرفعه الى عباد بن عبد الله عن علي عليه السلام مثله وكذا عن كنوز الرموز للرسغي مثله .

وفيه أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفمن كان على بينة من ربه » أنا « ويتلوه شاهد منه » قال : علي .

أقول : وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي في تفسير الآية عن النبي ﷺ مثله .

وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي بإسناده عن علي بن حابس قال : دخلت أنا وأبو مريم علي عبد الله بن عطاء قال أبو مريم : حدثت علينا الحديث الذي حدثتني به عن أبي جعفر قال : كنت عند أبي جعفر جالساً إذ مرّ علينا ابن عبد الله بن سلام

قلت : جعلت فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب ، قال : لا ولكنه صاحبكم علي ابن ابي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى : « من عنده علم الكتاب » « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » .

وفيه عن ابن شهر آشوب عن الحافظ ابي نعيم بثلاثة طرق عن ابن عباس قال : قال : سمعت علياً يقول : قول الله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » رسول الله ﷺ على بينة وأنا الشاهد .

وفيه أيضاً عن موفق بن احمد قال : قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » قال ابن عباس : هو علي يشهد للنبي ﷺ وهو منه .

أقول : ورواه عن الثعلبي في تفسيره يرفعه الى ابن عباس « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » علي خاصة .

أقول : قال صاحب المنار في تفسير الآية عند ذكر معاني الشاهد : ومنها : أنه علي رضي الله عنه ترويه الشيعة ويفسرونه بالإمامة ، وروي : أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره وفسره بأنه لسانه ﷺ ، وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا : إنه ابو بكر ، وهما من التفسير بالهوى . انتهى أما قوله : « إن الشيعة ترويه » فقد عرفت أن رواته من أهل السنة أكثر من الشيعة ، وأما قوله : « إنه مثل تفسيره بأبي بكر من التفسير بالهوى » فيكفيك في ذلك ما تقدم في معنى الآية فراجع .

وفي الكافي بإسناده عن زيد الشحام عن ابي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : إن عندنا رجلاً يقال له : كليب فلا يجيء عنكم شيء إلا قال : أنا أسلم فسميناه كليب تسليم قال : فترحم عليه ثم قال : أتدرون ما التسليم ؟ فسكتنا فقال : هو والله الإخبات قول الله عز وجل : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم » .

أقول : وروى مثله العياشي في تفسيره والكشي وكذا صاحب البصائر عن ابي أسامة زيد الشحام عنه عليه السلام .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ — ٢٥ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ — ٢٦ . فَقَالَ الْمَلَأَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِلْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ — ٢٧ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْتُ مَكْمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ — ٢٨ . وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ — ٢٩ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ — ٣٠ . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ — ٣١ . قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ — ٣٢ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ — ٣٣ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ

إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ٣٤ .
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا
تُجْرِمُونَ - ٣٥ .

(بيان)

شروع في قصص الأنبياء عليهم السلام وقد بدأ بنوح وعقبه بجماعة ممن بعده
كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام . وقد قسّم قصة نوح الى
فصول اولها احتجاجه عليه السلام على قومه في التوحيد فهو عليه السلام اول الأنبياء الناهضين
للتوحيد على الوثنية على ما ذكره الله تعالى في كتابه ، وأكثر ما قصّ من احتجاجه
عليه السلام مع قومه من المجادلة بالتي هي أحسن وبعضه من الموعظة وقليل منه من الحكمة
وهو الذي يناسب تفكير البشر الاولي والإنسان القديم الساذج ، وخاصة تفكيرهم
الاجتماعي الذي لا ظهور فيه إلا للمركوم من أفكار الأفراد المتوسطين في الفهم .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه إني لكم نذير مبين » القراءة المعروفة
« إني » بكسر الهمزة على تقدير القول وقرئ « أني » بفتح الهمزة بنزع الخافض والتقدير
بأنني لكم نذير مبين ، والجملة أعني قوله : « إني لكم نذير مبين » على أي حال بيان
إجمالي لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه وأرسل به اليهم إنذار مبين
فهو نذير مبين .

فكما أنه لو قال : ما سألقيه اليكم من القول إنذار مبين كان بياناً لجميع ما
أرسل به اليهم بأوجز كلمة كذا قوله : إني لكم نذير مبين بيان لذلك بالإجمال غير
أنه يزيد على سابقه ببيان سمة نفسه وهي أنه رسول من الله اليهم لينذرهم بعذاب الله ،
وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطة يحمل الرسالة .

قوله تعالى : « ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . بيان
ثان لما أرسل به او بيان لقوله : « إني لكم نذير مبين » ومآل الوجهين واحد ، وأن

على أي حال مفسرة ، والمعنى أن محصل رسالته النهي عن عبادة غير الله تعالى من طريق الإنذار والتخويف .

وذكر بعض المفسرين أن الجملة أعني قوله : « أبت لا تعبدوا » الخ ، بدل من قوله : « إني لكم نذير مبين » أو مفعول لقوله مبين . ولعل السياق يؤيد ما قدمناه .

والظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة أو الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكمه الله تعالى عنهم : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء » الآية ، فإنه ظاهر في عذاب الاستئصال .

فهو عليه السلام كان يدعوهم إلى رفض عبادة الأوثان ويخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أي مؤلم ونسبة الإيلام إلى اليوم دون العذاب في قوله : « عذاب يوم أليم » من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف .

وبما تقدم يندفع ما ربما قيل : إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه في خوفه عليه السلام من تعذيبهم المقطوع ؟ والخوف إنما يستقيم في محتمل الوقوع لا مقطوعه .

وبالجملة كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب ، وإنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفاً من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم ودبّر شؤون حياتهم وأمور معاشهم بخلق السماوات والأرض وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإنبات الأرض وإنشاء الجنات وشق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام في سورة نوح .

وإذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه وليعبدوه وحده .

وهذه الحجة في الحقيقة حجة برهانية مبنية على اليقين لكنهم إنما كانوا يتلقونها كحجة جدلية مبنية على الظن لأنهم لسذاجة أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الرب وعذابه على المخالفة لأنهم يرونه ولياً لأمرهم مصلحاً لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من

الإنسان الحاكم في من دونهم من أفراد المجتمع الذين يجب الخضوع لمقامهم والتسليم لإرادتهم ولو استكبر عن الخضوع لهم والتسليم لإرادتهم من دونهم سخطوا عليهم وعاقبهم بما أجزموا وتمردوا .

وعلى هذا القياس يجب إرضاء الرب أو الأرباب الذين يرجع اليهم أمر الكون وولاية النظام الجاري فيه فيجب إرضاءه وإخماد نار غضبه بالخضوع له والتقرب اليه بتقديم انقرايين والتضحية وسائر الخساء العبادة فهكذا كانوا يعتقدون وهو مبني على الظن .

لكن مسألة نزول العذاب على الاستنكاف عن عبادة الله تعالى والاستكبار عن التسليم والخضوع لساحة الربوبية مسألة حقيقية يقينية فإن من النواميس الكلية الجارية في الكون لزوم خضوع الضعيف للقوي والمتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك في الله الواحد القهار الذي اليه مصير الأمور .

وقد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون وربط بعضها ببعض ثم أجرى الحوادث على نظام الاسباب وعلى ذلك يجري كل شيء في نظام وجوده فلو انحرف عما يخطه له سائر الأسباب من الخط أدى ذلك الى اختلال نظامها وكان ذلك منازعة منه لها وعند ذلك ينتهز سائر الاسباب الكونية من أجزاء الوجود لتعديل أمره وإرجاعه الى خط يلائمها تدفع بذلك الشر عن نفسها فإن استقام هذا الجزء المنحرف عن خطه المخطوط له فهو وإلا حطمتها حاضيات الاسباب ونزلات النوائب والبلايا، وهذا ايضاً من النواميس الكلية .

والإنسان الذي هو احد اجزاء الكون له في حياته خط خطه له الصنع والإيجاد فإن سلكه هداه الى سعادته ووافق بذلك سائر اجزاء الكون وفتحت له ابواب السماء ببركاتها وسمحت له الارض بكنوز خيراتها، وهذا هو الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى المدعو اليه بدعوة نوح ومن بعده من الانبياء والرسل عليهم السلام .

وإن تحطاه وانحرف عنه فقد نازع اسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري وزاحمها في شؤون حياتها فليتوقع مرّ البلاء ولينتظر العذاب والعناء فإن استقام في أمره وخضع لإرادة الله سبحانه وهي ما تحطمه من الاسباب العامة فمن

المرجو أن تتجدد له النعمة بعد النعمة وإلا فهو الهلاك والفناء وإن الله لغني عن العالمين ، وقد تقدم هذا البحث في بعض اجزاء الكتاب السابقة .

قوله تعالى : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا » الى آخر الآية ، الفاء في صدر الآية لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السلام ، وفيه إشارة الى انهم بادروه بالرد والإنكار من دون ان يفكروا في انفسهم فيختاروا ما هو أصح لهم .

والمجيئون هم الملأ من قومه والأشراف والكبراء الذين كفروا به ولم يتعرضوا في جوابهم لما ألقى اليهم من حجة التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفي رسالته والاستكبار عن طاعته فإن قوله : « إني لكم نذير مبين » الى آخر الآيتين ، كانت مشتملاً على دعوى الرسالة وملوحاً الى وجوب الاتباع وقد صرح به فيما حكى عنه في موضع آخر ، قال تعالى : « قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » نوح : ٣ .

ومحصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو في الحقيقة حجتان منظومتان على طريق الاضراب والترقي ولذلك آخر قولهم : « بل نظنكم كاذبين » .

والحجة الاولى التي مدلوها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينة بطرق ثلاث هي قوله : « ما نراك إلا بشراً » الخ ، وقوله : « وما نراك اتبعك » الخ ، وقوله : « وما نرى لكم علينا » الخ .

والحجة بجميع أجزائها مبنية على إنكار ما وراء الحس كما سنبين ولذلك كرروا فيه قولهم : ما نراك وما نرى .

فقوله : « ما نراك إلا بشراً مثلنا » أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السلام من الرسالة ، وقد تمسكوا فيه بالمثالة كما هو دأب سائر الامم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى في كتابه وتقريره : أنك مثلنا في البشرية ولو كنت رسولاً اليينا من عند الله لم تكن كذلك ولا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا ، وإذا كنت بشراً مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك .

ففي الكلام تكذيب لرسالته ﷺ بأنه ليس إلا بشراً مثلهم ثم استنتاج من ذلك أنه لا دليل على لزوم اتباعه ، والدليل على ما ذكرنا قول نوح ﷺ فيما سيحكيه الله تعالى من كلامه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، الخ .

وقد اشتبه الأمر على بعض المفسرين فقرر قولهم : وما نراك إلا بشراً مثلاً ، بأنهم ساووه بأنفسهم في الزنة الاجتماعية واستنتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له ، قال في تفسير الآية : أجابوه بأربع حجج داحضة . إحداها : أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة ، وهذا يدل على أنه ﷺ كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه وهكذا كان كل رسول من وسط قومه ، ووجه الجواب أن المساواة تنافي دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر يجعل أحدهما تابعاً طائعاً والآخر متبوعاً مطاعاً لأنه ترجيح بغير مرجح . انتهى .

ولو كان المعنى ما ذكره لكان من حق الكلام أن يقال : أنت مثلاً أو نراك مثلاً دون أن يقال : ما نراك إلا بشراً مثلاً فيذكر أنه بشر . ولا حاجة إلى الإشارة إلى بشريته ، ولكان معنى الكلام عائداً إلى المراد من قولهم بعد : وما نرى لكم علينا من فضل ، وكان فضلاً من الكلام .

ومن العجب استفادته من الكلام مساواته ﷺ لهم في البيت والشخصية ثم قوله : « وهكذا كان كل رسول من وسط قومه » وفي الرسل مثل إبراهيم وسليمان وأيوب عليهم السلام .

وقوله : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » قال في المفردات : الرذل - بفتح الراء - والرذال - بكسرهما - المرغوب عنه لردائه قال تعالى : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » وقال : « إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقال : « قالوا انؤمن لك واتبعك الأرذلون » جمع الأرذل .

وقال في المجمع : الرذل الخسيس الحقير من كل شيء والجمع أرذل ثم يجمع على أراذل كقولك : كلب واكلب واكلاب ، ويجوز أن يكون جمع الأرذل فيكون مثل اكابر جمع اكبر .

وقال : والرأي الرؤية من قوله : « يرونهم مثليهم رأي العين » أي رؤية العين

والرأي ايضاً ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء . انتهى .

وقال في المفردات : وقوله : « بادي الرأي » أي ما يبدى من الرأي وهو الرأي الفطير ، وقرئ : بادي بنير همزة أي الذي يظهر من الرأي ولم يترو فيه . انتهى .

وقوله : « بادي الرأي » يحتمل أن يكون قيداً لقوله : « هم أرادلنا » أي كونهم أرادل وسفلة فينا معلوم في ظاهر الرأي والنظر او في اول نظرة .

ويحتمل كونه قيداً لقوله : « اتبعك » أي اتبعوك في ظاهر الرأي او في اوله من غير تعمق وتفكر ولو تفكروا قليلاً وقلبوا أمرك ظهراً لبطن ما اتبعوك ، وهذا الاحتمال لا يستغني عن تكرار الفعل ثانياً والتقدير : اتبعوك بادي الأمر وإلا اختل المعنى لو لم يتكرر وقيل : ما نراك اتبعك في بادي الرأي إلا الذين هم أرادلنا . وبالجملة معنى الآية : أنا نشاهد أن متبعيك هم أرادل والأخساء من القوم ولو اتبعناك ساويناهم ودخلنا في زميرتهم وهذا ينافي شرافتنا ويحط قدرنا في المجتمع ، وفي الكلام إيماء الى بطلان رسالته عليه السلام بدلالة الالتزام فإن من معتقدات العامة أن القول لو كان حقاً نافعاً لتبعه الشرفاء والعظماء وأولو القوة والطول ولو استنكفوا عنه او اتبعه الأخساء والضعفاء كالعبيد والمساكين والفقراء ممن لا حظ له من مال او جاه ولا مكانة له عند العامة فلا خير فيه .

وقوله : « ولا نرى لكم علينا من فضل » المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوي يختصون بالتنعم به او شيء من الامور الغيبية كعلم الغيب او التأيد بقوة ملكوتية وذلك لكون النكرة - فضل - واقعة في سياق النفي فتفيد العموم .

وقد أشركوا أتباع نوح عليه السلام والمؤمنين به منهم في دعوته إذ قالوا : « ولا نرى لكم علينا » ولم يقولوا : « ولا نرى لك » لأنهم كانوا يحثونهم ويرغبونهم في اتباع ما اتبعوه من الطريقة .

والمعنى أن دعوتكم إيانا - وعندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال والبنين والعلم والقوة - إنما يستقيم ويؤثر أثره لو كان لكم شيء من الفضل تفضلون به علينا من زينة الحياة الدنيا او علم من الغيب او قوة من الملكوت حتى يوجب

ذلك خضوعاً منا لكم ولا نرى شيئاً من ذلك عندكم فأبي موجب يوجب علينا اتباعكم؟
وإنما عممنا الفضل في كلامه للفضل من حيث الجهات المادية وغيره كعلم الغيب
والقوة الملكوتية خلافاً لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادي كالمال
والكثرة وغيرهما ، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكرة في سياق النفي .

مضافاً الى أن ما يحاذي قولهم هذا من جواب نوح عليه السلام يدل على ذلك وهو
قوله : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك » الخ
على ما سيأتي .

وقوله تعالى : « بل نظنكم كاذبين » إضراب في الاحتجاج كما تقدمت الإشارة
اليه فحصله أنا لا نرى معكم أمراً يوجب اتباعنا لكم بل هناك أمر يوجب عدم
الاتباع وهو أنا نظنكم كاذبين .

ومعناه على ما يعطيه السياق - والله أعلم - أنه لما لم يكن عندكم ما يشاهد
معه صحة دعوتكم وإنكم تلحون علينا بالسمع والطاعة وانتم صفر الأيدي من مزايا
الحياة من مال وجاه وهذه الحال تستدعي الظن بأنكم كاذبون في دعواكم تريدون بها
نيل ما بأيدينا من أماني الحياة بهذه الوسيلة وبالجملة هذه اشارة توجب عادة الظن
بأنها اكدوبة يتوسل بها الى اقتناء الأموال والقبض على ثروة الناس والاستعلاء عليهم
بالحكم والرئاسة ، وهذا كما حكى الله سبحانه عنهم في مثل القصة إذ قال : « فقال
الملا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » المؤمنون :
٢٤ . وبهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم ، وأن المراد بالكذب
الكذب الخبيري دون الخبري .

قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » الى آخر الآية
بيان لما أجاب به نوح عليه السلام عن حججهم الى تمام اربع آيات ، والتعمية الإخفاء فمعنى
عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحية جهلكم وكراحتكم للحق . وقرئ :
عميت بالتخفيف والبناء للفاعل أي خفيت عليكم تلك الرحمة .

لما كانت حججهم مبنية على الحس ونفي ما وراءه وقد استنتجوا منها أولاً

عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه ثم اضربوا عنه بالترقي الى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم اجابهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه ، ونفي ما حاولوا اثباته باتهامه واتهام اتباعه بالكذب غير انه استعطفهم بخطاب يا قوم - بالإضافة الى ضمير التكلم - مرة بعد مرة ليجلبهم اليه فيقع نصحه موقع القبول منهم .

وقد ابدع الآيات الكريمة في تقرير حجته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في جوابهم فقطعت حجتهم فصلاً فصلاً وأجابت عن كل فصل بوجهه أعني من جهة انتاجه أن لا دليل على اتباعه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأن الدليل على خلافه وذلك قوله : « يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة » الخ ، وقوله : « وما انا بطارد الذين آمنوا » الخ ، وقوله : « ولا اقول لكم عندي خزائن الله » الخ ، ثم اخذت من كل حجة سابقة شيئاً يجري مجرى التلخيص فإضافته الى الحجة اللاحقة بادئة به فامتزجت الحجة بالحجة على ما لكل منها من الاستقلال والتام .

فتمت الحجج ثلاثاً كل واحدة منها مبدوءة بالخطاب وهي قوله : « يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة » الخ ، وقوله : « يا قوم لا أسألكم عليه أجراً » الخ ، وقوله : « يا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم » الخ ، فتدبر فيها .

فقوله : « قل يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي » جواب عن قولهم : « ما نراك إلا بشراً مثلنا » يريدون به أنه ليس معه إلا البشرية التي يدللهم فيها ويمثلونه فبأي شيء يدعي وجوب اتباعهم له ؟ بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك اموالهم ويترأس عليهم .

وإذ كان هذا القول منهم متضمناً لنفي رسالته وسندهم في ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة والاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه في دعوى الرسالة وهو الآية المعجزة الدالة على صدق الرسول في دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية لا طريق الى العلم بتحقيقه إلا بوقوع امر غيبي آخر خارق للعادة يوقن به كون الرسول صادقاً في دعواه الرسالة ، ولذلك اشار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بقوله : « يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من

ربي ، الى أن معه بينة من الله وآية معجزة تدل على صدقه في دعواه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالبينة الآية المعجزة التي تدل على ثبوت الرسالة لأن ذلك هو الذي يعطيه السياق فلا يعبا بما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالبينة في الآية العلم الضروري الذي يعلم به النبي أنه نبي وذلك لكونه معنى اجنبياً عن السياق .

وقوله : « وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم » الظاهر انه عليه السلام يشير به الى ما آتاه الله تعالى من الكتاب والعلم ، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية الكتاب وكذا تسمية العلم بالله وآياته رحمة قال تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » هود : ١٧ ، وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة » النحل : ٨٩ ، وقال : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا » الكهف : ٦٥ ، وقال : « ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة » آل عمران : ٨ .

وأما قوله : « فعميت عليكم » فالظاهر ان ضميمه راجع الى الرحمة ، والمراد أن ما عندي من العلم والمعرفة اخفاها عليكم جعلكم وكراهتم للحق بعد ما ذكرتمكم به وبشئته فيكم .

وقوله : « أنلزمكموها وانتم لها كارهون » الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفك منه ، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الايمان بالله وآياته والتلبس بما يستدعيه المعارف الالهية من النور والبصيرة .

ومعنى الآية — والله اعلم — اخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم وكانت عندي ما تحتاج اليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكم الى الحق لكن لم يلبث دون ان اخفاء عليكم عنادكم واستكباركم أوجب علينا عندئذ ان نجبركم عليها ؟ اي عندي جميع ما يحتاج اليه رسول من الله في رسالته وقد أوقفتم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغياناً واستكباراً وليس عليّ ان أجبركم عليها ، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه .

ففي الكلام تعريض لهم أنه قد تمت عليهم الحجة وبانت لهم الحقيقة فلم يؤمنوا

لكنهم مع ذلك يريدون امراً يؤمنون لأجله وليس إلا الإجبار والإلزام على كراهية، فهم في قولهم: لا نراك إلا بشراً مثلنا، لا يريدون إلا الإجبار، ولا إجبار في دين الله.

والآية، من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين تدل على ان ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع وهي شريعة نوح عليه السلام وهو باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ .

وقد ظهر مما تقدم ان الآية ، اعني قوله : « يا قوم أرأيتم إن كنت ، الخ ، جواب عن قولهم : « لا نراك إلا بشراً مثلنا » ويظهر بذلك فساد قول بعضهم : إنه جواب عن قولهم : « بل نظنكم كاذبين » وقول آخرين : إنه جواب عن قولهم : « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقول طائفة أخرى إنه جواب عن قولهم : « وما نرى لكم علينا من فضل » ولا نطيل الكلام بالتعرض لتوضيحها وردّها.

قوله تعالى : « ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله » يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب ولأزمه ان تكون دعوته طريقاً الى جلب أموالهم واخذ ما في أيديهم طمعاً فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئاً من أموالهم لم يكن لهم ان يتهموه بذلك .

قوله تعالى : « وما انا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني اراكم قوماً تجهلون » جواب عن قولهم : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقد بدل لفظة الأراذل - وهي لفظة إرزاء وتحقير - من قوله : الذين آمنوا تعظيماً لأمر إيمانهم وإشارة الى ارتباطهم بربهم .

نفى في جوابه ان يكون يطردهم وعلل ذلك بقوله : « إنهم ملاقوا ربهم » إيذاناً بأن لهم يوماً يرجعون فيه الى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير او شر فعسابهم على ربهم وليس لغيره من الأمر شيء ، فليس على نوح عليه السلام ان يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجألتهم يتوقعون على الفقراء والمساكين والضعفاء ان يطردوا من مجتمع الخير ويسلبوا النعمة والشرافة والكرامة.

فظهر ان المراد بقوله : « إنهم ملاقوا ربهم » الإيمان الى محاسبة الله سبحانه

إياهم يوم يرجعون فيه اليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى في قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » الأنعام : ٥٧ .

وأما قول من قال : إن معنى قوله : « إنهم ملاقوا ربهم » أنه لا يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازي من ظلمهم وطردهم ، أو أنهم ملاقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل وكيف يحوز طردهم وهم لا يستحقون ذلك ، فبعيد عن الفهم . على أن أول المعنيين يجعل الآية التالية أعني قوله : « ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم » الآية زائدة مستغنى عنها كما هو ظاهر .

وظهر أيضاً أن المراد بقوله : « ولكني أراكم قوماً تجهلون » جهلهم بأمر المعاد وأن الحساب والجزاء إلى الله لا إلى غيره ، وأما ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهالة المضادة للعقل والحلم أي تفسهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقة الامتياز بين إنسان وإنسان باتباع الحق وعمل البر والتحلي بالفضائل لا بالمال والجاه كما تظنون فهو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون » النصر مضمّن معنى المنع أو الانجاء ونحوهما والمعنى من يمنعني أو من ينجيني من عذاب الله إن طردتهم أفلا تذكرون أنه ظلم ، والله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منه ، والعقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوي بين الظالم والمظلوم ، ولا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوءه ويشفي به غليل صدر المظلوم والله عزيز ذو انتقام .

قوله تعالى : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك » جواب عن قولهم : « ولا نرى لكم علينا من فضل » يرد عليهم قولهم بآني لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدعيه بما أدعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء .

وأن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه الى نفسه ، ويدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه وبالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره .

وأن يرتفع عن درجة البشرية الى مقام الملكية أي يكون ملكاً منزهاً من ألوان الطبيعة ومبرى من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق واقتناء لوازم الحياة وأمتعتها .

فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤثماها ويمتلكها فيستقل بها ، وقد أخطأتم فليس للرسول إلا الرسالة وإني لست أدعي شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، وبالجملة لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده ، وإنما أقول إني على بينة من ربي تصدق رسالتي وآثاني رحمة من عنده .

والمراد بقوله : « خزائن الله » جميع الذخائر والكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه في وجودهم وبقائهم ويستعينون به على تتميم نقائصهم وتكميلها .

فهاتيك هي التي تزعم العامة أن الأنبياء والأولياء يؤتون مفاتيحها ويمتلكون بها من القدرة ما يفعلون بها ما يشاءون ويحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي ﷺ وقد حكاه الله تعالى إذ يقول : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهالة الملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » أسرى : ٩٣ .

وإنما قال : « ولا أعلم الغيب » ولم يقل : ولا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضمن به ولا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل : لا أقول

إني أعلم الغيب نافعاً لوجوده عند الفائل بل يحتاج الى أن يقال : لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله : « لا أقول لكم عندي خزائن الله » وقوله : « ولا أقول إني ملك » ، ولم يكرر قوله : « لكم » لحصول الكفاية بالواحدة .

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمد ﷺ أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح عليه السلام قومه ثم ذيله بما يظهر به المراد إذ قال : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » الأنعام : ٥٠ .

أنظر الى قوله : « لا أقول لكم » الخ ، ثم الى قوله : « إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » ثم الى قوله : « قل هل يستوي الأعمى والبصير » الخ ، فهو ينفي أولاً الفضل الذي يتوقعه عامة الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادر الى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة اليه كالأعمى بالنسبة الى البصير وهذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير ، وهو المحوز له أن يدعوهم الى اتباعه .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

(كلام في قدرة الأنبياء والأولياء فلسفي قرآني)

الناس في جهل بمقام ربهم وغفلة عن معنى إحاطته وهيمنته فهم مع ما تهديهم الفطرة الإنسانية الى وجوده وأحدثه يسوقهم الإبتلاء بعالم المادة والطبيعة والتوغل في الأحكام والقوانين الطبيعية ثم السن والنواميس الاجتماعية والانس بالكثرة والبيئونة الى قياس العالم الربوبي بما ألفوا من عالم المادة فالله سبحانه عندهم مع خلقه كجبار من جبابرة البشر مع عبيده ورعيته .

فهنالك فرد من الانسان نسميه مثلاً ملكاً او جباراً دونه وزراء وأمراء والجنديون والجلالوزة 'يجرون ما يأمر به او ينهي عنه وله عطايا ومواهب لمن شاء وإرادة وكراهة وأخذ وردّ وقبض وإطلاق ورحمة وسخط وقضاء ونسخ الى غير ذلك .

وكل من الملك وخدمه وأياديه العمالة ورعاياه وما يدور بأيديهم من النعم وأمتعة الحياة أمر موجود محدود مستقل الوجود منفصلة عن غيره إنما يرتبط بعضهم ببعض بأحكام وقوانين وسنن اصطلاحية لا موطن لها سوى ذهن الذاهن واعتقاد المعتقد .

وقد طبقوا العالم الربوبي أعني ما يخبر به النبوة من مقام الرب تعالى وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله على هذا النظام فهو تعالى يريد ويكره ويعطي ويمنع ويدبر نظام الخلقة كما يفعل ذلك الواحد منا المسمى ملكاً ، وهو محدود الوجود منزّل الكون وكل من ملائكته وسائر خليقته مستقل الوجود يملك ما عنده من الوجود والنعم الموهوبة دون الله سبحانه ، وقد كان تعالى في أزل الزمان وحده لا شيء معه من خلقه ثم أبدع في جانب الأبد الخلق فكانوا معه .

فقد أثبتوا - كما ترى - موجوداً محدوداً منطبق الوجود على الزمان غير أن وجوده الزماني دائم ، وله قدرة على كل شيء ، وعلم بكل شيء ، وإرادة لا تنكسر وقضاء لا ترد ، مستقل بما عنده من الصفات والأعمال كما يستقل الواحد منا فيملك ما عنده من الحياة والعلم والقدرة وغير ذلك فحياته حياة له وليست لله ، وعلمه علمه لا علم الله ، وقدرته قدرته لا قدرة الله وهكذا ، وإنما يقال لوجودنا أو حياتنا أو علمنا أو قدرتنا إنها لله كما يقال لما عند الرعية من النعمة إنها للملك بمعنى أنها كانت عنده فأخرجها من عنده ووضعها عندنا نتصرف فيها فجميع ذلك - كما ترى - يقوم على اساس المحدودية والانعزال .

لكن البراهين اليقينية تقضي بفساد ذلك كله فإنها تحكم بسريان الفقر والحاجة الى الموجودات الممكنة في ذواتها وآثار ذواتها وإذا كانت الحاجة اليه تعالى في مقام الذات استحالة الاستقلال عنه والانعزال منه على الإطلاق إذ لو فرض استقلال شيء منه تعالى في وجوده أو شيء من آثار وجوده - بأي وجه فرض في حدوث أو بقاء - استغنى عنه من تلك الجهة وهو محال .

فكل ممكن غير مستقل في شيء من ذاته وآثار ذاته ، والله سبحانه هو الذي يستقل في ذاته وهو الغني الذي لا يفتقر في شيء ولا يفقد شيئاً من الوجود وكال

الوجود كالحياة والقدرة والعلم فلا حد له يتحدد به . وقد تقدم بعض التوضيح لهذه المسألة في ذيل تفسير قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ .

وعلى ما تقدم كان ما للممكن من الوجود او الحياة او القدرة او العلم متعلق الوجود به تعالى غير مستقل منه بوجه ، ولا فرق في ذلك بين القليل والكثير ما كانت خصيصة عدم الاستقلال محفوظة فيه فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شيء او قدرة على كل شيء او حياة دائمة ما دام غير مستقل الوجود عن الله سبحانه ولا بمنزل الكون منه كما لا مانع من تحقق الممكن مع وجود موقت ذي أمد او علم او قدرة متعلقين ببعض الأشياء دون بعض . نعم فرض الاستقلال يبطل الحاجة الامكانية ولا فرق فيه بين الكثير والقليل كما عرفت ، هذا من جهة العقل .

وأما من جهة النقل فالكتاب الإلهي وإن كان ناطقاً باختصاص بعض الصفات والأفعال به تعالى كالعلم بالمغيبات والإحياء والإماتة والخلق كما في قوله : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » الأنعام : ٥٩ ، وقوله : « وأنه هو أُمّات وأحيا » النجم : ٤٤ ، وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ ، وقوله : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ ، الى غير ذلك من الآيات لكنها جميعاً مفسرة بآيات آخر كقوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، وقوله : « قل يتوفاكم ملك الموت » الم السجدة : ١١ ، وقوله عن عيسى عليه السلام : « وأحيي الموتى بإذن الله » آل عمران : ٤٩ ، وقوله : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني » المائدة : ١١٠ الى غير ذلك من الآيات .

وانضمام الآيات الى الآيات لا يدع شكاً في أن المراد بالآيات النافية اختصاص هذه الامور به تعالى بنحو الأصالة والاستقلال والمراد بالآيات المثبتة إمكان تحققها في غيره تعالى بنحو التبعية وعدم الاستقلال .

فمن أثبت شيئاً من العلم المكنون أو القدرة الغيبية أعني العلم من غير طريق الفكر والقدرة من غير مجراها العادي الطبيعي لغيره تعالى من أنبيائه وأوليائه

كما وقع كثيراً في الأخبار والآثار ونفى معه الأصالة والاستقلال بأن يكون العلم والقدرة مثلاً له تعالى وإنما ظهر ما ظهر منه بالتوسيط ووقع ما وقع منه بإفاضته وجوده فلا حجب عليه .

ومن أثبت شيئاً من ذلك على نحو الأصالة والاستقلال طبق ما يثبت به الفهم العامي وإت أسنده الى الله سبحانه وفيض رحمته لم يخل من غلو وكان مشمولاً لمثل قوله : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » النساء : ١٧١ .

قوله تعالى : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين » قال في المفردات : زريت عليه عبته وأزريت به قصدت به وكذلك ازدريت به وأصله افتعلت قال : تزدري أعينكم أي تستقلنهم تقديره تزدريهم أعينكم أي تستقلنهم وتستئين بهم . انتهى .

وهذا الفصل من كلامه عليه السلام إشارة الى ما كان يعتقد الملة الذين كفروا من قومه وبنوا عليه سنة الاشرافية وطريقة السيادة ، وهو أن أفراد الإنسان تنقسم الى قسمين الأقوياء والضعفاء ، أمما الأقوياء فهم أولو الطول وأرباب القدرة المعتضدون بالمسال والعدة ، وأمما الضعفاء فهم الباقون ، والأقوياء هم السادة في المجتمع الانساني لهم النعمة والكرامة ، ولأجلهم انمقصاد المجتمع ، وغيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضحى منافهم كالرعية بالنسبة الى كرسي الحكومة المستبدية ، والعبيد بالنسبة الى الموالى ، والخدم والعملة بالنسبة الى المخدمين والنساء بالنسبة الى الرجال ، وبالأخرة كل ضعيف بالنسبة الى القوي المستعلي عليه .

وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع إنسان منحط أو حيوان في صورة إنسان إنما يرد داخل المجتمع ويشاركهم في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كد يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامة مطرود عن حظيرة الشرافة آئس من الرحمة والعناية .

فهذا هو الذي كانوا يرونه وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم ، وقد ردّ نوح عليه السلام ذلك إليهم بقوله : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » .

ثم بيّن خطأهم في معتقدتهم بقوله: « الله أعلم بما في نفوسهم » أي إن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقهم وتستهن أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم وهوانهم ، وليس هو الملاك في إحراز الخير ونيل الكرامة بل الملاك في ذلك وخاصة الكرامات والمثوبات الإلهية أمر النفس وتحليتها بحلي الفضيلة والمنقبة المعنوية ، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب إلا الله سبحانه فليس لي ولا لكم أن نحكم بجرمانهم من الخير والسعادة .

ثم بيّن بقوله : « إنّي إذا لمن الظالمين » السبب في تحاشيه عن هذا القول ومعناه أنه قول بغير علم ، وتحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافاً من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه الإنسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين .

وهذا المعنى هو الذي يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطاباً لهؤلاء الطاغين إذ يقول : « ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » الأعراف : ٤٩ .

وفي الكلام أعني قول نوح عليه السلام : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم » الخ ، تعريض لهم أنهم كما كانوا يجرّمون على ضعفاء المجتمع المزاياء الحيوية الاجتماعية كذلك كانوا يجرّمون عليهم الكرامة الدينية ويقرنون : إنهم لا يسمدون بدين وإنما يسمدون به أشرف المجتمع وأقويأؤهم ، وفيه أيضاً تعريض بأنهم ظالمون .

وإنما عقيب نوح عليه السلام قوله : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنّي ملك » وهو ينفي فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه ، بقوله : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » الخ ، مع أنه راجع إلى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألقوهم به في قولهم : « ولا نرى لكم علينا من فضل » .

وتوضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتّباعنا لك ولمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا ولا نرى لكم علينا من فضل أمّا أنت فليس معك ما يختصّ به الرسول من قدرة ملكوتية أو علم بالغيب أو أن تكون

«لكا منزهاً من ألوات المادة والطبيعة ، وأما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا
الآئسون من كرامة الانسانية المحرومون من الرحمة والعناية .

فأجاب عنهم نوح بما معناه : أما أنا فلا أدعي شيئاً مما تتوقعون من رسالتي
فليست للرسول إلا الرسالة وأما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز
أن يعلم الله من نفوسهم خيراً فيؤتيهم خيراً وفضلاً فهو أعلم بأنفسهم ، وملاك
الكرامة الدينية والرحمة الإلهية زكاه النفس وسلامة القلب دون الظاهر الذي
تدريه أعينكم فليست أقول : لن يؤتيهم الله خيراً ، فإنه ظلم يدخلني في
زمرة الظالمين .

قوله تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن
كنت من الصادقين » كلام ألقوه الى نوح عليه السلام بعدما عجزوا عن دحض حجته
وإبطال ما دعا إليه من الحق ، وهو مسوق سوق التمجيز والمراد بقولهم : « ماتعدنا »
ما أنذرهم به في أول دعوته من عذاب يوم أليم .

وقد أورد الله سبحانه قولهم هذا فصلاً من غير تفريع لأنهم إنما قالوه بعدما
لبث فيهم أمدأ بعيداً يدعومهم الى التوحيد ويخاصمهم ويحاجتهم بفنون الخصام
والحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم وأثار الحق لهم كما يدل عليه قوله تعالى فيما
يحكي عنه عليه السلام : « قال رب انني دعوت قومي ليلاً ونهاراً - الى أن
قال - ثم انني دعوتهم جهاراً ثم انني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » نوح :
٩ وفي سورة العنكبوت : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً » العنكبوت : ١٤ .
فهذا الذي أوردته الله من حجاجه قومه وجوابهم في شكل محاوراة واحدة إنما وقع
في مآت من السنين ، وهو كثير النظير في القرآن الكريم ولا بدع فيه فإن الذي
يقتض ذلك هو الله سبحانه المحيط بالدهر وبكل ما فيه والذي يسمعها بالوحي هو
النبي صلى الله عليه وآله وقد أوتي من سعة النظر ما يجتمع عنده أشتات الامم وأطراف الزمان .

والمعنى - والله أعلم - يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا ومللنا
وما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب ، وهم لا يعترفون بالمعجز عن خصامه
وجداله بل يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج ويطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل

الداعي الآئس من السمع والطاعة وهو الشر الذي يهدّدهم به وبذكره وراء نصحه.

قوله تعالى : « قال إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » . لما كان قولهم : « فأتنا بما تعدنا » الخ ، طلباً منه أن يأتىهم بالعذاب وليس ذلك إليه فإنما هو رسول ، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضاً — في سياق قصر القلب — أن الإتيان بالعذاب ليس إليّ بل إنما هو إلى الله فهو الذي يملك أمركم فيأتىكم بالعذاب الذي وعدتكموه بأمره فهو ربكم وإلى مرجع أمركم كله ، ولا يرجع إليّ من أمر التدبير شيء حتى أنّ وعدي إليكم بالعذاب واقتراحكم عليّ بطلبه لا يؤثر في ساحة كبريائه شيئاً فإن يشأ يأتكم به وإن لم يشأ فلا .

ومن هنا يظهر أن قوله عز وجل : « إن شاء » من ألطف القيود في هذا المقام أفيد به حق التنزيه وهو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شيء ولا يقهره قاهر يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتي في آخر السورة من الاستثناء في قوله : « خالدين فيها ، ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » هود : ١٠٨ .

وقوله : « وما أنتم بمعجزين » تنزيه آخر لله سبحانه وهو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزي الذي ألغوه إليه عز وجل فإن ظاهره أنهم لا يعباون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم .

قوله تعالى : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » الخ ، قال في المفردات : النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه — قال — وهو من قولهم : نصحت له الود أي أخلصته وناصح العسل خالصه أو من قولهم : نصحت الجلد خطته والناصح الخياط والناصح الخيط .

وقال أيضاً : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً ، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا النحو الثاني يقال له غي قال تعالى : ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وقال : وإخوانهم يمدّونهم في الغي . انتهى .

وعلى هذا فالفرق بين الإغواء والإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع

بقاء المقصد في ذكر الضال ، والإغواء إخراج منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلاً .

والإرادة والمشيئة كالمترادفتين ، وهي من الله سبحانه تسبب الأسباب المؤدية لوجود شيء بالضرورة فكون الشيء مراداً له تعالى أنه تم أسباب وجوده وأكملها فهو كائن لا محالة ، وأما أصل السببية الجارية فهي مرادة بنفسها ولذا قيل : خلق الله الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها .

وبالجملة قوله : « ولا ينفعكم نصحي » الخ ، كأحد شقي الترديد والشق الآخر قوله : « وما أنتم بمعجزين » كأنه ^{عنه} يقول : أمركم إلى الله إن شاء أن يعذبكم أياكم بالعذاب ولا يدفع عذابه ولا يقهر مشيئته شيء فلا أنتم معجزوه ، ولا نصحي ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمة العذاب ، وقيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلون له أنه ينصحهم .

والإغواء كالإضلال وإن لم يحز نسبته إليه تعالى إذا كان إغواء ابتدائياً لكنه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان ويستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق ويخليه ونفسه فيغوي ويضل عن سبيل الحق ، قال تعالى : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

وفي الكلام إشارة إلى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهي كما يلوح إليه قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » أسرى : ١٦ ، وقال : « وقبضنا لهم قرناً فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول » حم السجدة : ٢٥ .

وقوله : « هو ربكم وإليه ترجعون » تعليل لقوله : « ولا ينفعكم نصحي » الخ ، أو لقوله : « إننا يأتيكم به الله إن شاء » إلى قوله - يريد أن يغويكم - جميعاً ومحصله أن أمر تدبير العباد إلى الرب الذي إليه يرجع الأمور ، والله سبحانه هو ربكم وإليه ترجعون فليس لي أن آتيكم بعذاب موعود ، وليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأنا كم به لاستئصالكم وليس لنصحي أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم .

وقد ذكروا في قوله : « إن كان الله يريد أن يغويكم » وجوهاً من التأويل :
 منها : أن المعنى يعاقبكم على كفركم ، وقد سمي الله تعالى العذاب غياً في
 قوله : « فسوف يلقون غياً » مريم : ٥٩ .

ومنها : أن المراد إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إياهم
 ومن عادة العرب أن يسمي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه ، ومن هذا الباب قوله :
 « الله يستهزئ بهم » أي يعاقبهم على استهزائهم وقوله : « ومكروا ومكر الله »
 آل عمران : ٥٤ أي عذبهم على مكروهم إلى غير ذلك .

ومنها : أن الإغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم :
 غوي الفصيل إذا فسد من كثرة شرب اللبن .

ومنها : أن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين ، وأن
 ما هم عليه بإرادة الله ، ولولا ذلك لغيره وأجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه
 التعجب لقولهم والإنكار لذلك إن نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون .

وأنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الكلام في غنى من هذه التأويلات .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما
 تجرمون » أصل الجرم - على ما ذكره الراغب في مفرداته - قطع الشجرة من الشجرة
 وأجرم أي صار ذا جرم ، واستعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم وفتحها
 بمعنى الاكتساب المكروه وهو المعصية .

والآية ، واقعة موقع الاعتراض ، والنكتة فيه أن دعوة نوح واحتجاجاته على
 وثنية قومه وخاصة ما أورده الله تعالى في هذه السورة من احتجاجه أشبه شيء
 بدعوة النبي ﷺ ، واحتجاجه على وثنية أمته .

وإن شئت زيادة تصديق في ذلك فارجع إلى سورة الأنعام - وهي في الحقيقة
 سورة الاحتجاج - وقابل ما حكاه الله تعالى عن نوح في هذه السورة ما أمر الله به
 النبي ﷺ في تلك السورة بقوله : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم
 الغيب ولا أقول إني ملك - إلى أن قال - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشي" - الى أن قال - قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين قل
إني على بينة من ربي وكذبتكم به .

ولك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه عليه السلام في سورة نوح والأعراف على
ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام وفي هذه السورة فتشاهد صدق ما ادّعيناه .

ولهذه المشابهة والمناسبة ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح عليه السلام في إنذاره
قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتهموا النبي عليه السلام ورموه بالافتراء على الله ، وهو
لا ينذرهم ولا يلقي إليهم من الحجج إلا كما أنذر به نوح عليه السلام وألقاه من الحجج إلى
قومه ، وهذا كما ينذر رسول الملك قومهم والمتمردين المستنكفين عن الطاعة ويلقي
إليهم النصح ويتم عليهم الحجة فيرمونه بأنه مفتر على الملك ولا طاعة ولا وظيفة
فيرجع إليهم بالنصح ثانياً ، ويذكر لهم قصة رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم
آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هو لهم فلم يتبصروا به فهلكوا فحينئذ يذكر لهم حججه
ومواعظه يبعثه الوجد والأسف إلى أن يتذكر رميهم بإثاء بالافتراء فيأسف لذلك
قائلاً : إنكم ترمونني بالافتراء ولم أذكر لكم إلا ما بثه هذا الرسول في قومهم من
كلمة الحكمة والنصيحة لا جرم إن افتريته فعليّ إجرامي ولا تقبلوا قولي غير أني
بريء من عملكم .

وقد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباراة ثانياً في آخر السورة بعد إيراد
قصص عدة من الرسل حيث قال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت
به فؤادك - إلى أن قال - وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون
وانتظروا إنا منتظرون » هود : ١٢٢ .

وذكر بعض المفسرين أن الآية ، من تمام القصة والخطاب فيها لنوح ، والمعنى
أم يقول قوم نوح افتراه نوح قل يا نوح إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما
تجرمون ، وعلى هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبة إلى الخطاب وهذا
بعيد عن سياق الكلام غايته .

وفي قوله : « وأنا بريء مما تجرمون » إثبات إجرام مستمر لهم وقد أرسل
إرسال المسلمات كما في قوله : « فعليّ إجرامي » من إثبات الجرم وذلك أن الذي

ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذباً من حيث إن نوحاً عليه السلام لم يحتاج بهذه الحجج وهي حقة ، لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعة لا تقبل الكذب وهي تثبت لهؤلاء الكفار إجراماً مستمراً في رفض ما يهديهم اليه من الإيمان والعمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً ، والنبي عليه السلام مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً وليس بمفتر .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البرزني عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قال الله في نوح عليه السلام « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » قال : الأمر إلى الله يهدي ويضل .
أقول : قد مرّ بيانه .

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى : « أم يقولون افتراء » الآية ، الشيباني في نهج البيان عن مقاتل قال : إن كفار مكة قالوا : إن محمداً افترى القرآن . قال : وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

* * *

وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ — ٣٦ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ — ٣٧ . وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّةً عَلَيْهِ مَلَاةٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ — ٣٨ . فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ — ٣٩ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا

أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ - ٤٠ . وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ - ٤١ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ - ٤٢ . قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ - ٤٣ . وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - ٤٤ . وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ - ٤٥ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ - ٤٦ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ - ٤٧ . قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٤٨ . تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ - ٤٩ .

(بيان)

تتمة قصة نوح عليه السلام وهي تشتمل على فصول كإخباره بنزول العذاب على قومه ، وأمره بصنع الفلك ، وكيفية نزول العذاب وهو الطوفان ، وقصة ابنه الغريق ، وقصة نجاته ونجات من معه لكنها جميعاً ترجع من وجه إلى فصل واحد وهو فصل القضاء بينه وبين قومه .

قوله تعالى : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانة .

وقوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » إثبات وإقناط له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك ، ولذلك فرغ عليه قوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » لأن الداعي إلى أمر إنما يبتئس ويغتم من مخالفة المدعويين وتمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته ، وأما إذا بئس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه في دعوتهم إلى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال إليه ولو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوم لغرض آخر كإتمام الحجة وإبراز المعذرة .

وعلى هذا ففي قوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » تسلية من الله لشرح عليه السلام وتطبيب لنفسه الشريفة من جهة ما في الكلام من الإشارة إلى حلول حين فصل القضاء بينه وبين قومه ، وصيانة لنفسه من الوجد والغم لما كان يشاهد من فعلهم به وبالمؤمنين به من قومهم من إيذائهم إياهم في دهر طويل (مما يقرب من ألف سنة) لبث فيه بينهم .

ويظهر من كلام بعضهم أنه استفاد من قوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » أن من كفر منهم فليس يؤمن بعد هذا الحين أبداً كما أن الذين آمنوا به ثابتون على إيمانهم دائمون عليه . وفيه أن العناية في الكلام إنما تعلقت ببيان عدم إيمان الكفار بعد ذلك فحسب وأما إيمان المؤمنين فلم يعن به إلا بمجرد التحقق سابقاً ولا دلالة في الاستثناء على مزيد من ذلك ، وأما ثباتهم ودوامهم على الإيمان فلا دليل عليه .

ويستفاد من الآية أولاً : أن الكفار لا يعذبون ما كان الإيمان مرجواً منهم فإذا ثبتت فيهم ملكة الكفر ورجس الشرك حق عليهم كلمة العذاب .

وثانياً : أن ما حكاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله : « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » نوح : ٢٧ كان واقعاً بين قوله : « إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » الخ ، وبين قوله : « واصنع الفلك - الى قوله - إنهم مفرقون » .

وذلك لأنه - كما ذكر بعضهم - لا سبيل الى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل من طريق العقل وإنما طريقه السمع بالوحي فهو **بالتحذير** علم أولاً من وحيه تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن أن أحداً منهم لا يؤمن بعد ذلك ولا في نسلهم من سيؤمن بالله ثم دعا عليهم بالعذاب وذكر في دعائه ما أوحى إليه فلما استجاب الله دعوته وأراد إهلاكهم أمره **بالتحذير** **بالتحذير** بأخذ السفينة وأخبره أنهم مفرقون .

قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفرقون » الفلك هي السفينة مفردة وجمعها واحد والأعين جمع قلة للعين وإنما جمع للدلالة على كثرة المراقبة وشدها فإن الجملة كناية عن المراقبة في الصنع .

وذكر الأعين قرينة على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعني قوله : « واصنع الفلك » الخ ، حتى يكون وحياً للحكم بل وحي في مقام العمل وهو تسديد وهداية عملية بتأييده بروح القدس الذي يشير إليه أن افعل كذا وافعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمة من آل إبراهيم عليهم السلام بقوله : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ ، وقد تقدمت الإشارة إليه في المباحث السابقة وسيجيء ان شاء الله في تفسير الآية .

وقوله : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا » اي لا تسألني في امرهم شيئاً تدفع به الشر والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم سوء لأن القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أن قوله : « إنهم مفرقون » في محل التعليل لقوله : « ولا تخاطبني » الخ ، او لمجموع قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا » ويظهر ايضاً أن قوله : « ولا تخاطبني » الخ ، كناية عن الشفاعة .

والمعنى : واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ولا تسألني
 صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضي عليهم الفرق قضاء حتم لا مرد له.
 قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه
 قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » قال في الجمع : السخرية إظهار
 خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل ، ومنه التسخير لتذليل يكون
 استضعافاً بالقهر ، والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصاً
 ولا تكون إلا في الحيوان وقد يكون اللعب بجهاد ، انتهى .

وقال الراغب في المفردات : سخرت منه واستسخرته للجزء منه قال تعالى :
 « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون » « بل عجبت
 ويسخرون » وقيل : رجل سخرة - بالضم فالفتح - لمن سخر وسخرة - بالضم
 فالسكون - لمن يسخر منه ، والسخرية - بالضم - والسخرية - بالكسر - لفعل
 الساخر ، انتهى .

وقوله : « ويصنع الفلك » حكاية الحال الماضية يمثل بها ما يجري على نوح
 عليه السلام من إيذاء قومه وقيام طائفة منهم بعد طائفة على إهانتة والاستهزاء به في
 عمل السفينة وصبره عليه في جنب الدعوة الإلهية وإقامة الحجة عليهم من غير أن
 يفشل وينثني .

وقوله : « كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » حال من فاعل يصنع
 والملا هنا الجماعة الذين يعبأ بهم ، وفي الكلام دلالة على أنهم كانوا يأتونه وهو يصنع
 الفلك جماعة بعد جماعة بالمرور عليه ساخرين ، وأنه عليه السلام كان يصنعها في مرأى
 منهم وممر عام .

وقوله : « قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » في موضع
 الجواب لسؤال مقدر كأن قائلًا قال : فماذا قال نوح عليه السلام ؟ فقيل : « قال إن
 تسخروا منا فإننا نسخر منكم » ولذا فصل الكلام من غير عطف .

ولم يقل عليه السلام : إن تسخروا مني فإنني أسخر منكم ليدفع به عن نفسه وعن
 عصابة المؤمنين به وكأنه كان يستمد من أهله وأتباعه في ذلك وكانوا يشاركونه في

عمل السفينة وكانت السخرية تتناولهم جميعاً فظاهر الكلام أن الملائكة كانوا يواجهون نوحاً ومن معه في عمل السفينة بسخرية نوح ورميه ~~بالجبل~~ بالجنون فيشمل هزؤهم نوحاً ومن معه وإن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلا نوحاً فقط .

على أن الطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضاً كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض وإن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة، ولذا قيل: « سخروا منه » ولم يقل : سخروا منه ومن المؤمنين .

والسخرية وإن كانت قبيحة ومن الجهل إذا كانت ابتدائية لكنها جائزة إذا كانت مجازاة وبمعنواں المقابلة وخاصة إذا كانت تقترب عليها فائدة عقلانية كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجة، قال تعالى: « فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » التوبة: ٧٩ ، ويدل على اعتبار المجازاة والمقابلة بالمثل في الآية قوله: « كما تسخرون ».

قوله تعالى: « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلب عليه عذاب مقيم » السياق يقضي أن يكون قوله: « فسوف تعلمون » تفريعاً على الجملة الشرطية السابقة « ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم » وتكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح ~~عليه السلام~~ ، ويكون قوله: « من يأتيه عذاب يخزيه » الخ ، متعلقاً بتعلمون على أنه معلوم العلم .

والمعنى: ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟ وهذه سخرية بقول حق .

وقوله: « من يأتيه عذاب يخزيه » المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الفرق الذي أخزاهم وأذلهم ، والمراد بقوله: « ويحلب عليه عذاب مقيم » أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق ، هو عذاب النار في الآخرة ، والدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا والثاني هو عذاب الآخرة هو المقابلة وتكرر العذاب - منكرتاً - في اللفظ وتوصيف الأول بالإخزاء والثاني بالإقامة .

وربما أخذ بعضهم قوله : « فسوف تعلمون » ثامناً من غير ذكر متعلق العلم وقوله : « من يأتيه عذاب يخزيه » النخ ، ابتداء كلام من نوح عليه السلام وهو بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « حق اذا جاء أمرنا وفار التنّور » الى آخر الآية ، يقال : فُار القدر يفور فوراً وفوراناً اذا غلا واشتدّ غليانه ، وفارت النار اذا اشتعلت وارتفع لهيبها ، والتنّور تنّور الحطب ، وهو مما اتفقت فيه اللغتان : العربية والفارسية او الكلمة فارسية في الاصل .

وفوران التنّور نبع الماء وارتفاعه منه ، وقد ورد في الروايات : أن أول ما ابتداء الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور ، وعلى هذا فاللام في التنّور للعهد يشار بها الى تنور معهود في الخطاب ، ويحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم : « حمي الوطيس » اذا اشتدّ الحرب .

فقوله : « حتّى اذا جاء أمرنا وفار التنّور » : أي كان الأمر على ذلك حتى اذا جاء أمرنا أي تحقّق الأمر الربوبي وتعلّق بهم وفار الماء من التنّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا وكذا .

وفي التنّور أقوال أخر بعيدة من الفهم كقول من قال : إن المراد به طلوع الفجر وكان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان ، وقول بعضهم : إن المراد به أعلى الأرض وأشرفها أي انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة ونجود الأرض ، وقول آخرين : ان التنّور وجه الأرض هذا .

وقوله : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » أي أمرنا نوحاً عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين وهي الذكر والانثى .

وقوله : « وأهلك الا من سبق عليه القول » أي واحمل فيها أهلك وهم المختصون به من زوج وولد وأزواج الأولاد وأولادهم الا من سبق عليه قولنا وتقدّم عليه عهدنا أنته هالك ، وكان هذا المستثنى زوجته الحائنة التي يذكرها الله

تعالى في قوله : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » التحريم : ١٠ . وابن نوح الذي يذكره الله تعالى في الآيات التالية وكان نوح عليه السلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله وأنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا .

وقوله : « ومن آمن وما آمن معه الا قليل » أي واحمل فيها من آمن بك من قومك غير اهلك لأن من آمن به من أهله أمر بحمله بقوله : « وأهلك » ولم يؤمن به من القوم الا قليل .

في قوله : « وما آمن معه » دون أن يقال : وما آمن به تلويح الى أن المعنى : وما آمن بالله مع نوح الا قليل ، وذلك أنسب بالمقام وهو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق ، والملاك فيه هو الإيمان بالله والخضوع لربوبيته ، وكذا في قوله : « إلا قليل » دون أن يقال : إلا قليل منهم بلوغاً في استقلالهم أن من آمن كان قليلاً في نفسه لا بالقياس الى القوم فقد كانوا في نهاية القلة .

قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » قرىء مجراها بفتح الميم وهو مجرى السفينة وسيرها ، ومجراها بضم الميم وهو إجراء السفينة وسياقها ، ومرساها بضم الميم مصدر ميمي مرادف الإرساء ، والإرساء الإثبات والإيقاف ، قال تعالى : « والجبال أرساها » النازعات : ٣٢ .

وقوله : « وقال اركبوا فيها » معطوف على قوله في الآية السابقة : « جاء أمرنا » أي حتى إذا قال نوح الخ ، وخطابه لأهله وسائر المؤمنين أو لجميع من في السفينة .

وقوله : « بسم الله مجراها ومرساها » تسمية منه عليه السلام يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها فإن في تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور على اسم الله تعالى وربطه به صيانة له من الهلاك والفساد واتقاء من الضلال والخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور والفناء والعمى والعناء اليه فما تعلق به مصون لا محالة من تطرق عارض سوء .

فهو عليه السلام يعلق جري السفينة وإرساءها باسم الله وهذان هما السببان

الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق ، وإنما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهية من ركبها ، وإنما تشمل العناية بشمول المغفرة الإلهية لخطايا ركبها والرحمة الإلهية لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض ، ولذلك علل عليه السلام تسميته بقوله : « إن ربي لغفور رحيم » أي إنما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنه ربي الغفور الرحيم ، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته ورحمته .

ونوح عليه السلام أول إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو عليه السلام أول فاتح فتح هذا الباب كما أنه أول من أقام الحجة على التوحيد ، وأول من جاء بكتاب وشريعة وأول من انتفض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنساني .

وما قدمناه من معنى قوله : « بسم الله مجراها ومرساها » مبني على ما هو الظاهر من كون الجملة تسمية من نوح عليه السلام والمجرى والمرسى مصدرين ميميين وربما احتمل كونه تسمية بمن مع نوح بأمره أو كون مجراها ومرساها اسمين للزمان أو المكان فيختلف المعنى .

قال في الكشف في الآية : يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين : فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله بركبوا حالاً من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها إما لأن المجرى والمرسى للوقت وأما لأنها مصدران كالإجراء والإرساء حذف منها الوقت المضاف كقولهم : خفوق النجم ومقدم الحاج ، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء ، وانتصايها بما في بسم الله من معنى الفعل أو بما فيه من ارادة القول .

والكلامان أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدئ وخبر مقتضية^(١) أي بسم الله اجراؤها وارسائها ، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله

(١) اقتضاب الكلام أو تجاله والمراد من كون الجملة مقتضية كونها ابتدائية أي كونها كلاماً ابتدائياً من نوح مقطوعاً عما قبله .

فجرت ، واذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ، ويجوز أن يقحم ^(١) الاسم كقوله : ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله اجراؤها وارساؤها

قال : وقرىء مجراها ومرساها ^(٢) بفتح الميم من جرى ورسى اما مصدرين او وقتين او مكانين ، وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله .

قوله تعالى : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » الضمير للسفينة ، والموج اسم جنس كتمر او جمع موجة - على ما قيل - وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء وفي الآية اشعار بأن السفينة كانت تسير على الماء ولم تكن تسبح جوف الماء كالحيثان كما قيل .

قوله تعالى : « ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » المعزل اسم مكان من العزل وقد عزل ابنه نفسه عن ابيه والمؤمنين في مكان لا يقرب منهم ، ولذلك قال : « ونادى نوح ابنه » ولم يقل : وقال نوح لابنه . والمعنى : ونادى نوح ابنه وكان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم وقال في ندائه : يا بني - بالتصغير - بالإضافة دلالة على الإشتاق والرحمة - اركب معنا السفينة ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركهم في الصعبة وعدم ركوب السفينة ، ولم يقل ^(٣) : ولا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه وأنه غير مؤمن الا باللفظ ، ولذلك دعاه الى الركوب .

قوله تعالى : « قال ساوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من الله » الخ ، قال الراغب : المأوى مصدر أوى يأوي أوياً ومأوى تقول : أوى الى كذا : انضم اليه يأوي أوياً ومأوى وآواه غيره يؤويه أيواء ، انتهى .

والمعنى : قال ابن نوح مجيباً لأبيه راداً لأمره : سأنضم الى جبل يعصمني

(١) التفعيم إدخال الكلمة بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالضاف والمضاف اليه والمراد كون الاسم معترضاً بين « ثم » و « السلام » وكذا بين الباء ولفظ الجلالة في قوله : بسم الله .

(٢) قراءة مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب الى ابن محيصن .

ويقيني من الماء فلا أغرق ، قال نوح : لا عاصم اليوم - وهو يوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض الا من التجأ منهم الى الله - من الله لا جبل ولا غيره ، وحال بين نوح وابنه الموج فكان ابنه من المغرقين ولو لم يحل الموج بينها ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره وتبرأ منه .

وفي الكلام اشارة الى ان ارضهم كانت ارضاً جبلية لا مؤنة زائدة في صعود الانسان الى بعض جبال كانت هناك .

قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي » وقيل بعداً للقوم الظالمين « البلع اجراء الشيء في الحلق الى الجوف ، والإفلاق الإمساك وترك الشيء من أصله ، والغيض جذب الأرض المانع الرطب من ظاهرها الى باطنها وهو كالنشف يقال : غاضت الأرض الماء اي نقصته .

والجودي مطلق الجبل والأرض الصلبة ، وقيل : هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي الى ارمينية وهي المسماة « آرات » .

وقوله : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي » نداء صادر من ساحة المعظمة والكبرياء لم يصرح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم ، والأمر تكويني تحمله كلمة « كن » الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها ، وأن تكف السماء عن امطارها .

وفيه دلالة على أن الأرض والسماء كانتا مشتركين في اطفاء الماء بأمر الله كما بيّنه قوله تعالى : « ففتحن أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » القمر : ١٢ .

وقوله : « وغيض الماء » اي نقص الماء ونشف عن ظاهر الأرض وانكشف البسيط ، وذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران وتشكيل البحار والبحيرات ، وانتشاف ما على سائر البسيطة .

وقوله : « وقضى الأمر » اي أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم وأنفذ الأمر الإلهي بغرقهم وتطهر الأرض منهم اي كان ما قيل له كن كما قيل

فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم واصداره كذلك يقال على امضائه وانفاذه وتحقيقه في الخارج ، غير أن القضاء الإلهي والحكم الربوبي الذي هو عين الوجود الخارجي جعله وانفاذه واحد ، وإنما الاختلاف بحسب التعبير .

وقوله : « واستوت على الجودي » اي استقرت السفينة على الجبل او على جبل الجودي المعبود ، وهو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح ومن معه من أمر الطوفان .

وقوله : « وقيل بعداً للقوم الظالمين » اي قال الله عزّ اسمه : بعداً للقوم الظالمين اي ليعمدوا بعداً فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته ، والكلام في ترك ذكر فاعل « قيل » هنا كالكلام فيه في « قيل » السابق .

والأمر أيضاً في قوله : « بعداً للقوم الظالمين » كالأمرين السابقين : « يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي » تكويني فهو عين ما أنقذه الله فيهم من الفرق المؤدي الى خزيهم في الدنيا وخسرانهم في الآخرة ، وان كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعي لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهي بالإيمان والعمل ، وكونه جزاء لهم على استكبارهم واستعلائهم على الله عز وجل .

وللصفح عن ذكر الفواعل في قوله : « وقيل يا أرض الخ » وقوله : « وقضي الأمر » وقوله : « وقيل بعداً » الخ ، في الآية وجه آخر مشترك وهو أن هذه الامور العظيمة الهائلة المدهشة ان يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذي لا شريك له في أمره فلا يذهب الوهم الى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر .

ولمثل هذه النكتة حذف فاعل « غيض الماء » وهو الأرض ، وفاعل « استوت على الجودي » وهو السفينة ، ولم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح ، ولا الناجون بأنهم نوح عليه السلام ومن معه في السفينة فإن الآية بلغت في بلاغتها العجيبة من حيث سياق القصة مبلغاً ليس فيه الا سماء تنزل امطارها ، وأرض انفجرت بعيونها وانفجرت بالماء وسفينة تجري في امواجه ، وأمر مقضي ، وقوم ظالمون هم قوم نوح وأمر الهي يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تفيضه الأرض ، ولو استقر شيء واستوى فإنما هي السفينة تستقر على الأرض كما انه لو قيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي

وقيل : بعداً للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه والقوم الظالمون هم المقضي عليهم بالعذاب ، ولو قيل : قضي الأمر فإنما القاضي هو الله سبحانه ، والأمر هو ما وعده نوحاً ونهاه أن يراجعه في ذلك وهو أنهم مغرقون ، ولو قيل للنساء : اقلعي بعد ما قيل للأرض : ابلعي ماءك فإنما يراد اقلعها وامسأكها ماءها .

ففي الآية الكريمة اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز وتوافق لطيف فيما بينها كما أن الآية واقفة على موقف عجيب من بلاغة القرآن المعجزة يبهر العقول ويدهش الأبواب وإن كانت الآيات القرآنية كلها معجزة في بلاغتها .

وقد اهتم بأمرها رجال البلاغة وعلماء البيان فغاصوا لجلي بحرها وأخرجوا ما استطاعوا نيله من لثايلها ، وما هو - وقد اعترفوا بذلك - إلا كغرفة من بحر أو حصاة من بر .

قوله تعالى : « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » دعاء نوح عليه السلام لابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وقد كان آخر عهده به يوم ركب السفينة فوجده في معزل فناداه وأمره بركوب السفينة فلم يأتمر ثم حال بينها الموج فوجد نوح عليه السلام وهو يرى أنه مؤمن بالله من أهله وقد وعده الله بإنجاء أهله .

ولما به من الوجد والحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى : « ونادى نوح ربه » ولم يقل : سأل أو قال أو دعاء ، ورفع الصوت بالإستغاثة من المضطر الذي اشتد به الضر وهاج به الوجد أمر طبيعي . والدعاء اعني نداء نوح عليه السلام ربه في ابنه وإن ذكر في القصة بعد ذكر انجازه غرق القوم وظاهره كون النداء بعد تمام الأمر واستواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال أن يكون النداء بعد حيلولة الموج بينها وعلى هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان إنما هو لمكان العناية ببيان جميع ما في القصة من الهيئة الهائلة في محل واحد لتكميل تمثيل الواقعة ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية .

وقد كان عليه السلام رسولاً أحد الأنبياء أولي العزم عالمًا بالله عارفاً بمقام ربه بصيراً بموقف نفسه في العبودية ، والظرف ظهرت فيه آية الربوبية والقهر الإلهي

أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها ، ونودي من ساحة العظمة والكبرياء على الظالمين بالبعد ، فأخذ نوح عليه السلام يدعو لابنه والظرف هذا الظرف لم يحترق عليه السلام - على ما يقتضيه ادب النبوة - على ان يسأل ما يريد من نجاة ابنه بالتصريح ، بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر ، وابتدر بذكر ما وعده الله من نجاة اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له : « احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » .

وكان أهله - غير امرأته - حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهراً ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السلام مؤمناً لم يدعه البتة الى ركوب السفينة فهو عليه السلام الداعي على الكافرين السائل هلاكهم بقوله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » فقد كان يرى ابنه هذا مؤمناً ولم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينة كفراً أو مؤدياً الى الكفر وانما هي معصية دون الكفر .

ولذلك كله قال عليه السلام : « رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق » فذكر وعد ربه وضم اليه أن ابنه من أهله - على ما في الكلام من دلالة « ربّي » على استرحام ، ودلالة الإضافة في « ابني » على الحجة في قوله : « من أهلي » ودلالة التأكيد بأن ولام الجنس في قوله : « وإن وعدك الحق » على أداء حق الإيمان .

وكانت المثلتان : « إن ابني من أهلي » « وإن وعدك الحق » ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه لكنه عليه السلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدباً في مقام العبودية فلا حكم إلا لله بل سلم الحكم الحق والقضاء الفصل الى الله سبحانه فقال : « وأنت أحكم الحاكمين » .

فالمرنى : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك حق كل الحق ، وإن ذلك يدل على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالفرق ومع ذلك فالحكم الحق اليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ولم يذكر نجاة ابنه ولا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئاً وسيوافيك بيان ذلك .

قوله تعالى : « قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن

ما ليس لك به علم « الخ. بيّن سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله : « إن ابني من أهلي وإن وعدك « الخ ، وهو يستوجب به نجاة ابنه فقال تعالى : « إنه ليس من أهلك » فارتفع بذلك اثر حجته .

والمراد بكونه ليس من اهله — والله اعلم — أنه ليس من اهله الذين وعده الله بنجاتهم لأن المراد بالأهل في قوله : « وأهلك إلا من سبق عليه القول » الأهل الصالحون ، وهو ليس بصالح وإن كان ابنه ومن أهله بمعنى الاختصاص ، ولذلك علل قوله : « انه ليس من اهلك » بقوله : « إنه عمل غير صالح » .

فإن قلت : لازم ذلك ان يكون امرأته الكافرة من اهله لأنها انما خرجت من الحكم بالاستثناء وهي داخلة موضوعاً في قوله : « وأهلك » ويكون ابنه ليس من اهله وخارجاً موضوعاً لا بالاستثناء وهو بعيد .

قلت : المراد بالأهل في قوله : « وأهلك إلا من سبق عليه القول » هم الأهل بمعنى الاختصاص والمستثنى — من سبق عليه القول — غير الصالحين ومصادقه امرأته وابنه هذا ، وأما الأهل الواقع في قوله هذا : « إنه ليس من اهلك » فهم الصالحون من المختصين به عليه السلام طبقاً لما وقع في قوله : « رب ان ابني من أهلي » فإنه عليه السلام لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من أولي الاختصاص وإلا شمل امرأته وبطلت حجته فافهم ذلك .

فهذا هو الظاهر من معنى الآية ، ويؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مما سيأتي في البحث الروائي التالي ان شاء الله .
وذكروا في تفسير الآية معان أخر :

منها : ان المراد أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن ان يكون له أحكام اهله . ونسب الى جماعة من المفسرين . وفيه انه في نفسه معنى لا بأس به إلا انه غير مستفاد من سياق الآية لأن الله سبحانه ينفي عنه الأهلية بالمعنى الذي كان يثبتها له به نوح عليه السلام ولم يكن نوح يريد بأهليته انه مؤمن غير كافر بل انما كان يريد انه اهله بمعنى الاختصاص والصلاح وان كان لازمه الإيمان. اللهم الا ان يرجع الى المعنى المتقدم .

ومنها : أنه لم يكن ابنه على الحقيقة وإنما ولد على فراشه فقال نوح عليه السلام : إنه ابني على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك، ونبيه على خيانة امرأته . وينسب الى الحسن ومجاهد .

وفيه : أنه على ما فيه من نسبة العار والشين الى ساحة الانبياء عليهم السلام، والذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم وينزّه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل ، أنه ليس مما يدل عليه اللفظ بصراحة ولا ظهور فليس في القصة إلا قوله : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » وليس بظاهر فيما تجرّوا عليه وقوله في امرأة نوح : « امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » التحريم : ١٠ وليس إلا ظاهراً في أنها كانتا كافرتين قواليان أعبداه زوجيهما وتسيران اليهم بأسرارهما وتستنجدانهم عليهما .

ومنها : أنه كان ابن امرأته عليه السلام وكان ربيبه لا ابنه من صلبه . وفيه أنه بما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنه لا يلائم قوله في تعليل أنه ليس من أهله : « إنه عمل غير صالح » ولو كان كذلك كان من حق الكلام ان يقال : إنه ابن المرأة .

على ان من المستبعد جداً أن لا يكون نوح عليه السلام عالماً بأنه ربيبه وليس بابنه حق يخاطب ربه بقوله : « إن ابني من أهلي » او يكون عالماً بذلك ويتكلم بالمجاز ويحتج على ربه العلم بالخبر بذلك فينبه أنه ليس ابنه وإنما هو ربيب .

وقوله : « إنه عمل غير صالح » ظاهر السياق أن الضمير لابن نوح عليه السلام فيكون هو العمل غير الصالح ، وعده عملاً غير صالح نوع من المبالغة نحو زيد عدل أي ذو عدل ، وقولها : فإنما هي إقبال وإدبار ، أي ذات إقبال وإدبار .

فالمنعنى : ان ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك ان أنجيهم . ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ : « إنه عمل غير صالح » بالفعل الماضي أي عمل عملاً غير صالح .

وذكر بعضهم : ان الضمير راجع الى سؤال نوح عليه السلام المفهوم من قوله : « رب ان ابني من أهلي » أي ان سؤالك نجاة ابنك عمل غير صالح لأنه سؤال لما ليس لك به علم ولا ينبغي لني ان يخاطب ربه بمثل ذلك .

وهو من اسخف التفسير فإنه معنى لا يلائم شيئاً من الجملتين المكتنفتين به لا قوله : « انه ليس من اهلك » ولا قوله : « فلا تسألني ما ليس لك به علم » وهو ظاهر ، ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله : « انه ليس من اهلك » ويتصل بقول نوح عليه السلام .

على انك عرفت ان قول نوح عليه السلام : « رب إن ابني من اهلي » الخ ، لا يتضمن سؤالاً وإنما كان يسوقه — لو جرى في كلامه — الى السؤال لكن العناية الإلهية حالت بينه وبين السؤال .

وقوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » كأن قول نوح عليه السلام : « رب إن ابني من اهلي وإن وعدك الحق » في مظنة أن يسوقه الى سؤال نجاة ابنه وهو لا يعلم انه ليس من اهله فأخذته العناية الإلهية ، وحال التسديد الغيبي بينه وبين السؤال فأدركه النهي بقوله : « لا تسألن ما ليس لك به علم » بتفريع النهي على ما تقدم أي فإذا ليس من اهلك لكونه عملاً غير صالح وأنت لا سبيل لك الى العلم بذلك فإياك أن تبادر الى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم .

والنهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه عليه السلام لا مستقلاً ولا في ضمن قوله : « رب إن ابني من اهلي » لأن النهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب قبلاً ، وقد قال تعالى : « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم » الحجر : ٨٨ فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حب الدنيا والافتتان بزيفتها وحاشاه عن ذلك .

وإنما يفتقر النهي في صحة تعلقه بفعل ما ان يكون فعلاً اختيارياً يمكن ان يبطل به المكلف ، وما نهى عنه الأنبياء عليهم السلام على هذه الصفة وإن كانوا ذوي عصمة إلهية وتسديد غيبي ، فإن من العصمة والتسديد ان يراقبهم الله سبحانه في اعمالهم وكلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الانسان نبههم على وجه الصواب ويدعوهم الى السداد والتزام طريق العبودية ، قال تعالى : « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » أسرى : ٧٥ فأنبأ تعالى أنه هو الذي ثبته ولم يدعه يقترب من الركون اليهم فضلاً عن نفس الركون .

وقال تعالى : « ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » النساء : ١١٣ .

ومن الدليل على أن النهي - « فلا تسألن » الخ - نهى عما لم يقع بعد قول نوح عليه السلام بعد استماع هذا النهي : « رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » ولو كان سأل شيئاً لقليل : أعوذ بك من سؤالي ذلك ليفيد المصدر المضاف الى المعمول التحقق والإرتكاب .

ومن الدليل أيضاً على أنه عليه السلام لم يسأل ذلك تعقيب قوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » بقوله : « إني اعظك ان تكون من الجاهلين » فإن معناه : إني انصح لك في القول ان لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين ، ولو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنه سأل ما ليس له به علم .

فإن قلت : إنه تعالى قال : « ان تكون من الجاهلين » أي ممن استقرت فيه صفة الجهل ، واستقرارها إنما يكون بالتكرار لا بالمرة والدفعه ، وبذلك يعلم أنه سأل ما سأل وتحقق منه الجهل مرة وإنما وعظه الله تعالى بما وعظ لئلا يعود الى مثله فيتكرر منه ذلك فيدخل في زمرة الجاهلين .

قلت : زنة الفاعل كجاهل لا تدل على الاستقرار والتكرار وإنما تفيد الصفة المشبهة كجهول على ما ذكره ، ويشهد لذلك قوله تعالى في قصة البقرة : « قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » البقرة : ٦٧ ، وقوله في قصة يوسف : « وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » يوسف : ٣٣ وقوله خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » الأنعام : ٣٥ .

وأيضاً لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع مرة لكان الأنسب أن يصرح بالنهي عن العود الى مثله دون النهي عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم - الى ان قال - يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً » النور : ١٧ .

قوله تعالى : « قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » لما تبين لنوح عليه السلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربه إلى السؤال كان سائلاً ما ليس له به علم وكان من الجاهلين وإن عناية الله حالت بينه وبين الهلكة ، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته ورحمته عن ذلك السؤال الخسر فقال : « رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » .

والكلام في الاستعاذة مما لم يقع بعد من الأمور المهلكة والمعاصي الموبقة كالنهي عما لم يقع من الذنوب والآثام وقد تقدم الكلام فيه وقد أمر الله نبيه ﷺ بالاستعاذة من الشيطان وهو معصوم لا سبيل للشيطان إليه ، قال تعالى : « قل أعوذ برب الناس - إلى أن قال - من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس » الناس : ه وقال : « وأعوذ بك رب أن يحضرون » المؤمنون : ٩٨ والوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » الجن : ٢٨ .

وقوله : « وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » كلام صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب .

أما صورة توبته فإن في ذلك رجوعاً إلى ربه تعالى بالاستعاذة ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته أي ستره على الإنسان ما فيه زلته وهلاكته وشمول عنايته لحاله وقد تقدم في أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعم من مخالفة الأمر التشريعي بل كل وبال وأثر سيئ يسوء الإنسان بوجه ، وأن المغفرة أعم من الستر على المعصية المعروفة عند المشرعة بل كل ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله .

وأما حقيقة الشكر فإن العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين وعصمته ببيان وجه الصواب كانت سترأ إلهياً على زلته في طريقه ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله ﷺ : « وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » أي إن لم تعذني من الزلات لخسرت ، ثناء وشكر لصنعه الجميل .

قوله تعالى : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » الخ، السلام هو السلامة أو التحية غير ان ذكر من العذاب في آخر الآية يؤيد كون المراد به في صدرها السلامة من العذاب وكذا تبديل البركة في آخر الآية الى التمتع يدل على ان المراد بالبركات ليس مطلق النعم وأمتعة الحياة بل النعم من حيث تسوق الانسان الى الخير والسعادة والعاقبة الحمودة .

فقوله : « قيل - ولم يذكر القائل وهو الله سبحانه للتعظيم - يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك » معناه - والله أعلم - يا نوح انزل مع سلامة من العذاب - الطوفان - ونعم ذوات بركا . وخيرات نازلة منا عليك ، أو انزل بتحية وبركات نازلة منا عليك .

وقوله : « وعلى أمم ممن معك » معطوف على قوله : « عليك » وتنكير أمم يدل على تبعيضهم لأن من الامم من يذكره تعالى بعد في قوله : « وأمم سمنتهم » . والخطاب أعني قوله تعالى : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك » الى آخر الآية بالنظر الى ظرف صدوره وليس وقتئذ متنفس على وجه الأرض من انسان او حيوان وقد أغرقوا جميعاً ولم يبق منهم إلا جماعة قليلة في السفينة وقد رست واستوت على الجودي ، وقد قضي أن ينزلوا الى الأرض فيمروها ويعيشوا فيها الى حين .

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أهبط آدم عليه السلام من الجنة الى الأرض وقد حكاها الله تعالى في موضع بقوله : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين - الى أن قال - قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ وفي موضع آخر بقوله : « قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » الأعراف : ٢٥ .

وهذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذلك الخطاب الأول موجه الى نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين - وإليهم ينتهي نسل البشر اليوم - متعلق بهم وبين يلحق بهم

من ذرارهم الى يوم القيامة ، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها .

وقد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فمبتر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام والبركات وهم نوح عليه السلام وأمم من معه ، ولطائفة أخرى بالتمتع ، وعقّب التمتع بمس العذاب لهم كما أن كلمتي السلام والبركات لا تخلوان من بشرى الخير والسعادة بالنسبة الى من تعلقتا به .

فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط في هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام وبركات وتمتع موجه الى عامة البشر من حين هبوط أصحاب السفينة الى يوم القيامة ، ووزانه وزان خطاب الهبوط الموجه الى آدم وزوجته عليها السلام ، وفي هذا الخطاب إذن في الحياة الأرضية ووعد لمن أطاع الله سبحانه ووعد لمن عصاه كما أن في ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل .

وظهر بذلك أن المراد بقوله : « وعلى أُمَمٍ مِّن مَّعَكَ » الامم الصالحون من أصحاب السفينة ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين ، والظاهر على هذا أن يكون « من » في قوله « مِّن مَّعَكَ » ابتدائية لا بيائية ، والمعنى وعلى أُمَمٍ مبتدي تكونهم من معك ، وهم أصحاب السفينة والصالحون من نسلهم .

وظاهر هذا المعنى أن يكون أصحاب السفينة كلهم سعداء ناجين ، والاعتبار يساعد ذلك فإنهم قد تحصوا بالبلاء تحصيماً وآثروا ما عند الله من زلفى وقد صدق الله سبحانه إيمانهم مرتين في أثناء القصة حيث قال عز من قائل : « إلا من قد آمن » آية ٣٦ من السورة ، وقال : « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » آية ٤٠ من السورة .

وقوله : « وأُمَمٍ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُم مِّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » كأنه مبتدئ لخبر محذوف والتقدير : « ومن معك أُمَمٍ او وهناك أُمَمٍ سَنَمَتُهُم الخ » وقد أخرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل : « ومتاع لأمم آخرين سيعذبون طرداً لهم من موقف الكرامة » فأخبر أن هناك أُمَمًا آخرين سَنَمَتُهُم ثُمَّ يَمْسُهُم وهم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة وزلفى .

وفي الآية جهات من تعظيم القاتل لا تخفى كالبناء للمفعول في « قتل » وتخصيص نوح

عَلَيْهِمْ سَلَامٌ بِخَطَابِ الْمَبْهُوطِ وَالتَّكَلُّمِ مَعَ الْغَيْرِ فِي قَوْلِهِ : « مَنَا » فِي مَوَاضِعٍ وَ« سَنَمْتَعُهُمْ » وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وظهر أيضاً : أن ما فسروا به قوله : « عَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ » إن معناه : عَلَى أُمَمٍ مِّنْ ذُرِّيَّةٍ مِّنْ مَّعَكَ لَيْسَ عَلَى مَا يَنْبَغِي مَعَ مَا فِيهِ مِّنْ خُرُوجٍ مِّنْ مَّعَهُ مِّنَ الْخُطَابِ وَكَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ : يَعْنِي بِالْأُمَمِ سَائِرَ الْحَيَوَانَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِيهِمُ الْبَرَكَاتِ . وَفَسَادُهُ أَظْهَرَ .

قوله تعالى : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ » أَي هَذِهِ الْقِصَصُ أَوْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ .

وقوله : « مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أَي كَانَتْ وَهِيَ عَلَى مَحْوِضَةِ الصَّدَقِ وَالصَّحَةِ بِجَهْلَةٍ لَكَ وَلِقَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، وَالَّذِي عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهَا مَحَرَّفٌ مَقْلُوبٌ عَنْ وَجْهِ الصَّوَابِ كَمَا سَيُؤَافِيكَ مَا فِي التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ مِنْ قِصَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقوله : « فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » أَمْرٌ مُنْتَزِعٌ عَنْ تَفْصِيلِ الْقِصَّةِ أَي إِذَا عَلِمْتَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنْ هَلَاكِ قَوْمِهِ وَنَجَاتِهِ وَنَجَاةٍ مِّنْ مَّعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ وَرَّثَهُمُ اللَّهُ الْأَرْضَ عَلَى مَا صَبَرُوا ، وَنَصَرَ نُوحًا عَلَى أَعْدَائِهِ عَلَى مَا صَبَرَ فَاصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ، وَهُمْ الصَّابِرُونَ فِي جَنْبِ اللَّهِ سَبْعَانَهُ .

(بَحْثُ رَوَائِي)

في الدر المنثور أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُضْرَبُ ثُمَّ يُلْفَى فِي لَبَدٍ فَيُلْقَى فِي بَيْتِهِ يَرُونَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ثُمَّ يُخْرِجُ فَيَدْعُوهُمْ حَتَّى إِذَا أَيْسَ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِ جَاءَهُ رَجُلٌ وَمَعَهُ ابْنُهُ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا فَقَالَ : يَا بَنِي أَنْظِرْ هَذَا الشَّيْخَ لَا يَغْرُنْكَ قَالَ : يَا أَبْتَ أَمَكْنَسِي مِنَ الْعَصَا ثُمَّ

أخذ العصا ثم قال : ضعني في الأرض فوضعه فحشى اليه فضربه فشجّه موضحة في رأسه وسالت الدماء .

قال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهدم ، وإن يكن غير ذلك فصبرني الى أن تحكم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله اليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن قال : يا نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون يعني لا تحزن عليهم واصنع الفلك . قال : يا رب وما الفلك؟ قال : بيت من خشب يجري على وجه الماء فأغرق أهل معصيتي وأطهر أرضي منهم . قال : يا رب وأين الماء؟ قال : إني على ما أشاء قدير .

وفي الكافي بإسناده عن المفضل قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس فلما انتهينا الى الكناسة قال : ههنا صلب عمي زيد رحمه الله ، ثم مضى حتى انتهى الى طاق الزياتين وهو آخر السراجين فنزل وقال : انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي كان خطبه آدم وأنا أكره أن أدخله راكباً . قلت : فمن غيّره عن خطبه؟ قال : أمّا أول ذلك فالطوفان في زمن نوح ثم غيّره أصحاب كسرى والنعمان ثم غيّره بعد زياد بن أبي سفيان فقلت : وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟ فقال لي : نعم يا مفضل وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات مما يلي غربي الكوفة .

قال : وكان نوح رجلاً نجاراً فجعله الله عز وجل نبياً وانتجبه ، ونوح اول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء . قال : ولبت نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله عز وجل فيهزءون به ويسخرون منه فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال : يا رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فأوحى الله عز وجل الى نوح أن اصنع سفينة وأوسعها وعجل عملها فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده ، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها .

قال المفضل : ثم انقطع حديث ابي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس فقام

ابو عبد الله عليه السلام فصلّى الظهر والعصر ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره وأشار بيده الى موضع دار الدارين وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم فقال : يا مفضل وههنا نصبت أصنام قوم نوح : يغوث ويعوق ونسر . ثم مضى حتى ركب دابته .

فقلت : جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته ؟ قال : في دورين . قلت : وكم الدوران ؟ قال : ثمانين ^(١) سنة . قلت : فإن العامة يقولون عملها في خمس مائة سنة ؟ فقال : كلا . كيف ؟ والله يقول : « ووحينا » قال : قلت : فأخبرني عن قول الله عز وجل : « حتى إذا جاء امرنا وفار التنور » فأين كان موضعه ؟ وكيف كان ؟ فقال : كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبة ميمنة المسجد . قلت له : فأين ذلك ؟ قال : موضع زاوية باب القيل اليوم . ثم قلت له : وكان يدو خروج الماء من ذلك التنور ؟ فقال : نعم إن الله عز وجل أحب أن يري قوم نوح آية ثم إن الله تبارك وتعالى ارسل عليهم المطر فيفيض فيضاً والميون كلهن فيضاً ففرقهم الله وأنجا نوحاً ومن معه في السفينة - الحديث .

أقول : والرواية على طولها غير متعلقة بالتفسير غير أننا أوردناها لتكون كالأمثلة من روايات كثيرة وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة ولتكون عوناً لفهم قصص الآيات من طريق الروايات .

وفي الرواية استفادة التعجيل في صنع السفينة من قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » الآية ، وفي الرواية نسبة زياد الى ابي سفيان ولعل الوارد في لفظ الإمام « زياد » فاضيف اليه « ابن ابي سفيان » في لفظ بعض الرواة .

وفيه بإسناده عن ابي رزين الاسدي عن امير المؤمنين عليه السلام قال : إن نوحاً عليه السلام لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه أن يغور التنور ففار التنور في بيت امرأة فقالت : إن التنور قد فار فقام اليه فختمه فقام الماء وأدخل من اراد أن يدخل وأخرج من اراد أن يخرج ثم جاء الى

خاتمه فنزعه ، يقول الله عز وجل : ففتحننا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر .

قال : وكان نجره في وسط مسجدكم . ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع .

أقول : وكون فوران التنور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدة من روايات الخاصة والعامة وسياق الآية : « فلما جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل » الآية ، لا يخلو من ظهور في كونه ميعاداً .

وفيه بإسناده عن اسماعيل الجعفي عن ابي جعفر عليه السلام قال : كان شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ الله ميثاقه على نوح والنبیین أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً وأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام ، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرائض موارث فهذه شريعته . فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم سرّاً وعلانية فلما أبوا وعتوا قال : « رب إني مغلوب فانتصر » فأوحى الله عز وجل إليه : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » فذلك قول نوح : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » فأوحى الله إليه : أن اصنع الفلك .

أقول : ورواه المياشي عن الجعفي مرسلًا وظاهر الرواية أن له عليه السلام دعاء من على قومه أحدهما وهو أولها قوله : « رب إني مغلوب فانتصر » الواقع في سورة القمر ، وثانيها بعدما أياسه الله من إيمان قومه وهو قوله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » الواقع في سورة نوح .

وفي معاني الأخبار بإسناده عن حمران عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل « وما آمن معه إلا قليل » قال : كانوا ثمانية .

أقول : ورواه المياشي أيضاً عن حمران عنه عليه السلام ، وللناس في عددهم أقوال أخرى : ستة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها . وفي العمون بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال : قال الرضا عليه السلام

لما هبط نوح الى الارض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً فبنى حيث نزل قرية
فماها قرية الثمانين .

أقول: ولا تنافي بين الروایتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح عليه السلام
وقد عمر ما يقرب من الف سنة يومئذ .

وفيه بإسناده عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا عليه السلام قال : سمعته يقول:
قال أبي : قال ابو عبدالله عليه السلام : إن الله عز وجل قال لنوح : « إنه ليس من
أهلك » لأنه كان مخالفاً له ، وجعل من اتبعه من أهله .

قال : وسألني كيف يقرؤون هذه الآية في ابن نوح ؟ فقلت : يقرؤها الناس
على وجهين : إنه عمل غير صالح ، وإنه عمل غير صالح . فقال : كذبوا هو ابنه
ولكن الله نجاه عنه حين خالفه في دينه .

أقول : ولعله عليه السلام يشير بقوله : « وجعل من اتبعه من أهله » الى قوله تعالى
« فنجيناه وأهله من الكرب العظيم » الأنبياء : ٧٦ . فإن الظاهر أن المراد بأهله
جميع من نجا معه .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

وكان المراد من قراءة الآية تفسيرها والراوي يشير بإيراد القراءتين الى تفسير
من فسر الآية بأن المراد أن امرأة نوح حملت الإبن من غيره فألحقه بفراشه ولذلك
قرأ بعضهم : « ونادى نوح ابنها » او « ونادى نوح ابنه » بفتح الها مخفف ابنها
ونسبوا القراءتين الى علي وبعض الأئمة من ولده عليهم السلام .

قال في الكشف : وقرأ علي رضي الله عنه « ابنها » والضمير لامراته ، وقرأ
محمد بن علي وعروة بن الزبير « ابنه » بفتح الها يريدان « ابنها » فإكتفيا بالفتحة
عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن قال قتادة : سأله فقال : والله ما كان ابنه
فقلت : إن الله حكى عنه « إن ابني من أهلي » وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل
الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه ! فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ؟ واستدل
بقوله من أهلي ولم يقل : مني . انتهى .

واستدلالة بما استدل به سخييف فإن الله وعده بنجاة أهله ولم يعده بنجاة من

كان منه حق يضطر الى قول : إن ابني مني عند سؤال نجاته ، وقد تقدم بيان أن لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه .

وما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراة ساكنة عن قصة ابن نوح هذا الغريب .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه قرأ : « ونادى نوح ابنها » .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله : « ونادى نوح ابنه » قال هي بلغة طيء لم يكن ابنه وكان ابن امرأته .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن موسى عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « ونادى نوح ابنه » قال ليس بابنه إنما هو ابن امرأته وهي لغة طيء يقولون لابن امرأته : ابنه . الحديث .

وفيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول نوح : « يا بني اركب معنا » قال : ليس بابنه . قال : قلت : إن نوحاً قال : يا بني ؟ قال : فإن نوحاً قال ذلك وهو لا يعلم .

أقول : والمعتمد ما تقدم من رواية الوشاء عن الرضا عليه السلام .

وفيه عن إبراهيم بن أبي العلاء عن أحدهما عليها السلام قال : لما قال الله : « يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » قالت الأرض : إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط ، ولم أؤمر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها وبقي ماء السماء فصيرت بحراً حول الدنيا .

وفيه عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث ذكر فيه الجودي قال : وهو جبل بالموصل .

وفيه عن الفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام « استوت على الجودي » هو

فرات الكوفة .

أقول : ويؤيد الرواية السابقة روايات أخر .

وفيه عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما ركب نوح عليه السلام في السفينة قيل : بعداً للقوم الظالمين .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قيل يا أرض ابلعي ماءك » الآية ، قال : ويرى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فمكفوا على لباب البر والحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبه شيء من الكلام ، ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا .

أبحاث حول قصة نوح في فصول

وهي أبحاث قرآنية وروائية وتاريخية وفلسفية

١ - الإشارة الى قصته : ذكر اسمه عليه السلام في القرآن في بضع وأربعين موضعاً يشار فيها الى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً ، ولم تستوف قصته عليه السلام في شيء منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخي بذكر نسبه وبيته ومولده ومسكنه ونشأته وشغله وعمره ووفاته ومدفنه وسائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتصر تواريخ الناس من بر أو فاجر .

وإنما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سعادتهم ، ويبين لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والآخرة ، وربما أشار الى طرف من قصص الأنبياء والامم لتظهر به سنة الله في عباده ، ويعتبر به من شملته العناية ووفى للكرامة ، وتم به الحجة على الباقيين .

وقد فصلت قصة نوح عليه السلام في ست من السور القرآنية وهي سورة الأعراف وسورة هود ، وسورة المؤمنون ، وسورة الشعراء ، وسورة القمر ، وسورة نوح

وأكثرها تفصيلاً سورة هود التي ذكرت قصته ﷺ فيها في خمس وعشرين آية (٢٥ - ٤٩) .

٢ - قصته عليه السلام في القرآن .

بعثه وأرساله :

كان الناس بعد آدم ﷺ يعيشون أمة واحدة على بساطة وسذاجة ، وهم على الفطرة الانسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل الى استعلاء البعض على البعض تدريجياً واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً وهذه هي النواة الأصلية التي لو نشأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف ، واسترقاق العزيز واستدراجه للذليل ، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس .

فشاع في زمن نوح ﷺ الفساد في الأرض ، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي وأقبلوا على عبادة الأصنام ، وقد سمى الله سبحانه منها ودّاً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً (سورة نوح) .

وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهووا أنفسهم (الأعراف هود - نوح) .

فبعث الله نوحاً ﷺ وأرسله اليهم بالكتاب والشرعة يدعومهم الى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم (البقرة آية ٢١٣) بالتبشير والإنذار .

دينه وشريعته عليه السلام :

كان ﷺ يدعومهم الى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء (كما يظهر من جميع قصصه القرآنية) والاسلام لله (كما يظهر من سورتي نوح ويونس وسورة آل عمران آية ١٩) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كما يظهر من سورة هود آية ٢٧) والصلاة (كما يظهر من آية ١٠٣ من سورة النساء وآية ٨ من سورة الشورى)

والمساواة والعدالة وأن لا يقربوا الفواحش والمتكرات وصدق الحديث والوفاء بالعهد (سورة الأنعام آية ١٥١ - ١٥٢) وهو عليه السلام أول من محكي عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة (سورة هود آية ٤١) .

اجتهاده عليه السلام في دعوته :

وكان عليه السلام يدعو قومه الى الايمان بالله وآياته ، ويبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم الى الحق ليلاً ونهاراً وإعلاناً وإسراراً فلا يجيبونه إلا بالعناد والاستكبار وكلما زاد في دعائهم زادوا في عتوتهم وكفرهم ، ولم يؤمن به غير أهله وعدة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم وشكا ذلك الى ربه وطلب منه النصر (سورة نوح والقمر والمؤمنون) .

لبثه في قومه :

لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزاء والسخرية ورميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه (سورة النكبات) فأوحى اليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وعزاه فيهم (سورة هود) فدعا عليهم بالتبار والهلاك ، وأن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم (سورة نوح) فأوحى الله اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (سورة هود) .

صنعه عليه السلام الفلك :

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرّون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرّون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء ، ويقول عليه السلام : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علماً وهو ان يفر الماء من التنور (سورة هود والمؤمنون) .

نزول العذاب وجمي الطوفان :

حتى اذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله تعالى اليه ان يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل اهله إلا من سبق عليه القول الإلهي بالفرق وهو امرأته الحائنة وابنسه الذي تخلف عن ركوب السفينة ، وأن يحمل الذين آمنوا (سورة هود والمؤمنون) فلما حملهم وركبوا جميعاً فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون وقد امره الله تعالى اذا استوى هو ومن معه على الفلك ان يحمدا الله على ما نجاه من القوم الظالمين وان يسأله البركة في نزوله فيقول : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، ويقول : رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين .

قضاء الأمر ونزوله ومن معه الى الأرض :

فلما عمّ الطوفان وأغرق الناس (كما يظهر من سورة الصافات آية ٧٧) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها والسماء أن تطلع وغيض الماء واستوت السفينة على جبل الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ، وأوحى الى نوح عليه السلام أن اهبط الى الأرض بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام ، ومنهم أمم سيمتعهم الله بامتعة الحياة ثم يمستهم عذاب أليم فخرج هو ومن معه ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام ، وقوارث ذريته عليه السلام الأرض وجعل الله ذريته هم الباقيين (سورة هود والصافات) .

قصة ابن نوح الغريق :

كان نوح عليه السلام عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه ، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه أبوه وهو في معزل فناداه : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فردّ على أبيه قائلاً : سأوي الى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام : لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم - يريد أهل

السفينة - فلم يلتفت الابن الى قوله وحال بينها الموج فكان من المفرقين .

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » الدعاء نوح : ٢٧ وهو القائل : « فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين » الشعراء : ١١٨ وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى اليه : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفرقون » هود : ٣٧ .

فوجد نوح عليه السلام وحزن فنادى ربه من وجده قائلاً : رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلي وأنت احكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك ، فما الذي جرى على ابني ؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرّح بالسؤال في نجاة ابنه - وهو سؤال لما ليس له به علم - وأوحى الله اليه : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إني اعظك أن تكون من الجاهلين .

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ الى ربه تعالى قائلاً رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم أسألك أن تشملي بمعنايتك وتستر عليّ بمفرتك ، وتعطف عليّ برحمتك ، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين .

٣ - خصائص نوح عليه السلام : هو عليه السلام اول اولي العزم سادة الأنبياء أرسله الله الى عامة البشر بكتاب وشريعة فكتابه اول الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله ، وشريعته اول الشرائع الإلهية .

وهو عليه السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من الانسان اليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » الصافات : ٧٧ وهو عليه السلام ابو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام قال تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين » الصافات : ٧٨ .

وهو عليه السلام اول من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشريعة وكلم الناس

ينطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً الى طريق الوحي فهو الأصل الذي ينتهي اليه دين التوحيد في العالم فله المنة على جميع الموحدين الى يوم القيامة ، ولذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل : « سلام على نوح في العالمين » الصافات : ٧٩ .

وقد اصطفاه الله على العالمين (آل عمران آية ٣٣) وعده من المحسنين (الأنعام ٨٤ الصافات ٨٠) وسماه عبداً شكوراً (أسرى آية ٣) وعده من عباده المؤمنين (الصافات ٨١) وسماه عبداً صالحاً (التحريم ١٠) .

وآخر ما نقل من دعائه قوله : « رب اغفر لي ولوالدي » ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً » نوح : ٢٨ .

٤ - قصته عليه السلام في التوراة الحاضرة : وحدث ^(١) لما ابتدأ الناس يكثررون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . فقال الرب لا يدين روعي في الانسان الى الأبد . لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر في الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شر . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض . وتأسف في قلبه . فقال الرب : أحمو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأنني حزنت أني عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب .

هذه مواليد نوح . كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله - وسار نوح مع الله . وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافت . وفسدت الأرض أمام الله وامتلات الأرض ظلاماً . ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي . لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم .
 فيها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر ، تجعل الفلك
 مساكن . وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه . ثلاث مائة ذراع
 يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كواً
 للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق . وتضع باب الفلك في جانبه . مساكن
 سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله . فيها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لاهلك كل جسد
 فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك .
 فتدخل الفلك انت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل
 ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكر او انثى .
 من الطيور كأجناسها . ومن البهائم كأجناسها . ومن كل دبابات الأرض كأجناسها .
 اثنين من كل تدخل اليك لاستبقائها . وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل
 واجمه عندك . فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله .
 هكذا فعل .

وقال^(١) الرب لنوح : ادخل أنت وجميع بنيك الى الفلك . لأنني إياك رأيت
 براً لدي في هذا الجيل . من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً
 وانثى . ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكر وانثى . ومن طيور السماء ايضاً
 سبعة سبعة ذكراً وانثى . لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض . لأنني بعد سبعة ايام
 ايضاً أمطر على الأرض اربعين يوماً وأربعين ليلة . وأمحو عن وجه الأرض كل قائم
 عملته . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب .

ولما كان نوح ابن ستائة سنة صار طوفان الماء على الأرض . فدخل نوح وبنوه
 وامراته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن البهائم الطاهرة
 والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض . دخل اثنان
 اثنان الى نوح الى الفلك ذكر وانثى . كما أمر الله نوحاً .

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء . وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافت بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء ينيه معهم الى الفلك . هم وكل الوحوش كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح . ودخل الى نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله . وأغلق الرب عليه .

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض . وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه . وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشاخنة التي تحت كل السماء . خمسة عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه فتغطت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يسدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات . ففحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فامتعت من الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاضمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً .

ثم ^(١) ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرارات . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً الى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وأحدث من بعد أربعين يوماً ان نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها . وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت اليه الى الفلك لأن مياهها كانت على وجه كل الأرض فمد يده وأخذها وأدخلها عنده الى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأنت اليه الحمامة عند المساء واذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح ان المياه قد قلت عن الأرض . فلبث أيضاً سبعة أيام آخر فأرسل الحمامة فلم يعد يرجع اليه ايضاً .

وكان في السنة الواحدة والستائة في الشهر الاول في اول الشهر ان المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فاذا وجه الارض قد نشف . وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الارض .

وكلّم الله نوحاً قائلاً : اخرج من الفلك انت وامراتك وبنوك ونساء بفيك معك . وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الارض أخرجها معك ولتتوالد في الارض وتثمر وتكثر على الارض . فخرج نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه ، وكل الحيوانات وكل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك .

وبنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه : لا اعود ألعن الأرض ايضاً من اجل الانسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حدائته ولا اعود ايضاً أميت كل حي كما فعلت . مدة كل ايام الأرض زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا يزال .

وبارك الله (١) نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض ولتكن خشبتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت الى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاماً

(١) الاصحاح التاسع من سفر التكوين .

كالمشب الأخضر دفعت اليكم الجميع . غير أن لما يجنبه دمه لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان من يد الانسان أخيه . سافك دم الانسان بالانسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الانسان . فاثمروا أنتم واكثروا وقوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها .

وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً . وهما أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم . ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض . أقيم ميثاقي معكم فلا ينقض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الى أجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب . أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا يكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد . فمضى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض . وقال الله لنوح : هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمه بيني وبين كل ذي جسد على الأرض .

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافت وحام هو ابو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض .

وابتداً نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً . وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام ابو كنعان عورة ابيه وأخبر أخويه خارجاً . فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى وراء وسترا عورة ابيهما ووجهاهما الى وراء فلم يبصرا عورة أبيهما .

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته . وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافت فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثاً و خمسين سنة . فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات . انتهى ما قصدنا إيرادہ .

وهو - كما ترى - يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه :

منها : أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح بل صرح بدخولها الفلك ونجاتها مع بعلها ، وقد اعتذر عنه بعض : أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما ونجت الأخرى .

ومنها : أنه لم يذكر فيه ابن نوح الفريق وقد قصه القرآن .

ومنها : أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله بل اقتصر عليه وعلى بنيه وامراته ونساء بنيه .

ومنها : أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة ، وظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التي لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان . قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » العنكبوت : ١٤

ومنها : ما ذكر فيه من حديث قوس قزح وقصة إرسال الغراب والحمام للاستخبار وخصوصيات السفينة من عرضها وطولها وارتفاعها وطبقاتها الثلاث ومدة الطوفان وارتفاع الماء وغير ذلك فهي خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس ، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصعابة والتابعين ، وأكثرها بالإسرائيليات أشبه .

هـ - ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الأمم وأساطيرهم : قال صاحب المنار في تفسيره : قد ورد في تواريخ الأمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلاً ومنها المخالف له إلا قليلاً .

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين ، وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم

فقد نقل عنهم « برهوشع » و « يوسفوس » أن « زيزستروس » رأى في الحلم بعد موت والده « أوتيرت » أن المياه ستطغى وتغرق جميع البشر ، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل . وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبّارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان .

وقد عثر بعض الانجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسماة في عصر آشور بانيبال من نحو ستمائة وستين سنة قبل ميلاد المسيح ، وأنها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين .

وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده افلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون — الحكيم اليوناني — أن السماء أرسلت طوفاناً غير وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم .

وأورد « مانيتون » خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول ، وهذا أقدم من تاريخ التوراة ايضاً ، وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عمّ الأرض كلها إلا « دو كاليون » وامراته « بير » فقد نجوا منه .

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشر ، وقالوا : إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور المعجوز (زول كوفه) إذ كانت تحبز خبزها فيه ، ولكن الجحوش أنكروا عموم الطوفان وقالوا : إنه كان خاصاً بإقليم العراق وانتهى الى حدود كردستان .

وكذا قدماء الهنود يشبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخرها ان ملكهم نجا هو وامراته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إله فشنو وسدها بالدر حتى استوت على جبل جياقات — هملايا — ولكن البراهمة كالجحوش ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها ، وروي تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرها ، وكل هذه الروايات تتفق في أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم . انتهى .

وقد^(١) وقع في « أوستا » وهو كتاب المجوس المقدس أن « أهورامزدا » أوحى الى « إيمّا » (وتعتقد المجوس أنه جمشيد الملك) أنه سيقع طوفان يفرق الارض ، وأمره أن يبني حائطاً مرتفعاً غايته يحفظ من في داخله من الفرق ، وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل ، ويدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين ، ويبني في داخل السور بيوتاً وقباباً في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوي اليها الدواب والطيور ، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الأشجار المثمرة ، ويحرق ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها .

وفي تاريخ الأدب الهندي^(٢) في قصة الطوفان : أنه بينما كان « مانو » (هو ابن الإله عند الوثنيين) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ، وبما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت انقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ « مانو » في المستقبل من خطر عظيم ، والخطر العظيم المهدق الذي أنبأت به السمكة كان طوفاناً سيجرف جميع المخلوقات ، وعلى ذلك حفظ « مانو » السمكة في المرتبان .

فلما كبرت أخبرت « مانو » عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة : أنا أنقذك من الطوفان ، فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر .

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة ، وحين دخل « مانو » السفينة عامت السمكة اليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها الى الجبال الشمالية ، وهنا ربط مانو السفينة بشجرة ، وعندما تراجع الماء وجف بقي مانو وحده . انتهى .

٦ - هل كانت نبوته عليه السلام عامة للبشر ؟ مسألة اختلفت فيها آراء العلماء . فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته ، وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم

(١) ترجمة كتاب أوستا بالفرنسية المطبوعة بباريس .

(٢) على ما في قصص الأنبياء لمبد الوهاب النجار .

السلام ما يدل عليه ، وعلى أن اولي العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وعليهم) كانوا مبعوثين الى الناس كافة .

وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً الى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الارض كلهم كقوله : « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً » نوح : ٢٦ وقوله : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » هود : ٤٣ ، وقوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » الصافات ٧٧ ، وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله الى أهل الارض ولازمه كونه مبعوثاً اليهم كافة .

ومنهم من انكر ذلك مستنداً الى ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ : « وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة ويبعث الى الناس كافة » وأجابوا عن الآيات انها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالارض هي التي كانوا يسكنونها وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون : « وتكون لكما الكبرياء في الارض » يونس : ٧٨ .

فمعنى الآية الاولى : لا تذر على هذه الارض من كافري قومي دياراً ، وكذا المراد بالثانية : لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله ، والمراد بالثالثة : وجعلنا ذريته هم الباقين من قومه .

والحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم ، والذي ينبغي أن يقال : ان النبوة إنما ظهرت في المجتمع الانساني عن حاجة واقعية اليها ورابطة حقيقية بين الناس وبين ربهم وهي تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع وهدايتها الى غاياتها الوجودية ، وقد قال تعالى : « الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ ، وقال : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ .

فكل نوع من أنواع الكون متوجه منذ أول تكوينه الى كمال وجوده وغاية خلقه الذي فيه خيره وسعادته ، والنوع الانساني أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير اليها ويتوجه نحوها أفراداً فرادى ومجتمعين .

ومن الضروري عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده. لوفور حوائجه الحيوية وكثرة الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملي الذي يبعثه الى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منفعه يبعثه الى الانتفاع بأعمال غيره من بني نوعه .

غير أن الأفراد أمثال وفي كل واحد منهم من العقل العملي والشعور الخاص الإنساني ما في الآخر ويبعثه من الانتفاع الى مثل ما يبعث اليه الآخر ما عنده من العقل العملي ، واضطروهم ذلك الى الاجتماع التعاوني بأن يعمل الكل للكل وينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كلٌ لغيره بمقدار ما يسخره كما قال تعالى: « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » الزخرف : ٣٢ .

وهذا الذي ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاوني اضطراري له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوة الرقباء فهو في الحقيقة مدني تعاوني بالطبع الثاني وإلا فطبعه الأولي أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه ، ولذلك مها قوي الإنسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه وأخذ يسرق الناس ويستثمر من غير عوض قال تعالى : « إن الإنسان لظلوم كفار » إبراهيم : ٣٤ وقال : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن الى ربك الرجعى » العلق : ٨ .

ومن الضروري أن الاجتماع التعاوني بين الأفراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها وحفاظ تقوم بها ، وهذا بما استمرت سيرة النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملاً كان أو ناقصاً ، رافياً كان أو منقطعاً إلا ويحري فيه رسوم وسنن جريئاً كلياً أو أكثرياً ، والتاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقاً كلياً أو أكثرياً في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظناً فهي أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه ، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدي الإنسان الى غاية وجوده فافهم ذلك .

وقد علم أن من الواجب في رعاية الله أن يهدي الإنسان الى سعادة حياته وكال

وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة الى ما فيه خيره وسعادته وهو الذي يبعثها اليه نظام الكون والجهازات التي جهز بها الى أن يشعر : « فيه نفعه » ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها » الشمس : ١٠ .

يهديه بواجب عنايته الى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كاله وسعادته فإن العناية الإلهية بتشكيل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة .

ولا يكفي في ذلك ما جهّز به الإنسان من العقل — وهو ههنا العملي منه — فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو الى الاختلاف ، ومن المحال أن يفعل شيء من القوى الفعالة فعلمين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين ، على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عتلاء متمنون بمتاع العقل مجهزون به .

فظهر أن هناك طريقاً آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال والسعادة غير طريق التفكير والتعقل وهو طريق الوحي ، وهو نوع تكليم إلهي يعلم الإنسان ما يفوز بالعمل به والاعتقاد له في حياته الدنيوية والاخرية .

فإن قلت : الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لآتى به فإن العالم الانساني لم يخضع لشرائع الانبياء كما لم يصغ الى نداء العقل ، ولم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الانساني ويركّبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه ؟

قلت : لهذا البحث جهتان : جهة أن العناية الإلهية من واجبه ان تهدي المجتمع الانساني الى تعاليم تسعده وتكمله لو عمل بها وهي الهداية بالوحي ولا يكفي فيها العقل ، وجهة ان الواقع في الخارج والمتحقق بالفعل ما هو ؟ وانما نبحت في المقام من الجهة الاولى دون الثانية ، ولا يضر بها ان هذه الطريقة لم تجر بين الناس الى هذه الغاية إلا قليلا . وذلك كما ان العناية الإلهية تهدي انواع النبات والحيوان الى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط اكثر افراد كل نوع دون الوصول

الى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ الى عمره الطبيعي .

وبالجملة فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر الى العناية الإلهية وإلا لم تتم الحجة بمجرد العقل لأن له شغلا غير الشغل وهو دعوة الإنسان الى ما فيه صلاح نفسه ، ولو دعاه الى شيء من صلاح النوع فلأنما يدعوه اليه بما فيه صلاح نفسه فأفهم ذلك وأحسن التدبر في قوله تعالى : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، النساء : ١٦٥ .

فمن الواجب في العناية أن ينزل الله على المجتمع الإنساني ديناً يدينون به وشرعية يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون أن يخص بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية بهم ، ولأزمه الضروري أن يكون أول شريعة نزلت عليهم شريعة عامة .

وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عز من قائل : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، البقرة : ٢١٣ ، فبيّن أن الناس كانوا أول ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الانبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، ويحسم مادة الخصومة والنزاع .

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد ﷺ : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، الشورى : ١٣ . ومقام الامتنان يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير ، وأول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح ، ولو لم يكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنه ﷺ لكان هناك إما نبي آخر ذو شريعة اخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى ، وإما إهمال سائر الناس غير

قومه ﷺ في زمنه وبعده الى حين .

فقد بان أن نبوة نوح ﷺ كانت عامة ، وأن له كتاباً وهو المشتمل على شريعته الراقعة للاختلاف ، وأن كتابه اول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ، وأن قوله تعالى في الآية السابقة « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » هو كتابه او كتابه وكتاب غيره من أولي العزم : ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ .

وظهر ايضاً ان ما يدل من الروايات على عدم عموم دعوتهم ﷺ مخالف للكتاب وفي حديث الرضا ﷺ ان اولي العزم من الانبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً او غير نبى ، وقد تقدم الحديث في ذيل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » البقرة ٢١٣ ، في الجزء الثاني من الكتاب .

٧ - هل الطوفان كانت عامة لجميع الارض ؟ تبين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوتهم ﷺ يقضي بعموم العذاب ، وهو نعم القرينة على أن المراد بسائر الآيات الدالة بظاهاها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح ﷺ : « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً » نوح : ٢٦ ، وقوله حكاية عنه : « لا عاصم اليوم من امر الله إلا من رحم » هود : ٤٣ ، وقوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » الصافات : ٧٧ .

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق - كما قيل - لم يكن اي حاجة الى ان يحمل في السفينة من كل جنس من اجناس الحيوان زوجين اثنين . وهو ظاهر .

واختار بعضهم كون الطوفان خاصاً بأرض قوم نوح ﷺ قال صاحب المنار في تفسيره : أما قوله في نوح ﷺ بعد ذكر تنجيته وأهله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » فالخصر فيهم يجوز أن يكون إضافياً اي الباقين دون غيرهم من قومه ، وأما

قوله : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » فليس نصاً في أن المراد بالأرض هذه الكرة كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون : « وتكون لكما الكبرياء في الأرض » يعني أرض مصر ، وقوله : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها » فالمراد بها مكة ، وقوله : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين » والمراد بها الأرض التي كانت وطنهم ، والشواهد عليه كثيرة .

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وانهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريته ، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبلها لا في الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإن علماء التكوين وطبقات الأرض - الجيولوجية - يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج .

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أننا نجد بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال وهذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر فظهورها في رؤس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض هذا .

ورد عليه بأن وجود الأصداف والحوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة في المساء كما قلنا آنفاً فإن صعود الماء إلى الجبال أياماً معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها .

ثم قال ما ملخصه : إن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعي فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ولا نتخذة بحجة دينية قطعية فإن أثبت علم الجيولوجية خلافه لا بضررنا لأنه لا ينقض نصاً

قطعيًا عندنا . انتهى .

أقول : أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل ، وأما قوله في ردّ قولهم بوجود الاصداف والاسماك في قلل الجبال : إن صعود الماء اليها في أيام معدودة لا يكفي في حدوثها ! ففيه أن من الجائز ان تحملها امواج الطوفان العظيمة اليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشاخنة في أيام معدودة غير عزيز .

وبعد ذلك كله قد فاته ما ينصّ عليه الآيات أنه ~~عندنا~~ أمر ان يحمل من كل جنس من اجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في ان الطوفان عمّ البقاع اليابسة من الارض جميعاً او معظمها الذي هو بمنزلة الجميع .

فالحق ان ظاهر القرآن الكريم - ظهوراً لا ينكر - ان الطوفان كان عاماً للأرض، وان من كان عليها من البشر أغرقوا جميعاً، ولم يبق لهذا الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور .

وقد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم استاذ الجيولوجيا بكلية طهران ان يفيدني بما يرشد اليه الابحاث الجيولوجية في امر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلي فأجابني بإيفاد مقال محصّله ما يأتي مفصلاً في فصول :

١ - الأراضي الرسوبية : تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الارضية التي كوّنتها رسوبات المياه الجارية على سطح الارض كالبطائح والمسيلات التي غطتها الرمال ودقاق الحصى .

نعرف الأراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدوّرة فإنها كانت في الاصل قطعاً من الحجارة حادة الاطراف والزوايا حولتها الى هذه الحالة الاصطكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إن الماء حملها وبسطها على الارض في غايات قريبة او بعيدة بالرسوب .

وليست تنحصر الأراضي الرسوبية في البطائح فغالب الأراضي الترابية من

هذا القبيل تخالطها او تكونها رمال بالغة في الدقة ، وقد حملها لدقتها وخفتها اليها جريان المياه والسيول .

نجد الاراضي الرسوبية وقد غطتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم ، وذلك - أولاً - اشارة ان تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه و - ثانياً - ان مسير المياه والسيول او شدة جريانها قد تغير بحسب اختلاف الأزمنة .

ويتضح بذلك ان الأراضي الرسوبية كانت مجاري ومسايل في الازمنة السابقة لمياه وسيول هامة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك .

وهذه الأراضي التي تحكي عن جريان مياه كثيرة جداً وسيلان سيول هائلة عظيمة توجد في اغلب مناطق الأرض منها اغلب نقاط إيران كأراضي طهران وقزوین وسمنان وسبزوار ويزد وتبريز وكرمان وشيراز وغيرها ، ومنها مركز بين النهرين وجنوبه ، وما وراء النهر ، وصحراء الشام ، والهند ، وجنوب فرنسا ، وشرقي الصين ، ومصر ، وأكثر قطعات أمريكا ، وتبلغ ضخامة الطبقة الرسوبية في بعض الاماكن الى مئات الامتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربع مائة متراً .

وينتج مما مر أولاً : أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد (على ما سيأتي توضيحه) كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربما غطت معظم بقاعها .

وثانياً : أن الطغيان والطوفان - بالنظر الى ضخامة القشر الرسوبي في بعض الأماكن - لم يحدث مرة واحدة ولا في سنة او سنين معدودة بل دام او تكرر في مئات من السنين كلما حدث مرة كوتن طبقة رسوبية ثم اذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم اذا عاد كون أخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقة رمالها وعدمها يدل على اختلاف السيلان بالشدة والضعف .

٢ - الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية : ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوباً افقياً ولكن ربما وقعت اجزاؤها المتراكمة تحت ضغوطات جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن تحت فتخرج بذلك

تدريجاً عن الافقية الى التدوير والالتواء، وهذا غير ظاهر الأثر في الأزمنة القصيرة المحدودة لكن اذا تبادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر وتكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلاها في بعض وترتفع بقللها من سطوح البحار .

ويستنتج من ذلك ان الطبقات الرسوبية والقشور الافقية الباقية على حالها من احدث الطبقات المتكونة على البسيط، والدلائل الفنية الموجودة تدل على ان عمرها لا يتجاوز عشرة آلاف الى خمس عشرة ألف سنة من زماننا هذا (١) .

٣ - انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه اليها . كان تكون القشور الرسوبية الجديدة عاملاً في انبساط أكثر بحار الكرة واتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها وغطت أكثر سواحلها، وعملت جزائري السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها.

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا وانفصلت من أوروبا بالكلية ، وكانت أوروبا من ناحية جنوبها وإفريقيا من ناحية شمالها مرتبطين برابط برّي الى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط (مديترانه) وتكون بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي وجزائر صقلية وسردينيا وغيرها وكانت جزائر أندونيسيا من ناحية جاوا وسوماترا الى جنوبي جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي الى هذا الحين فانفصلت وتحولت الى صورتها الفعلية ، وكذا انقطاع أمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوروبا احد الآثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان .

وللحركات والتحويلات الأرضية الداخلية آثار قوية في سير هذه المياه واستقرارها في البقاع الخافضة المنحدرة ولذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستولياً على أكثر البسيط يكون بحيرات

(١) ويستثنى من ذلك بعض ما في أطراف بالتيك وسائر المناطق الشمالية من طبقات رسوبية افقية باقية على حالها من أقدم العهود الجيولوجية لجهات مذكورة في محلها .

ويوسع بخاراً، ومن هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج^(١).

٤ - العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان. الشواهد الجيولوجية التي أشرنا الى بعضها تؤيد أن النزولات الجوية كانت غير عادية في اوائل الدور الحاضر من ادوار الحياة الإنسانية وهو عهد الطوفان ، وقد كان ذلك عن تغيرات جوية هامة خارقة للعادة قطعاً . فكان الهواء حاراً في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقاً ببرد شديد وقد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج والحمد والجليد فمن المحتمل قوياً ان المتراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقياً لم يذب بعد في النجود في اكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية .

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد والجليد يوجب تغيراً شديداً في الجو وانقلاباً عظيماً مؤثراً في ارتفاع بخار الماء إليه وتراكمه فيه تراكمًا هائلاً غير عادي وتعمقه نزولات شديدة وأمطار غزيرة غير معهودة .

نزول هذه الامطار الغزيرة الهائلة ثم استدامتها النزول على الارتفاعات والنجود وخاصة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا ومغربها وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا كجبال^(٢) ألبرز وهيماليا وآلب وفي مغرب أمريكا عقّب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحّت الصخور وتحفر الأرض وتقلع احجاراً وتحملها الى الاراضي والبقاع المنحدرة وتحدث اودية جديدة وتعمق اخرى قديمة وتوسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجارة والحصى والرمل تجاهها قشوراً رسوبية جديدة .

وبما كان يمد الطوفان السماوي في شدة عمله ويزيد في حجم السيول الجارية أن حفر الأودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائية في بطن الأرض هي منابع

(١) وقد كانت مدينة شوش وقصر الكرخة في زمن الملوك المغانشية بإيران على ساحل البحر وكانت السفن الشراعية الجارية في خليج فارس تلقى مراسيها امام القصر .

(٢) فهي أقل عمراً من سائر جبال الأرض لم تعمّر أكثر من مليوني سنة ولذلك كانت أشق جبال الأرض وأعلى قللاً من غيرها لقلة ما ورد عليها من اسباب النحت كالامطار والرياح .

الآبار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجر العيون ويحريها مع السيول المطرية ، ويزيد في قوة تخريبها ويعينها في إغراق ما على الأرض من سهل وجبل وغمره .

غير أن الذخائر الأرضية متناهية محدودة تنفذ بالسيلان وينفادها وإمساك السماء عن الإمطار ينقضي الطوفان وتنحدر المياه الى البحار والأراضي المنخفضة وإلى بعض الحلاء والسرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير والمص .

٥ - نتيجة البحث . وعلى ما قدمناه من البحث الكلي يمكن أن ينطبق ما قصه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » القمر : ١٢ ، وقوله : « حق إذا جاء أمرنا وفار التنوير » هود : ٤٠ ، وقوله : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر » هود : ٤٤ . انتهى .

ومما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد^(١) طهران في هذه الأيام وملخصه : ان جماعة من رجال العلم من أمريكا بهداية من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل أراراط في شرقي تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات اخشاب يعطي القياس انها قطعات متلاشية من سفينة قديمة وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

والقياس يعطي انها قطعات من سفينة يعادل حجمه ثلثي حجم مركب « كوثين ماري » الانجليزية التي طولها ١٠١٩ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً ، وقد حملت الاخشاب الى سانفرانيسكو لتحقيق امرها وانها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده ارباب النحل من سفينة نوح ؟ عليه السلام .

٨ - عمره عليه السلام الطويل ، القرآن الكريم يدل على انه عليه السلام عمر طويل ،

(١) جريدة كيهان المنشرة اول سبتمبر ١٩٦٢ المطابق لغرة ربيع الاول ١٣٨٢ الهجرية القمرية عن لندن . آسوشيتد برس .

وانه دعا قومه الف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله سبحانه ، وقد استبعده بعض الباحثين لما ان الأعمار الإنسانية لا تتجاوز في الاغلب المائة او المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم ان القدماء كانوا يعدّون كل شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاماً يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور . وهو بعيد غاية .

وذكر بعضهم ان طول عمره عليه السلام كان كرامة له خارقة للعادة ، قال الثعلبي في قصص الانبياء في خصائصه عليه السلام : وكان اطول الانبياء عمراً وقيل له اكبر الانبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمّر الف سنة ولم ينقص له سنّ ولم تنقص له قوة . انتهى .

والحق أنه لم يقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمر الانسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب في الاعتبار أن يعمر البشر الأولي بأزيد من الأعمار الطبيعية اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الأمراض المسلطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة ، ونحن كلما وجدنا معمرّاً عمر مائة وعشرين الى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقي بعض الأعمار في السابقين الى مئات من السنين .

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقة للعادة شيئاً كثيراً لعجيب . وقد تقدم كلام في المعجزة في الجزء الأول من الكتاب .

٩ - ابن هو جبل الجودي : ذكروا انه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية ، وقد سماه في التوراة أراراط . قال في القاموس : والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، ويسمى في التوراة «أراراط» انتهى ، وقال في مراصد الاطلاع : الجودي مشددة جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة من اعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء .

١٠ - ربما قيل : هب إنه أغرق قوم نوح بذنوبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلكت بطاغية المياه ؟ وهذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك ولو كان عاماً عقوبة وانتقاماً ، والحوادث العامة التي تهلك الآلاف ثم الآلاف

مثل الزلازل والطوفانات والوباء والطاعون كثير الوقوع في الدهر، والله فيما يقضي حكم.

(كلام في عبادة الاصنام في فصول)

١ - الانسان واطمنئانه الى الحس : الانسان يجري في حياته الاجتماعية على اعتبار قانون العلية والمعلولية الكلي وسائر القوانين الكلية التي اخذها من هذا النظام العام المشهود، وهو على خلاف ما نشاهده من اعمال سائر الحيوان وأفعاله يجري في التفكير والاستدلال أعني القياس والاستنتاج الى غايات بعيدة .

وهو مع ذلك لا يستقر في فحصه وبحثه على قرار دون أن يحكم في علة هذا العالم المشهود الذي هو احد أجزائه بشيء من الإثبات والنفي لما يرى أن سعادة حياته التي لا بغية عنده أحب منها تختلف على تقدير إثبات هذه العلة الفاعلة المسماة بالإله عز اسمه ونفيه اختلافاً جوهرياً فمن البين أن لا مضاهاة بين حياة الانسان المتأله الذي يثبت للعالم إلهاً حياً عليماً قديراً لا مناص عن الخضوع لعظمته وكبريائه والجري على ما يحبه ويرضاه، وبين حياة الانسان الذي يرى العالم سدى لا مبطئ له ولا غاية، وليس فيه للانسان إلا الحياة المحدودة التي تفتى بالموت وتبطل بالقوت، ولا موقف للانسانية فيه إلا ما للحيوان العجم من موقف الشهوة والغضب وبغية البطن والفرج .

فهذه نزعة فكرية أولى للانسان الى الحكم بأنه : هل للوجود من إله؟ وتتلوه نزعة ثانية وهي القضاء الفطري بالإثبات، والحكم بأن للعالم إلهاً خلق كل شيء بقدرته وأجرى النظام العام برؤيته فهدى كل شيء الى غايته وكال وجوده بمشيئته وسيعود كل الى ربه كما بدى . هذا .

ثم إن مزاولة الانسان للحس والمحسوس مدى حياته وانكبابه على المادة وإخلاده الى الأرض عوده أن يمثل كل ما يعقله ويتصوره تمثيلاً حسيماً وإن كان بما لا طريق للحس والخيال اليه البتة كالكليات والحقائق المنزهة عن المادة على أن الانسان إنما ينتقل الى المعقولات من طريق الإحساس والتخيل فهو انيس الحس

وأليف الخيال .

وقد قضت هذه العادة اللازمة على الانسان أن يصور لربه صورة خيالية على حسب ما يألفه من الامور المادية المحسوسة حتى أن اكثر الموحدين ممن يرى تنزه ساحة رب العالمين تعالى وتقدس عن الجسمية وعوارضها يثبت في ذهنه له تعالى صورة مبهمه خيالية معتزلة للعالم تبادر ذهنه اذا توجه اليه في مسألة او حدث عنه بحديث غير أن التعليم الديني أصلح ذلك بما قرر من الجمع بين النفي والإثبات والمقارنة بين التشبيه والتنزيه يقول الموحّد المسلم : إنه تعالى شيء ليس كمثل شيء له قدرة لا كقدرة خلقه ، وعلم لا كالعلوم وعلى هذا القياس .

وقلّ أن يتفق لإنسان أن يتوجه الى ساحة العزة والكبرياء ونفسه خالية عن هذه المحاكاة ، وما أشد أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلق القلب بمن دونه ، ولا ممسوس بالتسويلات الشيطانية ، قال تعالى : « سبحانه الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ ، وقال حكاية عن إبليس : « قال فبمزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ص : ٨٣ .

وبالجملة الانسان شديد الولع بتخييل الامور غير المحسوسة في صورة الامور المحسوسة فإذا سمع أن وراء الطبيعة الجسمية ما هو أقوى وأقدر وأعظم وأرفع من الطبيعة وأنه فعال فيها محيط بها أقدم منها مدير لها حاكم فيها لا يوجد شيء إلا بأمره ولا يتحول عن حال الى حال إلا بإرادته ومشيته لم يتلق من جميع ذلك إلا ما يضاهي أوصاف الجسمانيات وما يتحصل من قياس بعضها الى بعض .

وكثيراً ما حكاه في نفسه بصورة إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبر أمر العالم بالتفكر ويتممه بالإرادة والمشية والأمر والنهي ، وقد صرحت التوراة الموجودة بأن الله سبحانه كذلك ، وأنه تعالى خلق الانسان على صورته ، وظاهر الأناجيل أيضاً ذلك .

فقد تحصل أن الأقرب الى طبع الانسان وخاصة الانسان الاول الساذج أن يصنع لربه المنزه عن الشبه والمثل صورة يضاهي بها الذوات الجسمانية وتناسب

الأوصاف والنعوت التي يصفها بها كما يمثل الثالث بإنسان ذو وجوه ثلاثة كأن كان كلا من النعوت العامة وجه للرب يواجه به خلقه .

٢ - الاقبال الى الله بالعبادة : اذا قضى الانسان أن للعالم إلهاً خلقه بعلمه وقدرته لم يكن له بد من أن يخضع له خضوع عبادة اتباعاً للناموس العام الكوني وهو خضوع الضعيف للقوي ومطاوعة العاجز للقادر ، وتسليم الصغير للحقير للعظيم الكبير فانه ناموس عام جار في الكون حاكم في جميع أجزاء الوجود ، وبه يؤثر الأسباب في مسبباتها وتتأثر المسببات عن أسبابها .

وإذا ظهر الناموس المذكور لذوات الشعور والإرادة من الحيوان كان مبدءاً للخضوع والمطاوعة من الضعيف للقوي كما نشاهد من حال الحيوانات العجم اذا شعر الضعيف منها بقوة القوي آتساً من الظهور عليه والقدرة على مقاومته .

وظهوره في العالم الانساني أوسع وأبين من سائر الحيوان لما في هذا النوع من عمق الإدراك وخصيصة الفكر فهو متفنن في إجرائه في غالب مقاصده وأعماله جلباً للنفع أو دفعاً للضرر كخضوع الرعية للسلطان والفقير للغني والمرؤس للرئيس والمأمور للأمر والخادم للمخدوم والمتعلم للعالم والمحب للمحبوب والمحتاج للمستغني والعبد للسيد والمربوب للرب .

وجميع هذه الخضوعات من نوع واحد وهو تذلل وهوان نفسي قبال عزة وقهر مشهود ، والعمل البدني الذي يظهر هذا التذلل والهوان هي العبادة أي ما كانت ؟ ومن لمن تحققت ؟ ولا فرق في ذلك بين الخضوع للرب تعالى وبينه اذا تحقق من العبد بالنسبة الى مولاه أو من الرعية بالنسبة الى السلطان أو من المحتاج بالنسبة الى المستغني أو غير ذلك فالجميع عبادة .

وعلى أي حال لا سبيل الى ردع الانسان عن هذا الخضوع لاستناده الى فضاء فطري ليس للانسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبين له أن الذي كان بظنه قوياً ويستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنه بل هما سواء مثلاً .

ومن هنا ما نرى أن الاسلام لم ينه عن اتخاذ آلهة دون الله وعبادتهم إلا بعد ما يتبين للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم ، وأن العزة والقوة لله جميعاً قال

تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » الأعراف : ١٩٤ وقال :
 « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم
 الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » الأعراف : ١٩٨ وقال
 تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله
 ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا
 اشهدوا بأننا مسلمون » آل عمران : ٦٤ ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى بعد ما
 دعاهم الى ترك عبادة غير الله تعالى من الآلهة ورفض الخضوع لساير المخلوقين المماثلين
 لهم وقال تعالى : « أن القوة لله جميعاً » البقرة : ١٦٥ ، وقال : « فإن العزة لله
 جميعاً » النساء : ١٣٩ وقال : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » ألم السجدة : ٤
 الى غير ذلك من الآيات .

فليس عند غيره تعالى ما يدعو الى الخضوع له فلا يسوغ الخضوع لأحد ممن
 دونه إلا أن يؤول الى الخضوع لله ويرجع تعزيره أو تعظيمه وولايته الى ناحيته
 قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » الى أن قال - فالذين آمنوا
 به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » الأعراف :
 ١٥٧ ، وقال : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » الى قوله - وهم راكعون »
 المائدة : ٥٥ ، وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون
 بالمعروف وينهون عن المنكر » التوبة : ٧١ ، وقال : « ومن يعظم شعائر الله
 فإنها من تقوى القلوب » الحج : ٣٢ . فلا خضوع في الاسلام لأحد دون الله إلا ما
 يرجع اليه تعالى ويقصد به .

٣ - كيف نشأت الوثنية ؟ وبماذا بدأت ؟ اتضح في الفصل المتقدم أن
 الانسان في منزلة من تجسم الامور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس
 بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مפותور للخضوع أمام أي قوة فائقة قاهرة
 والاعتناء بشأنها .

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الانساني مرآة تكاد لا
 تقبل التحرّز والاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات
 المبينة على أساس رفض الدين فتري فيها من النصب وتماثيل الرجال وتعظيمها

واحترامها والبلوغ في الخضوع لها ما يمثل لك وثنية اليهود الاولى والانسان الاولى.
على أن اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مآت الملايين قاطنين في
شرقها وغربها .

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ
قنايل الرجال العظماء ونصب اصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى
لهم ، وقد ورد في روايات أئمة اهل البيت ما يؤيد ذلك ففي تفسير القمي "مضر
او في علل الشرائع مسنداً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : " وقالوا لا تذرنا
آلهتكم " الآية ، قال : كانوا يعبدون الله عز وجل فماتوا فضج قومهم وشق ذلك
عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله وقال لهم : أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنتظرون
اليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله ، فأعد لهم أصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله
عز وجل وينظرون الى تلك الأصنام ، فلما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا
الأصنام البيوت .

فلم يزالوا يعبدون الله عز وجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ اولادهم فقالوا :
إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عز وجل فذلك قول الله تبارك
وتعالى : " ولا تذرنا وداً ولا سواعاً " الآية .

وكان رب البيت في الروم واليونان القديمين — على ما يذكره التاريخ — يعبد
في بيته فإذا مات اتخذ له صنم يعبد به اهل بيته ، وكان كثير من الملوك والعظماء
معبودين في قومهم ، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام
الذي حاجه في ربه ، وفرعون موسى .

وهذا يوجد في بيوت الاصنام الموجودة اليوم وكذا بين الآثار العتيقة
المحفوطة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كصنم بوذا وأصنام كثير من
البراهمة وغيرهم .

واتخاذهم أصنام الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنهم كانوا يرون أنهم
لا يبطلون بالموت وأن ارواحهم باقية بعده ، لها من العناية والأثر ما كان في حال
حياتهم بل هي بعد الموت اقوى وجوداً وأنفذ إرادة وأشد تأثيراً لما أنها خلصت من

شوب المادة ونجت من التأثيرات الجسدية والانفعالات الجرمانية ، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إله معبود في قومه ، قال تعالى : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك » الأعراف : ١٢٧ .

٤ - اتخذ الأصنام لأرباب الأنواع وغيرهم : كان اتخذ تماثيل الرجال هو الذي نبته الناس على اتخاذ صنم الإله إلا أنه لم يعهد منهم ان يتخذوا تمثالاً لله سبحانه المتعالي أن يحيط به حدث أو يناله وهم ، وكأن هذا هو الذي صرفهم عن اتخاذ صنمه بل تفرقوا في ذلك فأخذ كل ما يهجه من جهات التدبير المشهود في العالم فتوسلوا الى عبادة الله بعبادة من وكله الى الله على تدبير تلك الجهة المعني بها بزعمهم .

فالقاطنون في سواحل البحار عبدوا رب البحر لينعم عليهم بفوائدها ويسلموا من الطوفان والطفيان ، وسكان الأودية رب الوادي ، وأهل الحرب رب الحرب ، وهكذا .

ولم يلبثوا دون ان اتخذ كل منهم ما يهواه من إله فيما يتوهمه من الصورة والشكل ، ومما يختاره من فلز أو خشب أو حجارة أو غير ذلك حتى روي أن بني حنيفة من اليمامة اتخذوا لهم صنماً من أقطرم أصابهم جذب وشغلهم الجوع فهجموا عليه فأكلوه .

وكان الرجل اذا وجد شجرة حسنة أو حجراً حسناً وهواه عبده ، وكانوا يذبحون غنماً أو ينحرون إبلاً فيلطخونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاءوا بها اليه فمسحوها به ، وكانوا يتخذون كثيراً من الأشجار أرباباً فيتبركون بها من غير أن يمسوها بقطع أو كسر ويتقربون اليها بالقرابين ويأتون اليها بالندورات والهدايا .

وساقهم هذا الهرج الى ان ذهبوا في امر الأصنام مذاهب شتى لا يكاد يضبطها ضابط ، ولا يحيط بها إحصاء غير أن الغالب في معتقداتهم انهم يتخذونها شفعاء يستشفعون بها الى الله سبحانه ليحلب اليهم الخير ويدفع عنهم الشر ، وربما أخذها بعض عامتهم معبودة لنفسها مستقلة بالالوهية من غير أن تكون شفعاء ، وربما كانوا يتخذونها شفعاء ويقدمونها أو يفضلونها على الله سبحانه كما يحكيه القرآن في قوله تعالى : « فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم »

الآية ، الأنعام : ١٣٦ .

وكان بعضهم يعبد الملائكة ، وآخرون يعبدون الجن ، وقوم يعبدون الكواكب الثابتة كشمس ، وطائفة تتخذ بعض السيارات إلهاً - وقد أشير الى جميع ذلك في الكتاب الإلهي - كل ذلك طمعاً في خيرها أو خوفاً من شرها .

وقل أن يتخذ إله من دون الله ولا يتخذ له صنم يتوجه إليه في العبادات به بل كانوا اذا اتخذوا شيئاً من الأشياء إلهاً شقيقاً عملوا له صنماً من خشب أو حجر أو فلز ، ومثلوا به ما يتوهمونه عليه من صورة الحياة فيسوّونه في صورة إنسان أو حيوان وإن كان صاحب الصنم على غير الحياة التي يحكوه بها كالكواكب الثابتة والسيارة وإله العلم والحب والرزق والحرب ونحوها .

وكان الوجه في اتخاذ أصنام الشركاء قولهم : إن الإله لتعاليه عن الصورة المحسوسة كأرباب الأنواع وسائر الآلهة غير المادية أو لعدم ثباته على حالة الظهور كالكوكب الذي يتحول من طلوع الى غروب يصعب التوجه إليه كلها أريد بالتوجه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله في صفاته ونعوته فيصمد اليه بوسيلته كلها أريد .

٥ - الوثنية الصابئة . الوثنية وإن رجعت - بالتقريب - الى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء الى الله وعبادة أصنامها وتمثيلها ، ولعلها استولت على الأرض وشملت العالم البشري مراراً كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصرة لنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام إلا أن اختلاف المنتعلين بها بلغ من التشتت واتباع الأهواء والخرافات مبلغاً كان حصر المذاهب الناشئة فيها كالحال وأكثرها لا تبتني على أصول متقررّة وقواعد منتظمة متلائمة .

ومما يمكن أن يعد منها مذهباً قريباً من الانتظام والتحصيل مذهب الصابئة والوثنية البرهمية والبوذية :

أما الوثنية الصابئة فهي تبتني على ربط الكون والفساد وحوادث العالم الأرضي الى الأجرام العلوية كالشمس والقمر وعطارد والزهرة ومريخ والمشتري وزحل وأنها بما لها من الروحانيات المتعلقة بها هي المدبرة للنظام المشهود يدبر كل منها ما يتعلق به من الحوادث على ما يصفه فن أحكام النجوم ، ويتكرر بتكرار دوراتها الأدوار

والأكوار من غير أن تقف أو تنتهي إلى أمد .

فهي وسائط بين الله سبحانه وبين هذا العالم المشهود تقرب عبادتها الإنسان منه تعالى ثم من الواجب أن يتخذ لها أصنام وتماثيل فيتقرب إليها بعبادة تلك الأصنام والتماثيل .

وذكر المؤرخون أن الذي أسس بنيانها وهذب أصولها وفروعها هو «يوداسف» المنجم ظهر بأرض الهند في زمن طهمورث ملك إيران ، ودعا إلى مذهب الصابئة فاتبعه خلق كثير ، وشاع مذهبه في أقطار الأرض كالروم واليونان وبابل وغيرها ، وبُنيت لها هياكل ومعابد مشتملة على أصنام الكواكب ، ولهم أحكام وشرائع وذبائح وقرايين يتولاها كهنتهم . وربما ينسب إليهم ذبح الناس .

وهؤلاء يوحّدون الله في ألوهيته لا في عبادته ، وينزهونه عن النقائص والقبائح ، ويصفونه بالنفي لا بالإثبات كقولهم : لا يعجز ولا يحجل ولا يموت ولا يظلم ولا يحور ، ويسمون ذلك بالأسماء الحسنى مجازاً وليسوا بقائلين باسم حقيقة وقد قدمنا شيئاً من تاريخهم في تفسير قوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين» الآية ، البقرة : ٦٢ في الجزء الأول من هذا الكتاب .

٦ - الوثنية البرهمية : والبرهمية - على ما تقدم - من مذاهب الوثنية المتأصلة ، ولعلها أقدمها بين الناس فإن المدنية الهندية من أقدم المدنيات الإنسانية لا يضبط بدء تاريخي لها على التحقيق ، ولا يضبط بدء تاريخي لوثنية الهند غير أن بعض المؤرخين كالسمعودي وغيره ذكروا أن برهم اسم أول ملوك الهند الذي عمّر بلاده وأسس قواعد المدنية فيها وبسط العدل بين أهلها .

ولعل البرهمية نشأت بعده باسمه فكثيراً ما كانت الأمم الماضية يعبدون ملوكهم والأعظم من أقوامهم لاعتقادهم أنهم ذوّوا سلطة غيبية وأن اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور ، ويؤيده بعض التأييد أن الظاهر من «ويدا» وهو كتابهم المقدس أنه مجموع من رسائل ومقالات شق ألفكل شطر منها بعض رجال الدين في أزمنة مختلفة ورثوها من بعدهم فجُمعت وألفت كتاباً يشير إلى دين ذي نظام وقد صرح به علماء سانسكريت ولازم ذلك أن يكون البرهمية كغيرها من مذاهب الوثنية مبتدئة

من افكار عامية غير قيّمة ، متطورة في مراحل التكامل حتى بلغت حظها من الكمال .
ذكر البستاني في دائرة المعارف ما ملخصه :

برهم (بفتحين فسكون او بفتح الباء والهاء وسكون الراء) هو المعبود الاول والأكبر عند الهنود ، وهو عندهم اصل كل الموجودات واحد غير متغير وغير مدرك أزلي مطلق سابق كل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة بقوله :
أوم أي كن .

وحكاية برهم تشبه من كل وجه حكاية « اى بوذة » فليس الفرق إلا في الاسم والصفات وكثيراً ما يجعلون نفس برهم اسماً للأقانيم الثلاثة المؤلف منها فالوث الهنود ، وهي : « برهما ووشنو وسيوا » ويقال لعبدة برهم : البرهميون او البراهمة .

وأما برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد ان شرع في أعماله (بدليل زيادة الألف في آخره وهو من اصطلاحاتهم) وهو الاقنوم الاول من الثلاث الهندي اي إن برهم ينبثق في نفسه في ثلاثة اقانيم كل مرة في اقنوم فالاقنوم الاول الذي يظهر به اول مرة هو برهما ، والثاني ووشنو ، والثالث سيوا .

فلما انبثق برهما لبث مدة طويلة جالساً على سدة تسمى بالهندية « كالا » وبالسكريتية بدما ، وكان ينظر من كل جهة ، وكان له اربعة رءوس بثنائي أعين فلم يرَ إلا فضاء واسعاً مظلماً مملوءاً ماءً فارقاع لذلك ولم يقدر أن يدرك سر أصله فلبث ساكناً أبكم غارقاً في التأملات .

فمضت على ذلك اجيال واذا بصوت قد طرق أذنيه بفتة ونبته من سباته وأشار عليه ان يفزع الى « باغادان » وهو لقب برهم فظهر برهم بصورة رجل له الف رأس فسجد له برهما وجعل يسبحه فانشرح صدر باغادان وأبدع النور وكشف الظلمات ، وأظهر لعبده حالة كينونته والكائنات بصور جرائم متخدرة وأعطاء القوة لإخراجها من هذا الخمول .

فبقي برهما يتأمل في ذلك مائة سنة إلهية وهي عبارة عن ستة وثلاثين الف سنة شمسية ثم ابتداء بالعمل فأبدع اولاً سبع السماوات المسماة عندهم « سورغة »

وأناها بالأجرام المسماة « ديقانة » ، ثم أبدع « مريثلوكا » ، أي مقر الموت ثم الأرض وقمرها ، ثم المساكن السبعة السفلى المسماة بتالة ، وأناها بثمانية جواهر موضوعة على رهوس ثماني حيات .

فالسماوات السبع والمساكن السفلى السبعة هي العوالم الاربعة عشر في الميثولوجيا الهندية .

ثم خلق الأزواج السبعة لكي تعينه في أعماله فامتنع من مساعدته عشرة منها وهي « موني » ، والريشة التسعة التي منها « ناريدا أو نوردام » واقتصرت على التأملات الدنيوية فتزوج حينئذ أخته « ساراسواتي » وأولدها مائة ولد ، وكان البكر اسمه « دكشا » فولد لدكشا خمسون بنتاً فتزوجت ثلث عشرة منهن « كاسيابا » الذي يسمونه أحياناً برهمن الأول ، وهو الذي ولد لبرهما ولداً يسمى « مارتشي » .

وولدت إحدى البنات المذكورات واسمها « أديتي » الأرواح المنيرة المسماة « ديقانة » وهي التي تفعل الخير وتسكن السماوات ، وأما أختها « ديتي » فولدت جمهوراً غفيراً من الأرواح الشريرة المسماة « داتينة » أو « أسورة » وهي سكان الظلام وفاعلة كل شر في العالم .

وكانت الأرض إلى ذلك الوقت خالية من السكان فقال بعضهم : إن برهما أخرج من نفسه « مانوسوياً مبقوا » الذي يقول الآخرون : إنه سابق له وأنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوجته « ساقاروبا » وقال لها أن يكثرنا وينمينا .

وقال آخرون : إن برهما ولد أربعة أولاد وهم برهمن وكشتريا وقايسيا وسودرا فالأول خرج من فمه ، والثاني من ذراعه اليمنى ، والثالث من فخذه اليمنى والرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لأربع فرق أصلية .

وتزوج الثلاثة الآخرون بثلاث نساء منه أيضاً خرجت واحدة من ذراعه اليمنى والثانية من فخذه اليسرى ، والثالثة من رجله اليسرى ، وسمين باسم بعولتهن بزيادة علامة التأنيث وهي « نى » ، وتزوج برهمن أيضاً زوجة من أبيه ، ولكن كانت من نسل الأسورة الشريرة ، فهذا ما في الفيداس عن كيفية خلق العالم .

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبة وشنو الأقنوم

الثاني وسبوا الأقتنوم الثالث وذلك أنه انتفخ بالكبرياء والمعجب ، وظن نفسه نظير العليّ فسقط في ناراك أي الجحيم ، ولم ينل العفو إلا بشرط أن يتجسد مرة في كل من الأجيال الأربعة ، فتجسد أول مرة بصورة غراب شاعر اسمه « كا كابوسندا » وفي الثانية بصورة « بارباقليكي » فكان أولاً لصاً ثم رجلاً عبوساً رزيناً نادماً ثم ترجماناً مشهوراً للفيداس ومؤلفاً للراميانا ، وفي المرة الثالثة بصورة « قياسا » وهو شاعر ومؤلف « المهابارانا » والبغاقة وعدة بورانات ، وفي المرة الرابعة وهو العصر الحالي المسمى « كالي يوغ » بصورة « كاليداسا » الشاعر التشخيصي العظيم ومؤلف « ساكتالا » ومنقح مؤلفات « قلمبيكي » .

ثم إن برهما ظهر في ثلاث أحوال ، ففي الحال الأولى كان الواحد الصمد والكل الأعظم العليّ ، وفي الحال الثانية ظهر منبثقاً من الأول أي شارعاً في العمل وفي الحال الثالثة ظهر متجسداً بصورة انسان وحكيم .

وليس لبرهما عبادة عامة في الهند ، وله هناك هيكل واحد فقط غير أن البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ، ويدعونه مساء وصباحاً ، وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحه أيديهم على الأرض وتحت الشمس ، ويجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة ، وفي تقديس النار يقدمون له سمناً مصفى كما يقدمون لإله النار ، وهذا التقديس أهم وأقدس من كل ما سواه . واسمه هوم أو هوما ورغيب .

ويمثل برهما بصورة رجل ذي لحية طويلة بإحدى يديه سلسلة الكائنات وبالأخرى الإناء الذي فيه ماء الحياة السماوي راكباً الهمسما وهو الطير الإلهي الذي يشبه اللقلق والنسر .

وأما برهمن فهو ابن برهما البكر أخرجه من فيه كما تقدم ، وجعل نصيبه أربعة الكتب المقدسة المسماة « فيداس » كناية عن الكلمات الأربع التي نطق بها بأفواه الأربعة .

فلما أراد برهمن أن يتزوج نظير إخوته قال له برهما : إنك ولدت للدرس والصلاة فيجب أن تباعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمن بقول أبيه فغضب برهما وزوجه بواحدة من جنيات الشر المسماة أسورة ، ومن هذا ولد البراهمة وهم

الكهنة المقدسون الذين حُصِّتوا بتفسير الفيداس ، وكانوا يتولون أمر كل التقديمات التي يقدمها الهنود للآلهة .

وولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمة ، وقايسيا صنف أهل الزراعة منهم ، وسودرا صنف العبيد ، فالبراهمة أربعة أصناف ، انتهى ملخصاً من دائرة المعارف للبستاني .

وذكر غيره أن البرهمية منقسمة الى طبقات أربع هم البراهمة (علماء المذهب) والحربيون والزراعيون والتجار ، ولا يعبؤ بغيرهم كالنساء والعبيد ، وقد نقلنا في ذيل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » الآية ، المائدة : ١٠٥ في الجزء السادس من الكتاب في بحث علمي عن كتاب ما للهند من مقولة لأبي ربحان البيروني شيئاً من وظائف البراهمة وعباداتهم ، وكذا عن الملل والنحل للشهرستاني شطراً من شرائع الصابئين .

والمذاهب الوثنية الهندية وكان الصابئين مثلهم أيضاً مطبقون على القول بالتناسخ وهو أن العوالم غير متناهية من ناحيتي الأزل والأبد ولكل منها حظاً من البقاء مؤجلاً فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته وتولد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث وهكذا ، والنفوس الانسانية المتعلقة بالأبدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدء حياة جديدة لها فإنها تتعلق بأبدان آخر تعيش فيها عيشة سعيدة إن كسبت في بدنها السابق فضائل نفسانية وعملت عملاً صالحاً، وعيشة شقية إن تلبست بالردائل واقترفت السيئات إلا الكاملون في معرفة البرهم (الله سبحانه) فإنهم أحياء بحياة الأبد آمنون من التولد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ.

٧ - الوثنية البوذية :

وقد أصلحت الوثنية البرهمية ^(١) بالبوذية منسوبة الى بوذا «سقياموني» المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين قبل المسيح على ما نقل عن التاريخ السيلاني وقيل غير ذلك حتى أن الاختلاف في ذلك ينسحب الى ألفي سنة ، ولذلك ربما ظن أنه شخص

(١) ملخص ما في دائرة المعارف للبستاني .

خرافي لا حقيقة له لكن الحفريات الأخيرة التي وقعت في غايا الحديثة وآثاراً أخرى في بطنه دلت على صحة وجوده ، وقد انكشفت بها آثار أخرى من تاريخ حياته وتعاليمه التي ألقاها الى تلامذته وأتباعه .

وكان بوذا من بيت الملك ابن ملك يدعى « سودودانا » فعزفت نفسه الدنيا وشهواتها واعتزل الناس في شبابه ولبت في بعض الغابات الموحشة سنين من عمره مكباً على التزهد والارتياض حتى تنورت نفسه بالمعرفة فخرج الى الناس وهو ابن ست وثلاثين سنة على ما قيل فدعاهم الى التخلص عن الشقاء والآلام والفوز بالراحة الكبرى والحياة السماوية الأبدية السرمدية ، ووعظهم وحشهم على التمسك بذييل شريعته بالتخلق بالأخلاق الكريمة ورفض الشهوات واجتناب الرذائل .

وكان بوذا — على ما نقل — يقول عن نفسه من دون كبرياء برهية : « أنا (١) متسول ، ولا توجد إلا شريعة واحدة للجميع وهي العقاب الشديد للمجرمين والثواب العظيم للصالحين ، وشريعتي شريعة نعمة للجميع ، وفيها كالسماوات مكان الرجال والنساء والصبيان والبنات والأغنياء والفقراء على أنه يعسر على الغني أن يسلك طريقها » .

وكان تعليمه على ما عند البوذيين: أن الطبيعة ذات فراغ وأنها وهمية خداعة وأن العدم يوجد في كل مكان وكل زمان ، وهو مملوء من الغش ، ونفس هذا العدم يزيل كل الحواجز بين أصناف الناس وجنسياتهم وأحوالهم الدنيوية ، ويجعل أحقر الديدان إخوة للبوذيين .

وهم يعتقدون أن آخر عبارة نطق بها سقياموني هي « كل مركب فان ، والغاية القصوى عندهم هي نجاة النفس من كل ألم وغرور ، وأن دور التناسخ الذي لا نهاية له ينتهي أو ينقطع بمنع النفس أن تولد ثانية ، ويتوصل الى ذلك بتطهيرها حتى من رغبة الوجود .

فهذه القواعد الأساسية للبوذية موجودة صريحاً في أقدم تعليمها المدرج في

(١) أي تصنيفي التسويلات والوساوس النفسانية وفي كلامه هذا نسخ لحكم الطبقات في الشريعة البرهية القاضي بتفاوت الناس في التشرف بالسعادة الدينية وتحريم بعضهم كالنساء والصبيان منها .

« الاريايى ستيناس » وهي أربع حقائق سامية تنسب الى سقياموني ذكرها في عظته الاولى التي قام بها في غابة تعرف بغابة الغزال بالقرب من بنارس .

وتلك الحقائق الأربع تتعلق بالآلم وأصله وملاشاته وبالطريقة المؤدية الى الملاشاة فالآلم هو الولادة والسن والمرض والموت ومصادفة المكروه ومفارقة المحبوب والمعجز عما يرام ، وأسباب الآلم الشهوات النفسانية والجسدية والأهواء ، وملاشاة جميع هذه الاسباب هي الحقيقة الثالثة ، والطريقة الملاشاة أيضاً ثمانية أقسام وهي : نظر صحيح وحس صحيح ، ونطق صحيح ، وفعل صحيح ، ومركز صحيح ، وجد صحيح وذكر صحيح ، وتأمل صحيح ، فهذه صورة الإيمان عندهم وقد وجدت محفورة على أبنية كثيرة ومدونة في عدة كتب .

وأما خلاصة الأدب البوذي فهي اجتناب كل شيء ردي ، وعمل كل شيء صالح وتهذيب العقل .

فهذا هو الذي سلموه من تعليم بوذا ، وما عداه من العبادات والذبايح والكهنوت والفلسفة والاسرار أمور أضيفت اليه بمرور الأيام ومرور الدهور ، وهي تشمل على أقاويل وآراء عجيبة في خلق العالم ونظمه وغير ذلك ،

ومما يقال إن بوذا لم يتكلم عن الإله قط ، غير أن ذلك لم يكن لإعراض منه عن مبدء الوجود ولا لإنكار بل لأن الرجل كان يبذل كل جهده في تجهيز الناس بالزهد عن زهرة الحياة الدنيا وتنفيرهم عن هذه الدار الفارة .

٨ - وثنية العرب . وهم أول من عارضهم الإسلام بالدعوة الى التوحيد من عبدة الاوثان ، كان معظم العرب في عهد الجاهلية بدويين واهل الحضارة منهم كالنعمان في طبع البداوة يحكم فيهم من السنن والآداب رسوم مختلفة مختلفة مأخوذة من جيرانهم الأقوياء كالفرس والروم ومصر والحبشة والهند ، ومنها السنن الدينية .

وكان أسلافهم الأقدمون وهم العرب العاربة ومنهم عباد إرم وثمود على دين الوثنية كما يحكيه الله سبحانه في كتابه عن قوم هود وصالح وعن أصحاب مدين وعن اهل سبا في قصة سليمان والهدد ، حتى أن جاء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر الى ارض مكة وهي واد غير ذي زرع وبها قبيلة جرهم ، وأسكنها

هناك فنشأ إسماعيل عليه السلام وبُنيت بلدة مكة ، وبني إبراهيم عليه السلام الكعبة البيت الحرام ودعا الناس الى دينه الحنيف وهو الإسلام فاستجيب له في الحجاز وما والاها وشرع لهم الحج كما يدل على جملة ذلك قول الله تعالى له فيها يحكيه القرآن : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، الحج : ٢٧ .

ثم تهود بعض الأعراب لمعاشرة كانت بينهم وبين اليهود النازلين بالحجاز ، وتسربت النصرانية الى بعض أقطار الجزيرة ، والمجوسية الى بعضها الآخر .

ثم وقعت وقائع بين آل إسماعيل وجرم بمكة حق آل الى غلبة آل إسماعيل وإجلاء جرم منها واستولى عمرو بن لحي على مكة وما والاها .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقبل له : إن البلقاء من أرض الشام حمة لو استحسنت بها برئت فقصدتها واستحم بها فبرئ ، ورأى هناك قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقي فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من اصنامهم فدفعوا اليه هبل فرجع الى مكة ووضعها على الكعبة ، وكان معه إساف ونائلة وهما صنان على شكل زوجين - كما في الملل والنحل - أو شابين - كما في غيره - فدعا الناس الى عبادة الاصنام وروج ذلك بين قومه فعادوا يعبدونها بعد إسلامهم وقد كانوا يسمون حنفاء لاتباعهم ملة ابراهيم عليه السلام فبقي عليهم الاسم وهجرهم المعنى وصار الحنفاء اسماً للوثنيين ^(١) منهم .

وكان مما يقربهم الى الوثنية أن الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنية جميعاً فكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه شيئاً من حجارة الحرم تبركاً وصبابة ، وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به تيمناً وحباً للكعبة والحرم .

وعن هذه الاسباب شاعت الوثنية بين العرب عارهم ومستعربهم ولم يبق من أهل التوحيد بينهم إلا آحاد لا يذكرون ، وكان من الاصنام المعروفة بينهم هبل وإساف ونائلة ، وهي التي أتى بها عمرو بن لحي ودعا اليها الناس ، واللات والعزى

(١) ولعل هذا هو الوجه في اصرار القرآن على توصيف ابراهيم بالحنيف والاسلام بالحنيفية .

ومنارة وود وسواع ويعوق ونسر، وقد ذكرت هذه الثمان في القرآن ونسبت الخمس الاواخر منها الى قوم نوح .

وروى في الكافي بإسناده الى عبد الرحمان بن الأشل بيع الانماط عن الصادق عليه السلام أن يعوق كان موضوعاً قبالة باب الكعبة ، وكان يعوق عن يمين الكعبة ونسر عن يسارها .

وفي الرواية ايضاً أن هبل كان على سطح الكعبة وإساف وفائلة على الصفا والمروة . وفي تفسير القمي قال : كانت ود لسكلب ، وكانت سواع لهذيل ويعوق لمراد ، وكانت يعوق لهمدان ، وكانت نسر لحصين .

وكانت في الوثنية التي عندهم آثار من وثنية الصابئة كالغسل من الجنابة وغيره . وفيها آثار من البرهمية كالقول بالأنواء والقول بالدهر كما تقدم عن وثنية بوذه قال تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » الجاثية : ٢٤ وإن ذكر بعضهم أنه قول الماديين المنكرين لوجود الصانع .

وفيها شيء من الدين الخفيف وهو إسلام إبراهيم عليه السلام كالختنة والحج إلا أنهم خلطوه بسنن وثنية كالتمسح بالأصنام التي حول الكعبة والطواف عرياناً ، والتلبية بقولهم : لبّيك لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وعندهم أمور أخر اختلقوه من عند أنفسهم كالقول بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام والقول بالصدى والهام والأنصاب والأزلام وأمور أخر مذكورة في التواريخ وقد تقدم تفسير البحيرة والسائبة والوصيلة والحام في سورة المائدة في ذيل آية ١٠٣ وكذا ذكر الأزلام والأنصاب في ذيل آية ٣ وآية ٩٠ .

٩ - دفاع الاسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية . لم تزل الدعوة الإلهية تخاصم الوثنية وتقاومه وتندب الى التوحيد كما ذكره الله في كتابه فيما يقصه من دعوة الأنبياء والرسل كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام ، وأشير الى ذلك في قصص عيسى ولوط ويونس عليهم السلام .

وقد أجهل القول في ذلك في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول

إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ .

وقد بدأ النبي محمد ﷺ في دعوته العامة بدعاء الوثنيين من قومه الى التوحيد بالحكمة والموعظة والجدال التي هي أحسن فلم يجيبوه إلا بالاستهزاء والأذى وفتنة من آمن به منهم وتعذيبه أشد العذاب حتى اضطر جمع من المسلمين الى ترك مكة والهجرة الى الحبشة ثم مكروا لقتله ﷺ فهاجر الى المدينة ثم هاجر اليها بعده عدة من المؤمنين .

ولم يلبثوا حتى تعلقوا به بالقتال ، وقاتلوه ببدر وأحد والخندق وفي غزوات أخرى كثيرة حتى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكة فظهر ﷺ البيت والحرم من أوثانهم ، وكسر الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة ، وكان هبل منصوباً على سطح الكعبة فأصعد علياً عليه السلام إليه فرماه الى الأرض وكان - على ما يقال - أعظم أصنامهم فدفن - على ما ذكروه - في عتبة باب المسجد .

والإسلام شديد العناية بحسم مادة الوثنية وتخلية القلوب عن الخواطر الداعية اليها وصرف النفوس حق عن الحومان حولها والإشراف عليها ، وذلك مشهود بما ندب اليه من المعارف الأصلية والأخلاق الكريمة والأحكام الشرعية فتراه يمد الاعتقاد الحق أنه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى يملك كل شيء ، له الوجود الاصيل الذي يستقل بذاته وهو الغني عن العالمين ، وكل ما هو غيره منه يبتدىء واليه يعود ، واليه يفترق في جميع شؤن ذاته حدوثاً وبقاءً فمن أسند الى شيء شيئاً من الاستقلال بالقياس اليه تعالى - لا بالقياس الى غيره - في شيء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهو مشرك بحسبه .

وتراه يأمر بالتوكل على الله ، والثقة بالله ، والدخول تحت ولاية الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وإخلاص العمل لله ، وينهى عن الاعتماد بغير الله ، والركون الى غيره ، والاطمئنان الى الأسباب الظاهرة ورجاء من دونه ، والعجب والكبر الى غير ذلك مما يوجب إعطاء الاستقلال لغيره والشرك به .

وتراه ينهى عن السجدة لغيره تعالى ، وينهى عن اتخاذ التماثيل ذوات الأظلال وعن تصوير ذوي الأرواح ، وينهى عن طاعة غير الله والإصغاء اليه فيما يأمر وينهى إلا ما رجع الى طاعة الله كطاعة الأنبياء وأئمة الدين ، وينهى عن البدعة واتباعها وعن اتباع خطوات الشيطان .

والأخبار الماثورة عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام متظافرة في أن الشرك ينقسم الى جلي وخفي، وأن الشرك ذو مراتب كثيرة لا يسلم من جميعها إلا المخلصون، وأنه أخفى من ديبب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وقد روى في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» الشعراء: ٨٩، القلب السليم الذي يلقي ربه ليس فيه أحد سواه. قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة.

وورد أيضاً أن عبادته تعالى طمعاً في الجنة عبادة الاجراء، وعبادته خوفاً من النار عبادة العبيد، وحق العبادة أن يعبد تعالى حباً له وتلك عبادة الكرام، وهذا مقام مكنون لا يمس إلا المطهرون وقد تقدمت عدة من هذه الروايات في بعض الأبحاث السابقة من الكتاب.

١٠ - بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء: أجمال تعالى سيرته ﷺ التي أمره باتخاذها والسير بها في المجتمع البشري في قوله: «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون» آل عمران: ٦٤، وقال تعالى يشير الى ما داخل دينهم من عقائد الوثنية: «قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل» المائدة: ٧٧.

وقال أيضاً يذم أهل الكتاب: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» التوبة: ٣١.

وكان ﷺ قد سوى بين الناس في إجراء الأحكام والحدود وقارب بين طبقات المجتمع كالحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤس، والخدام والمخدوم، والغني والفقير، والرجل والمرأة، والشريف والوضيع فلا كرامة ولا فخر ولا تحكم لأحد على أحد إلا كرامة التقوى والحساب الى الله والحكم انبه.

وكان ﷺ يقسم بالسوية ، وينهى عن تظاهر القوي بقوته بما يتأثر وينكسر به قلب الضعيف المهين كتظاهر الاغنياء بزينتهم على الفقير المسكين ، والحكام والرؤساء بشوكتهم على الرعية .

وكان ﷺ يعيش كأحد من الناس لا يمتاز منهم في مأكل او مشرب او ملبس او مجلس او مشية او غير ذلك ، وقد تقدم جوامع سيرته في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب .

(كلام آخر ملحق بالكلام السابق)

نزن فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه الى تعاليم ويدا ، وأوستا ، والتوراة ، والإنجيل على نحو الإجمال والكلية في فصول وهذا بحث تحليلي شريف .

١ - التناسخ عند الوثنيين :

من الاصول الأولية التي تبتني عليها البرهمية ومثلها البوذية والصابئية هو التناسخ وهو أن العالم محكوم بالكون والفساد دائماً فهذا العالم المشهود لنا وكذا ما فيه من الأجزاء مكوّن عن عالم مثله سابق عليه وهكذا الى غير النهاية ، وسيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاءه ويتكوّن منه عالم آخر وهكذا الى غير النهاية ، والانسان يعيش في كل من هذه العوالم على ما اكتسبه في عالم يسبقه فمن عمل صالحاً واكتسب ملكة حسنة فستتعلق نفسه بعد مفارقة البدن بالموت ببدن سعيد ويعيش على السعادة ، وهو ثوابه ، ومن أخذ الى الأرض واتبع هواه فسوف يعيش بعد الموت في بدن شقي ويقاسي فيه أنواع العذاب إلا من عرف البرهم واتحد به فإنه ينجو من الولادة الثانية ويعود ذاتاً أزلية أبدية هي عين البهاء والسرور والحياة والقدرة والعلم لا سبيل للفناء والبطلان اليها .

ولذلك كان من الواجب الديني على الانسان أن يؤمن بالبرهم (وهو الله اصل كل شيء) ويتقرب اليه بالقرايين والعبادات ، ويتحلى بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة فإن عزفت نفسه الدنيا وتحلق بكرائم الأخلاق وتحلى بصوالح الأعمال وعرف البرهم بمعرفة نفسه صار برهمنا واتحد بالبرهم وصار هو هو ، وهو السعادة

الكبرى والحياة للبعثة ، وإلا فليؤمن بالبرم وليعمل صالحاً حتى يسعد في حياته التالية وهي آخرته .

لكن البرم لما كان ذاتاً مطلقة محيطاً بكل شيء غير محاط بشيء كان أعلى وأجل من أن يعرفه الانسان إلا بنوع من نفي النقائص او يناله بعبادة او قربان فمن الواجب علينا أن نتقرب بالعبادة الى اوليائه وأقوياء خلقه حتى يكونوا شفعاء لنا عنده ، وهؤلاء هم الآلهة الذين يعبدون من دون الله بعبادة اصنامهم ، وهم على كثرتهم إما من الملائكة او من الجن او من أرواح المكملين من البراهمة ، وإنما يعبد الجن خوفاً من شرهم ، وغيرهم طمعاً في رحمتهم وخوفاً من سخطهم ومنهم الأزواج والبنون والبنات لله تعالى .

فهذه جمل ما تتضمنه البرهمية ويعلمه علماء المذهب من البراهمة .

لكن الذي يتحصل من «أوبانيشاد»^(١) وهو القسم الرابع من كتاب «ويدا» المقدس ربما لم يوافق ما تقدم من كليات عقائدهم وإن أوله علماء المذهب من البراهمة . فإن الباحث الناقد يجد أن رسائل «أوبانيشاد» المعلقة للمعارف الإلهية وإن كانت تصف العالم الالوهي والشؤون المتعلقة به من الأسماء والصفات والأفعال من إبداء وإعادة وخلق ورزق وإحياء وإماتة وغير ذلك بما يوصف به الأمور الجسمانية المادية كالانقسام والتبعض والسكون والحركة والانتقال والحلول والاتحاد والعظم والصغر وسائر الأحوال الجسمانية المادية إلا أنها تصرّح في مواضع منها أن برم^(٢) ذات مطلقة متعالية من أن يحيط به حد له الأسماء الحسنی والصفات العليا من حياة وعلم وقدرة ، منزّه عن نعوت النقص وأعراض المادة والجسم ليس كمثله شيء .

وتصرّح^(٣) بأنه تعالى أحديّ الذات لم يولد من شيء ولم يلد شيئاً وليس له

(١) أوبانيشاد كالخاتمة لكتب «ويدا» المقدسة وهي رسائل متفرقة مأثورة من كبار رجال الدين من عرفائهم القدماء الأقدمين تحتوي جمل ما حصلوه من المعارف الإلهية بالكشف ويعتبرها البراهمة وحياً سماوياً .

(٢) هذا كثير الورد يعثر عليه الراجع في أغلب فصول أوبانيشاد .

(٣) «لم يولد منه شيء ولم يتولد من شيء وليس له كفوّاً أحد» أوبانيشاد (شيت استر) ادعيا السادس آية ٨ (السر الأكبر) .

كفو ومثل البتة .

وتصرّح ^(١) بأن الحق أن لا يعبد غيره تعالى ولا يتقرّب الى غيره بقربان بل الحري بالعبادة هو وحده لا شريك له .

وتصرّح ^(٢) كثيراً بالقيامة وأنه الأجل الذي ينتهي اليه الخلق ، وتصف ثواب الاعمال وعقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعين حمله على التناسخ .

ولا خبر في هذه الأبحاث الإلهية الموردة فيها عن الأوثان والأصنام وتوجيه العبادات وتقديم القرابين اليها .

وهذه التي نقلناها من «أوبانيشاد» - وما تركناه أكثر - حقائق سامية ومعارف حقة تطمئن اليها الفطرة الانسانية السليمة ، وهي - كما ترى - تنفي جميع أصول الوثنية الموردة في اول البحث .

والذي يهدي اليه عميق النظر أنها كانت حقائق عالية كشفها آحاد من أهل ولاية الله ثم أخبروا بما وجدوا بعض تلامذتهم الآخذين منهم غير أنهم تكلموا غالباً بالرمز واستعملوا في تعاليمهم الأمثال .

ثم جعل ما أخذ من هؤلاء أساساً تبثني عليه سنة الحياة التي هي الدين المجتمع عليه عامة الناس ، وهي معارف دقيقة لا يخلطها إلا الآحاد من أهل المعرفة لارتفاع سطحها عن الحس والخيال اللذين هما حظ العامة من الإدراك وكما لصعوبة إدراكها على العقول الراجلة غير المتدربة في المعارف الحقة .

واختصاص نيلها بالأقلين من الناس وحرمان الأكثرين من ذلك وهي دين إنساني أول المحذور فإن الفطرة أنشأت العالم الإنساني مغروزة على الاجتماع المدني ، وانفصال بعضهم عن بعض في سنة الحياة وهي الدين إلفاء لسنة الفطرة وطريقة الخلقة .

على أن في ذلك تركاً لطريق العقل وهو أحد الطرق الثلاث: الوحي والكشف

(١) قال شيت استر : « اعمل الصالحات لتلك الذات النورانية الى أي ملك اقدم القربان وأترك

تلك الذات الظاهرة ؟ » أوبانيشاد شيت استر . ادعيا الرابع آية ١٣ .

(٢) وهذا كثير الورود في فصول أوبانيشاد يثر عليه المراجع .

والعقل ، وأعمها وأهمها بالنظر الى حياة الإنسان الدنيوية فالوحي لا يناله إلا أهل العصمة من الأنبياء المكرمين ، والكشف لا يكرم به إلا الآحاد من أهل الإخلاص واليقين ، والناس حتى أهل الوحي والكشف في حاجة مبرمة الى تعاطي الحجة العقلية في جميع شؤون الحياة الدنيوية ولا غنى لها عن ذلك ، وفي إهمال هذا الطريق تسليط التقليد الإجباري على جميع شؤون المجتمع الحيوية من اعتقادات وأخلاق وأعمال ، وفي ذلك سقوط الإنسانية .

على أن في ذلك إنفاذاً لسنة الاستعباد في المجتمع الإنساني ويشهد بذلك التجارب التاريخية المديد في الأمم البشرية التي عاشت في دين الوثنية او جرت فيهم سنن الاستعباد باتخاذ أرباب من دون الله .

٢ - سرعان هذه المحاذير الى سائر الأديان :

الأديان العامة الاخر على ما فيها من القول بتوحيد الالهية لم تسلم من شرك العبادة فساقهم ذلك الى الابتلاء بعين ما ابتليت به الوثنية البرهمية من المحاذير التي أهمها الثلاثة المتقدمة .

أما البوذية والصابئة فذلك فيهم ظاهر والتاريخ يشهد بذلك ، وقد تقدم شيء مما يتعلق بمقائدهم وأعمالهم .

وأما المجوس فهم يوحّدون «أهورا مزدا» بالالهية لكنهم يخضعون بالتقديس ليزدان وأهرمين والملائكة الموكلين بشؤون الربوبية وللشمس والنار وغير ذلك ، والتاريخ يقصّ ما كانت تجري فيهم من سنة الاستعباد واختلاف الطبقات والتدبر والاعتبار يقضي أنه إنما تسرّب ذلك كله اليهم من ناحية تحريف الدين الاصيل ، وقد ورد عن النبي ﷺ فيهم : « أنه كان لهم نبي فقتلوه وكتاب فأحرقوه » .

وأما اليهود فالقرآن يقصّ كثيراً من أعمالهم وتحريفهم كتاب الله واتخاذهم العلماء أرباباً من دون الله ، وما ابتلاه الله به من انتكاس الفطرة ورداءة السليقة .

وأما النصارى فقد فصلنا القول فيما انحرفوا فيه من النظر والعمل في الجزء الثالث من الكتاب فراجع وإن شئت فطبّق مفتاح إنجيل يوحنا ورسائل بولس على سائر الأناجيل وتممه بمراجعة تاريخ الكنيسة فالكلام في ذلك طويل .

فالبعث العميق في ذلك كله ينتج أن المصائب العامة في المجتمعات الدينية في العالم الإنساني من موارث الوثنية الأولى التي أخذت المعارف الإلهية والحقائق العالية الحقيقة مكشوفة القناع مهتوكة الستر فجعلتها أساس السنن الدينية ، وحملتها على الأفهام العامة التي لا تأنس إلا بالحس والمحسوس فانتج ذلك ما أنتج .

٣ - إصلاح الاسلام لهذه المفاصل :

أما الإسلام فإنه أصلح هذه المفاصل إذ قلب هذه المعارف العالية في قالب البيان الساذج الذي يصلح لهضم الأفهام الساذجة والعقول العادية فصارت تلامسها من وراء حجاب وتتناولها ملفوفة مخفوفة ، وهذا هو الذي يصلح به حال العامة ، وأما الخاصة فإنهم ينالونها مسفرة مكشوفة في جمالها الرائع وحسنها البديع آمنين مطمئنين وهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، قال الله تعالى : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ ، وقال : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » الواقعة : ٧٩ ، وقال النبي ﷺ : « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » .

وعالج غائلة الشرك والوثنية في مرحلة التوحيد بنفي الاستقلال في الذات والصفات عن كل شيء إلا الله سبحانه فهو تعالى القيوم على كل شيء ، وركز الأفهام في معرفة الألوهية بين التشبيه والتنزيه فوصفه تعالى بأن له حياة لكن لا كحياتنا ، وعلم لا كعلمنا ، وقدرة لا كقدرتنا ، وسمع لا كسمعنا ، وبصر لا كبصرنا ، وبالجملة ليس كمثله شيء وأنه أكبر من أن يوصف ، وأمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولاً إلا عن علم ، ولا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجة عقلية يهضمها عقولهم وأفهامهم .

فوفق بذلك أولاً لعرض الدين على العامة والخاصة شرعاً سواء ، وثانياً أن استعمل العقل السليم من غير أن يترك هذه الموهبة الإلهية سدى لا ينتفع بها ، وثالثاً أن قرب بين الطبقات المختلفة في المجتمع الإنساني غاية ما يمكن فيها من التقريب من غير أن ينعم على هذا ويحرم ذاك أو يقدم واحداً ويؤخر آخر قال تعالى : « إن

هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، الأنبياء : ٩٢ وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، الحجرات : ١٣ .

وهذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول في أطرافه في أبحاث متفرقة تقدمت في هذا الكتاب والله المستعان .

٤ - ربما يظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبي وآله المعصومين صلوات الله عليهم ومسألته تعالى بحقهم وزيارة قبورهم وتقيلها والتبرك بتربتهم وتعظيم آثارهم من الشرك المنهي عنه وهو الشرك الوثني محتجاً بأن هذا النوع من التوجه العبادي فيه إعطاء تأثير ربوبي لغيره تعالى وهو شرك وأصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم : إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله . وقولهم : إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى ، ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبياً أو ولياً أو جباراً من الجبابرة أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهي عنه .

وقد فاتهم أولاً : أن ثبوت التأثير سواء كان مادياً أو غير مادي في غيره تعالى ضروري لا سبيل إلى إنكاره ، وقد استند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره ، ونفي التأثير عن غيره تعالى مطلقاً يستلزم إبطال قانون العلية والمعلولية العام الذي هو الركن في جميع أدلة التوحيد ، وفيه هدم بنيان التوحيد . نعم المنفي من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير ولا كلام لأحد فيه ، وأما نفي مطلق التأثير ففيه إنكار بديهية العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية .

ومن يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ وقوله : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ .

أويسأل الله بجاههم ويقسمه بحقهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقاً : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » الصافات : ١٧٣ وقوله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » المؤمن : ٥١ .

أو يعظمهم ويظهر حبهم بزيارة قبورهم وتقيلها والتبرك بتربتهم بما أنهم آيات

الله وشعائره تمسكاً بمثل قوله تعالى: « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب »
الحج : ٣٢ ، وآية القربى وغير ذلك من كتاب وسنة .

فهو في جميع ذلك يبتغي بهم الى الله الوسيلة وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » المائدة : ٣٥ فشرع به ابتغاء الوسيلة ، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل اليه ، ولا معنى لإيجاب حب شيء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب الى الله بحبهم وتعظيم أمرهم ومسا لذلك من الآثار اذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير والعبادة البتة .

وثانياً: أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب الى الله ، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم اليه ففي الصورة الاولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادة لغيره تعالى وهو الشرك في العبودية والعبادة ، وفي الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى ويختص العبادة به وحده لا شريك له .

وإنما ذم تعالى المشركين لقولهم : « إنما نعبدكم ليقربونا الى الله زلفى » حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه ، ولو قالوا : إنما نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأوليائؤه بإذنه أو نتوسل الى الله بتعظيم شعائره وحب أوليائه ، لما كفرنا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الاسلام هي وجهة وليست بعبودة ، وإنما يعبد بالتوجه اليها الله .

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الأسود وما شرع في الاسلام من استلامه وتقبيله ؟ وكذا في الكعبة ؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة ؟ فالحكم حكم ضروري عقلي لا يقبل تحصيلاً ولا استثناء ، أو أن ذلك من عبادة الله محضاً وللحجر حكم الطريق والجهة ، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره اذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة ، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبي ﷺ وحبه ومودته وحب أهل بيته وموالاتهم وغير ذلك في محلها .

* * *

وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ
 غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ - ٥٠ . يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن
 أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ - ٥١ . وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
 قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ - ٥٢ . قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
 نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ - ٥٣ . إِن
 نَقُولُ إِلَّا ائْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا
 إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ - ٥٤ . مِّنْ ذُوْنِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
 تُنْظِرُونِ - ٥٥ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ
 آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ - ٥٦ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
 أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
 تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ - ٥٧ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
 نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ
 غَلِيظٍ - ٥٨ . وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا
 أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ - ٥٩ . وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ - ٦٠ .

(بيان)

تذكر الآيات قصة هود النبي وقومه وهم عاد الأولى ، وهو عليه السلام أول نبي يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح عليه السلام ، ويشكر مسماء في إقامة الدعوة الحقّة والانتهاض على الوثنية ، ويعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود ، قال تعالى في عدة مواضع من كلامه : « قوم نوح وعاد وثمود » .

قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هوداً » كان أخاهم في النسب لكونه منهم وأفراد القبيلة يسمون إخوة لانتسابهم جميعاً إلى أب القبيلة ، والجملة معطوفة على قوله تعالى سابقاً : « نوحاً إلى قومه » والتقدير : « ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً » ولعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل : « وإلى عاد أخاهم » الخ ، ولم يقل : وهوداً إلى عاد مثلاً كما قال : « نوحاً إلى قومه » لأن دلالة الظرف أعني : « إلى عاد » على تقدير الإرسال أظهر وأوضح .

قوله تعالى : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » الكلام وارد مورد الجواب كأن السامع لما سمع قوله : « وإلى عاد أخاهم هوداً » قال : فماذا قال لهم ؟ فقيل : « قال يا قوم اعبدوا الله » الخ ، ولذا جيء بالفصل من غير عطف .

وقوله : « اعبدوا الله » في مقام الحصر أي اعبدوه ولا تعبدوا غيره من آلهة اتخذتموها أرباباً من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى . والدليل على الحصر المذكور قوله بعد : « ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهة يعبدونها افتراء على الله بالشركة والشفاعة .

قوله تعالى : « يا قوم لا أسألكم عليه أجراً » إلى آخر الآية ، قال في المجمع الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر ، ومنه فطر الله الخلق لانه بمنزلة ما شق منه فظهر . انتهى ، وقال الراغب : أصل الفطر الشق طولاً يقال : فطر فلان كذا فطراً وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً - إلى أن قال - وفطر الله

الخلق وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله : فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته ، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله . انتهى .

والظاهر أن الفطر هو الإيجاد عن عدم بحث ، والخصوصية المفهومة من مثل قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » إنما نشأت من بناء النوع الذي تشتمل عليه فطرة وهي فعلة ، وعلى هذا فتفسير بعضهم الفطرة بالخلقة بعيد من الصواب ، وإنما الخلق هو إيجاد الصورة عن مادة على طريق جمع الأجزاء ، قال تعالى : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » المائدة : ١١٠ .

والكلام مسوق لرفع التهمة والعبث والمعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً وجزاء حتى تتهموني أنني أستدر به نفعاً يعود إلي وإن أضرت بكم ، ولست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثاً من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذي أوجدني وأبدعني أفلا تعقلون عني ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنني ناصح لكم في دعوتي ، ما أريد إلا أن أحملكم على الحق .

قوله تعالى : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » إلى آخر الآية تقدم الكلام في معنى قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » في صدر السورة .

وقوله : « يرسل السماء عليكم مدراراً » في موقع الجزاء لقوله : « استغفروا ربكم » الخ ، أي أن تستغفروه وتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، والمراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا وأظلم فهو سماء ، وقيل المطر وهو شائع في الاستعمال ، والمدرار مبالغة من الدر ، وأصل الدر اللبن ثم استعير للمطر ولكل فائدة ونفع فإرسال السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعة نافعة تحيي بها الأرض وينبت الزرع والعشب ، وتنضرب بها الجنات والبساتين .

وقوله : « ويزدكم قوة إلى قوتكم » قيل المراد بها زيادة قوة الإيمان على قوة الأبدان وقد كان القوم أولي قوة وشدة في أبدانهم ولو أنهم آمنوا انضافت

قوة الإيمان على قوة أبدانهم ، وقيل المراد بها قوة الأبدان كما قال نوح لقومه :
« استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال
وبنين » نوح : ١٢ ولعل التعميم أولى .

وقوله : « ولا تتولوا مجرمين » بمنزلة التفسير لقوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا
إليه » أي إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهة دون الله إجرام منكم ومعصية توجب
نزول السخط الإلهي عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم وارجعوا إليه بالإيمان حتى
يرحمكم بإرسال سحب هائلة ممطرة وزيادة قوة إلى قوتكم .

وفي الآية « أولاً » إشعار أو دلالة على أنهم كانوا مبتلين بإمساك السماء والجذب
والسنة كما ربما أوما إليه قوله : « يرسل السماء » وكذا قولهم على ما حكاه الله تعالى
في موضع آخر : « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل
هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » الأحقاف : ٢٤ .

وثانياً : أن هناك ارتباطاً تاماً بين الأعمال الانسانية وبين الحوادث الكونية
التي تسمه فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات ، والأعمال الطالحة
تستدعي تتابع البلايا والمحن ، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة كما يشير إليه قوله
تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »
الآية الأعراف : ٩٦ ، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه في بيان الآيات ٩٤ - ١٠٢
من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب ، وفي أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه .

قوله تعالى : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك
وما نحن لك بمؤمنين » سألهم هود في قوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره » إلى آخر الآيات الثلاث أمرين هما أن يتركوا آلهتهم ويعودوا إلى عبادة الله
وحده وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم فردّوا عليه القول بما في هذه الآية
إجمالاً وتفصيلاً :

أما إجمالاً فبقولهم : « ما جئتنا ببينة » يعنون أن دعوتك خالية عن الحجة
والآية المعجزة ولا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه .

وأما تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إياهم إلى رفض الشركاء بقولهم : « وما

نحن بتاركي آلهتنا عن قولك « وعن دعوته إياهم الى الايمان والطاعة بقولهم : « وما نحن لك بمؤمنين » فأيسوه في كلتا المسألتين .

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي لياس من إجابتهم بالمرّة فقالوا : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » والاعتراء الاعتراض والإصابة يقولون : إنما نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل والجنون لشتمك إياها وذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوهت به في صورة الدعوة .

قوله تعالى : « قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » أجاب هود عليه السلام عن قولهم باظهار البراءة من شركائهم من دون الله ثم التحدي عليهم بأن يكيدوا به جميعاً ولا ينظروه .

فقوله : « إني بريء مما تشركون من دونه » إنشاء وليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبري ، ولا ينافي ذلك كونه بريئاً من أول أمره فإن التبرز بالبراءة لا ينافي تحقيقها من قبل ، وقوله : « فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » أمر ونهي تعجيزيان .

وإنما أجاب عليه السلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه عليه السلام بسوء مع تبرّزه بالبراءة ، ولو كانت آلهة ذات علم وقدره لقهرته وانتقمته منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء وهذه حجة بينة على أنها ليست بآلهة وعلى أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه ، ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرّون عليه بقتل أو تنكيل مع كونهم ذوي شدة وقوة لا يعادلهم غيرهم في الشدة والبطش ، ولولا أنه نبي من عند الله صادق في ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب أو دفع .

ومن هنا يظهر وجه إشهاده عليه السلام في تبريه ربه سبحانه وقومه أما إشهاده الله فليكون تبريه على حقيقته وعن ظهر القلب من غير تزويق ونفاق ، وأما إشهاده إياهم فليعلموا به ثم يشاهدوا ما يجري عليه الأمر من سكوت آلهتهم وعجز أنفسهم من الانتقام منه ومن تنكيله .

وظهر أيضاً صحّة ما احتمله بعضهم أن هذا التعجيز هو معجزة هود عليه السلام ذلك أن ظاهر الجواب أن يقطع به ما ذكر من الرد في صورة الحجة ، وفيها

قولهم : « ما جئتنا ببينة » ومن المستبعد جداً أن يهمل النبي هود عليه السلام في دعوته وحجته التعرض للجواب عنه مع كون هذا التحدي والتعجيز صالحاً في نفسه لأن يتخذ آية معجزة كما أن التبري من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهة من دون الله وعن أن بعض آلهتهم لم يعتره بسوء .

فالحق أن قوله : « إني أشهد الله واشهدوا » إلى آخر الآيتين مشتمل على حجة عقلية على بطلان ألوهية الشركاء ، وعلى آية معجزة لصحة رسالة هود عليه السلام . وفي قوله « جميعاً » إشارة إلى أن مراده تعجيزهم وتعجيز آلهتهم جميعاً فيكون أتم دلالة على كونه على الحق وكونهم على الباطل .

قوله تعالى : « إني توكلت على الله ربي وربكم » إلى آخر الآية . لما كان الأمر الذي في صورة التعجيز صالحاً لأن يكون بداعي إظهار عجز الخصم وعدم قدرته ، وصالحاً لأن يصدر بداعي أن الأمر لا يخاف الخصم وإن كان الخصم قادراً على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويله وإكراهه على الطاعة وحمله على ما يريد منه كقول السحرة لفرعون : « فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » طه : ٧٢ .

وكان قوله : « فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » محتملاً لأن يكون المراد به إظهار أنه لا يخافهم وإن فعلوا به ما فعلوا ، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله : « إني توكلت على الله ربي وربكم » فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبتر أمره وأمرهم ثم عقبه بقوله : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعاً قاهر لهم يحكم على سنة واحدة هي نصرته الحق وإظهاره على الباطل إذا تقابلا وتغالبوا .

فتبرئيه من أصنامهم وتمجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله : « فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » ثم لبثه بينهم في عافية وسلامة لا يمسه بسوء ولا يستطيعون أن ينالوه بشر آية معجزة وحجة سماوية على أنه رسول الله اليهم .

وقوله : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » الدابة كل ما يدب في الأرض من أصناف الحيوان ، والأخذ بالناصية كناية عن كمال

السلطة ونهاية القدرة ، وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليفة واحدة ثابتة غير متغيرة وهو تدبير الامور على منهاج العدل والحكمة فهو يحق الحق ويبطل الباطل إذا تعارضا .

فالمعنى إني توكلت على الله ربي وربكم في نجاح حجاجي التي ألقيتها اليكم وهو التبرز بالبراءة من آلهتكم وأنكم وآلهتكم لا تضروني شيئا فإنه المالك ذو السلطنة علي وعليكم وعلى كل دابة ، وسنته العادلة ثابتة غير متغيرة فسوف ينصر دينه ويحفظني من شركم .

ولم يقل : « إن ربي وربكم على صراط مستقيم » على وزان قوله : « على الله ربي وربكم » فإنه في مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم ، وهو يأخذه تعالى رباً بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعبده رباً لنفسه ويستمسك برابطة المبودية التي بينه وبين ربه حتى ينجح طلبته ، وهذا بخلاف مقام قوله : « توكلت على الله ربي وربكم » فإنه يريد هناك بيان عموم السلطة والاحاطة .

قوله تعالى : « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم » وهذه الجملة من كلامه عليه السلام ناظر الى قولهم في آخر جهادهم : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به ودائنون على الجحد ، والمعنى إن تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بي والإطاعة لأمري فقد أبلغتكم رسالة ربي وتمت عليكم الحجة ولزمتكم البلية .

قوله تعالى : « ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ » هذا وعيد وإخبار بالتبعة التي يستتبها إجرامهم ، فإنه كان وعدم ان يستغفروا الله ويتوبوا اليه أن يرسل السماء عليهم مدراراً ويزيد قوة الى قوتهم ، ونهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد .

وقوله : « ويستخلف ربي قوماً غيركم » اي يجعل قوماً غيركم خلفاء في الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفة منه في الأرض كما قال تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، وقد كان عليه السلام يبين لهم أنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم

نوح وزادكم في الخلق بسطة « الآية ، الأعراف : ٦٩ .

وظاهر السياق أن الجملة الخبرية معطوفة على أخرى مقدّرة ، والتقدير : وسينذهب بكم ربي ويستخلف قوماً غيركم على حد قوله : « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » الأنعام : ١٣٣ .

وقوله : « ولا تضرّونه شيئاً » ظاهر السياق أنه تنمة لما قبله أي لا تقدرون على إضراره بشيء من الفوت وغيره إن أراد أن يهلككم ولا أن تعذيبكم وإهلاككم يفوت منه شيئاً مما يريد فإذن ربي على كل شيء حفيظ لا يعزب عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت ؛ وللمفسرين في الآية وجوه أخر بعيدة عن الصواب أعرضنا عنها .

قوله تعالى : « ولما جاء أمرنا نجّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجّيناهم من عذاب غليظ » المراد بمجيء الأمر نزول العذاب وبوجه أدقّ صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول وبين قومه كما قال تعالى : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون » المؤمن : ٧٨ .

وقوله : « برحمة منّا » الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبة نصرهم في دينهم وإنجاءهم من شمول الغضب الإلهي وعذاب الاستئصال ، قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » المؤمن : ٥١ .

وقوله : « ونجّيناهم من عذاب غليظ » ظاهر السياق أنه العذاب الذي شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبة الى ما قبله ، وقيل : المراد به عذاب الآخرة وليس بشيء .

قوله تعالى : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتّبعوا أمر كل جبار عنيد » الآية وما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصة عاد فأول التلخيص قوله : « وتلك عاد — الى قوله — ويوم القيامة » يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة والموعظة والآية المعجزة التي أبانت لهم طريق الرشd وميّزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم .

وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون الى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود وعصوا بعصيانه سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون » الشعراء : ١٢٤ . ويشعر به أيضاً قوله : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » الأحقاف : ٢١ ، ومن الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود ونوح عليهما السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك .

واتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهام ذلك عن اتباع هود وما كان يدعو اليه ، والجبار العظيم الذي يقهر الناس بإرادته ويكرهمهم على ما أراد والعنيد الكثير العناد الذي لا يقبل الحق ، فهذا ملخص حالهم وهو الجحد بالآيات وعصيان الرسل وطاعة الجبابرة .

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله : « وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة » اي وأتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة وإبعاداً من الرحمة ، ومصادق هذا اللعن العذاب الذي عقبهم فلحق بهم ، او الآثام والسيئات التي تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنتوا سنة الإشراك والكفر لمن بعدهم ، قال تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ .

وقيل : المعنى لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم ، ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم .

وأما اللعنة يوم القيامة فمصادق العذاب الخالد الذي يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير .

وفي تعقيب قوله في الآية : « واتبعوا » بقوله : « وأتبعوا » لطف ظاهر .

قوله تعالى : « ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود » أي كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض وهذا هو التلخيص الثاني الذي أشرنا اليه لخص به

التلخيص الاول فقلوه : « ألا إن عاداً » الخ ، يحاذى به وصف حالهم المذكور في قوله : « وتلك عاد جحدوا » الخ ، وقوله : « ألا بعداً لعاد » الخ ، يحاذى به قوله : « وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة » الخ .

ويتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعة السابقة اللعة الإلهية دون لعن الناس ، والأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثة السابقة وخاصة الوجه الثاني دون الوجه الثالث .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن أبي عمرو السعدي قال : قال علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله : « إن ربي على صراط مستقيم » يعني أنه على حق يحزي بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سيئاً ، ويعفو عن يشاء ويغفر ، سبحانه وتعالى .

أقول : وقد تقدم توضيحه ، وقد ورد في الرواية عنهم عليهم السلام : أن عاداً كانت بلادهم في البادية ، وكان لهم زرع ونخيل كثيرة ، ولهم أعمار طويلة وأجساد طويلة فعبدوا الأصنام ، وبعث الله اليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا . الحديث .

وروي إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنة عن الضحاك أيضاً قال : أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين فقال لهم هود : « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » فأبوا إلا تمادياً ، وقد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشارة إليه .

واعلم أن الروايات في قصة هود وعاد كثيرة إلا أنها تشتمل على أمور لا سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب ولا إلى تأييدها بالاعتبار ولذلك طوينا ذكرها .

وورد أيضاً أخبار آخر من طرق الشيعة وأهل السنة في وصف جنة عاد التي تنسب إلى شداد الملك وهي المذكورة في قوله تعالى : « إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » الفجر : ٨ ، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الفجر .

(كلام في قصة هود)

١ - عاد قوم هود :

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت اخبارهم وانمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمئن اليها وليس في التوراة الموجودة منهم ذكر .

والذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاداً - وربما يسميهم عاداً الاولى (النجم : ٥٠) وفيه إشارة الى أن هناك عاداً ثانية - كانوا قوماً يسكنون الأحقاف ^(١) من شبه جزيرة العرب (الأحقاف : ٢١) بعد قوم نوح (الأعراف : ٦٩).

كانت لهم أجساد طويلة (القمر : ٢٠ ، الحاقة : ١٧) وكانوا ذوي بسطة في الخلق (الأعراف : ٦٩) أولي قوة وبطش شديد (حم السجدة : ١٥ ، الشعراء : ١٣٠) وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة ، لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم (الشعراء وغيرها) ، وناهيك في رقيهم وعظيم مدنياتهم قوله تعالى في وصفهم : **وَالْمِثْقَالُ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ، الْفَجَر : ٨ .**

لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيروا ما بأنفسهم فتعزقت فيهم الوثنية وبنوا بكل ريع آية يعشون واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون وأطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله اليهم أخاهم هوداً يدعوهم الى الحق ويرشدهم الى ان يعبدوا الله ويرفضوا الأوثان ، ويعملوا بالعدل والرحمة (الشعراء : ١٣٠) فبالغ في وعظهم وبث النصيحة فيهم ، وأثار الطريق وأوضح السبيل ، وقطع عليهم العذر فقابلوه بالإباء والامتناع ، وواجهوه بالجحد والإنكار ولم يؤمن به إلا شذمة منهم قليلون وأصرّ جمهورهم على البغي والعناد ، ورموه بالسفه والجنون ، وألحوا عليه بأن ينزل

(١) الأحقاف جمع حقف وهو الرمل المعوج ، والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز واد بين عمان وأرض مهرة وقيل من عمان الى حضرموت وهي رمال مشرفة على البحر بالشعر وقال الضعالك : الأحقاف جبل بالشام (الراصد) .

عليهم العذاب الذي كان يندبرهم ويتوعدهم به قال : إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون (الأحقاف : ٢٣) .

فأنزل الله عليهم العذاب وأرسل اليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (الذاريات : ٤٢) ريحاً صرصراً في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففري القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (الحاقة : ٧) وكانت تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (القمر : ٢٠) .

وكانوا بادية ما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : عارض ممطرنا وقد أخطأوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم (الأحقاف : ٢٥) فأهلكهم الله عن آخرهم وأنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه (هود : ٥٨) .

٢ - شخصية هود المعنوية :

وأما هود عليه السلام فهو من قوم عاد وثاني الانبياء الذين انتهضوا للدفاع عن الحق ودحض الوثنية ممن ذكر الله قصته وما قاساه من الهنة والأذى في جنب الله سبحانه ، وأثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام وأشرك بهم في جميل الذكر عليه سلام الله .

* * *

وَالِإِلَهِ ثُمَّودَ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ - ٦١ . قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ - ٦٢ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَتَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا

تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ - ٦٣ . وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ - ٦٤ .
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ - ٦٥ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِتُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ - ٦٦ .
وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ - ٦٧ . كَانُوا
لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُودَ - ٦٨ .

(بيانات)

تذكر الآيات الكريمة قصة صالح النبي عليه السلام وقومه وهم ثمود ، وهو عليه السلام ثالث الأنبياء القائمين بدعوة التوحيد الناهضين على الوثنية . دعا ثمود الى التوحيد وتحمل الأذى والمهنة في جنب الله حتى قضى بينه وبين قومه بهلاكهم ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين .

قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غير . » تقدم الكلام في نظيرة الآية في قصة هود .

قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » إلى آخر الآية . قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان قال : « هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » . انتهى ، وقال : العبارة ضد الخراب يقال : عمر أرضه يعمرها عمارة قال : « وعمارة المسجد الحرام » يقال : عمرته فعمر فهو معمور قال : « وعمروها أكثر مما عمروها » « والبيت المعمور » وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوضت إليه العمارة قال : « واستعمركم فيها »

انتهى، فالعمارة تحويل الارض الى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترتبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الانسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها .

وعلى ما مرّ يكون معنى قوله : « هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها » — والكلام يفيد الحصر — أنه تعالى هو الذي أوجد على المواد الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثم كملها بالتربية شيئاً فشيئاً وأفطره على أن يتصرف في الأرض بتحويلها الى حال ينتفع بها في حياته ، ويرفع بها ما يتنبه له من الحاجة والنقيصة أي إنكم لا تفتقرون في وجودكم وبقائكم إلا إليه تعالى وتقدس .

فقول صالح : « هو الذي أنشأكم من الارض واستعمركم فيها » في مقام التعليل وحجة يستدل بها على ما ألقاه إليهم من الدعوة بقوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ولذلك جيء بالفصل كأنه قيل له : لم نعبده وحده ؟ فقال : لأنه هو الذي أنشأكم من الارض واستعمركم فيها .

وذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان ويتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون — على مزعتهم — إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم وأرفع وأبعد من أن تناله عبادة أو ترتفع إليه مسألة ، ولا بد للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفة التي فوض إليه أمر هذا العالم الأرضي وتدبير النظام الجاري فيه وتتقرب بالتضرع اليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات ، ولا يسخط علينا ونأمن بذلك الشرور، وهذا الإله الرب بالحقيقة شفيعنا عند الله لأنه إله الآلهة ورب الأرباب ، وإليه يرجع الأمر كله .

فدين الوثنية مبني على انقطاع النسبة بين الله سبحانه وبين الانسان واستقرارها بينه وبين تلك الوسائط الشريفة التي يتوجهون اليها مع استقلال هذه الوسائط في التأثير ، وشفاعتها عند الله .

ولما كان الله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان من الارض واستعمره فيها فهو تعالى ذو نسبة الى الانسان قريب منه ، ولا استقلال لشيء من هذه الأسباب التي

نظمها وأجراها في هذا العالم حتى يرجى منها خير بالإرضاء أو يترقب شر بالإسقاط.
 فإله سبحانه هو الذي يجب أن يعبد فيرجى بذلك رضا ، ويتقي بذلك
 سخطه لمكان أنه هو الخالق للإنسان ولكل شيء المدبر أمره وأمر كل شيء فقوله :
 « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » مسوق لتعليل سابقه والاحتجاج عليه من
 طريق إثبات النسبة بينه تعالى وبين الإنسان ونفي الاستقلال من الأسباب .

ولذلك عقبه بقوله : « فاستغفروه ثم توبوا إليه » على وجه التفريع أي
 فإذا كان الله تعالى هو الذي يجب عليكم أن تعبدوه وتتركوا غيره لكونه هو خالقكم
 المدبر لأمر حياتكم فاسألوه أن يغفر لكم معصيتكم بعبادة غيره ، وارجعوا إليه
 بالإيمان به وعبادته . إنه قريب مجيب .

وقد عُلِّل قوله : « فاستغفروه » الخ ، بقوله : « إن ربي قريب مجيب »
 لأنه استنتج من حجته المذكورة أنه تعالى يقوم بإيجاد الإنسان وتربيته وتدبير أمر
 حياته ، وأنه لا استقلال لشيء من الأسباب العمالة في الكون بل الله تعالى هو
 الذي يسوق هذا إلى هنا ، ويصرف ذلك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الإنسان
 وبين حوائجه وجميع الأسباب العمالة فيها ، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا
 يدركه فهم ولا يناله عبادة وقربان ، وإذا كان قريباً فهو مجيب ، وإذا كان قريباً
 مجيباً وهو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا إليه .

قوله تعالى : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد
 ما يعبد آباؤنا » الخ ، الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله
 وآثاره ، ولا يرجى منها إلا الخير والنفع فكونه مرجواً هو أن يوجد ذا رشد وكمال
 في شخصه وبيته فيستهل منه الخير ويترقب منه النفع ، وقوله : « قد كنت فينا »
 دليل على كونه مرجواً لعامتهم وجمهورهم .

فقولهم : « يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا » معناه أن عمود كانت
 ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحة تنفع بخدماتك مجتمعيهم وتحمل الأمة على
 صراط الترفي والتعالي لما كانت تشاهد فيك من إمارات الرشد والكمال لكنهم يشعرون
 منك ومن رزاة رأيك اليوم بما أبدعت من القول وأقمت من الدعوة .

وقولهم : « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » استفهام إنكاري بداعي المذمة والملامة ، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهائم من إقامة سنة من سنن مليتهم وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة ، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت ، ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة .

والدليل على ما ذكرنا قوله : « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » الدال على معنى العبادة المستمرة باتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء ولم يقل : أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ؟ والفرق بين التعبيرين من جهة المعنى واضح .

ومن هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار وغيره قوله : « أن نعبد ما يعبد آباؤنا » بقولهم : « أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا » من الخطأ .

وقوله : « وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » حجة ثانية لهم في رد دعوة صالح عليه السلام ، وحجتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآية ومحصلها أن ما تدعو إليه من رفض عبادة الأصنام بدعة منكورة تذهب بسنة ثمود المقدسة وتهدم بنيان مليتهم ، ونميت ذكرهم فعلياً أن تروده ، والثانية أنك لم تأت بحجة بيّنة على ما تدعو إليه ثورث اليقين وتميط الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعونا إليه وليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شك منا فيه .

والإرابة الاتهام وإساءة الظن يقال : رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك وأرابني كذا إرابة إذا حملك على اتهامه وسوء الظن به .

قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة » إلى آخر الآية . المراد بالبينة الآية المعجزة وبالرحمة النبوة ، وقد تقدم الكلام في نظير الآية من قصة نوح عليه السلام في السورة .

وقوله : « فمن ينصرني من الله إن عصيته » جواب الشرط ، وحاصل المعنى : أخبروني إن كنت مؤيداً بسآية معجزة تنبيء عن صحة دعوتي وأعطاني الله الرسالة فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله ويدفع عني إن أطعتمكم فيما تسألون ووافقتكم فيما تريدونه مني وهو ترك الدعوة .

ففي الكلام جواب عن كلتا حجتيهم واعتذار عما لاموه عليه من الدعوة المبتدعة .

وقوله : « فما تريدونني غير تحسير » تفريع على قوله السابق الذي ذكره في مقام دحض الحجتين والاعتذار عن مخالفتهم والقيام بدعوتهم الى خلاف سنتهم القومية فالمعنى فما تريدونني في حرصكم على ترك الدعوة والرجوع اليكم وللحقوق بكم غير أن تخسروني فما مخالفة الحق إلا خسارة .

وقيل : المراد أنكم ما تريدونني في قولكم : أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ غير نسبي إياكم الى الخسارة . وقيل : المعنى ما تريدونني إلا بصيرة في خسارتكم والوجه الأول أوجه .

قوله تعالى : « ويا قوم هذه ناقه الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » إضافة الناقة الى الله إضافة تشريف كبيت الله وكتاب الله . وكانت الناقة آية معجزة له عليه السلام تؤيد نبوته ، وقد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله ، وقال لهم : إنها تأكل في أرض الله محررة ، وحذرهم أن يمسوها بسوء أي يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل . وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل ، وهذا معنى الآية .

قوله تعالى : « فمقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » عقر الناقة نحرها ، والدار هي المكان الذي يبنيه الانسان فيسكن فيه ويأوى اليه هو وأهله ، والمراد بها في الآية المدينة سميت داراً لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها ، وقيل المراد بالدار الدنيا ، وهو بعيد .

والمراد بتمتعهم في مدينتهم العيش والتنعم بالحياة لأن الحياة الدنيا متاع يتمتع به ، او الالتذاذ بأنواع النعم التي هيؤها فيها من مناظر ذات بهجة والأثاث والمأكول والمشروب والاسترسال في أهواء أنفسهم .

وقوله : « ذلك وعد غير مكذوب » الإشارة الى قوله : « تمتعوا » الخ ، و « وعد غير مكذوب » بيان له .

قوله تعالى : « ولما جاء أمرنا نجينا صالحاً » الى آخر الآية . أما قوله : « ولما

جاء أمرنا نجينا صالحاً. والذين آمنوا معه برحمة منا ، فقدّم تقدّم الكلام في مثله في قصة هود .

وأما قوله : « ومن خزّي يومئذ ، فمعطوف على محذوف والتقدير نجيناهم من العذاب ومن خزّي يومئذ ، والخزّي الميب الذي تظهر فضيخته ويستحيى من إظهاره او أن التقدير : نجيناهم من القوم ومن خزّي يومئذ على حدّ قوله : « ونجّني من القوم الظالمين » .

وقوله : « إن ربك هو القوي العزيز » في موضع التعليل لمضمون صدر الآية وفيه التفات من التكلم بالغير الى الغيبة ، وقد تقدّم نظيره في آخر قصة هود في قوله : « ألا إن عادا كفروا ربهم » والوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدل به على خروجهم من زي المبودية وكفرهم بالربوبية وكفرانهم نعم ربهم .

قوله تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصبغة فأصبحوا في ديارهم جائنين » يقال : جثم جثوماً اذا وقع على وجهه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « كان لم يغنوا فيها » غني بالمكان أي أقام فيه ، والضمير راجع الى الديار .

قوله تعالى : « ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود » الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصة فالجملة الاولى تلخيص ما انتهى اليه أمر ثمود ودعوة صالح عليه السلام ، والثانية تلخيص ما جازاهم الله به ، وقد تقدم نظيرة الآية في آخر قصة هود .

(بحث روائي)

في الكافي مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا اذا لقي ضلال وسمر » قال : هذا فيما كذبوا صالحاً ، وما أهلك الله عز وجل قوماً قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم .

فبعث الله اليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى

تخرج اليها من هذه الصخرة ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويحتمعون عندها ، فقالوا : إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه .

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم : إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فلإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى ماثم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فكنثوا بذلك ما شاء الله .

ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال : اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم . ثم قالوا : من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب ؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له : قدار شقي من الأشقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً .

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت توده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعدها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرت على الأرض على جنبها ، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغاً ثلاث مرات إلى السماء ، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته ، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها .

فلما رأى ذلك صالح أقبل اليهم وقال : يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم ؟ أعصيت أمر ربكم ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح ~~عليه السلام~~ : إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله اليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر وكان لهم أعظم المنفعة فقل لهم : إني مرسل اليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم ، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت اليهم عذابي في اليوم الثالث .

فأتاهم صالح وقال : يا قوم إني رسول ربكم اليكم وهو يقول لكم : إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم ؛ فلما قال لهم ذلك [قالوا ظ] كانوا

أعق ما قالوا وأخبت وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين

قال : يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني وجوهكم حمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم الى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة منهم : لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً . فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم حمرة فمشى بعضهم الى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا وجوههم مسودة فمشى بعضهم الى بعض فقالوا : يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم : قد أتانا ما قال لنا صالح .

فلما كان نصف الليل اتهم جبرئيل فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا جميعاً في طرفة عين : صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجهم موتى فأرسل الله اليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين ، وكانت هذه قصتهم .

أقول : واشتمال الحديث على أمور خارقة للعادة كشرب الناس جميعاً من لبن الناقة وكذا تغير ألوان وجوههم يوماً فيوماً لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز ، وقد نص القرآن الكريم بذلك ، وبأنها كانت لها شرب يوم ولأهل المدينة كلهم شرب يوم معلوم .

وأما كون الصيحة من جبرئيل فلا ينافي كونها صاعقة سماوية نازلة عليهم اماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها الى ملك روحاني اذا كان هو في مجرى صدورهم كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة الى الملائكة العاملة وقوله عليه السلام : إنهم قد كانوا في الثلاثة الايام قد تحنطوا وتكفنوا كأنه كناية عن تهيؤهم للموت .

وقد وقع في بعض الروايات في وصف الناقة أنه كانت بين جنبهيا مسافة ميل وهو مما يوهن الرواية لا لاستحالة وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهة أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبة بين أعضائها حينئذ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثة أميال ولا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتله بسيفه ولم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقة قطعاً، ومع ذلك لا يخلو قوله تعالى: «لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم» من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمة جداً.

(كلام في قصة صالح في فصول)

١ - ثمود قوم صالح عليه السلام : ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام ، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم ، ولقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم .

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أمة من العرب على ما يدل عليه اسم نبيهم وقد كان منهم (هود : ٦١) نشأوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمنين (الأعراف : ٧٤) ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنّات والتخيل والحرف (الشعراء : ١٤٨) .

كانت ثمود تعيش على سنة الشعوب والقبائل يحكم فيهم ساداتهم وشيوخهم وقد كانت في المدينة التي بعث فيها صالح تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون (النمل : ٤٨) فطفوا في الأرض وعبدوا الأصنام وأفرطوا عتواً وظلماً .

٢ - بعثة صالح عليه السلام : لما نسيت ثمود ربها وأسرفوا في أمرهم أرسل الله اليهم صالحاً النبي ﷺ وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاية (هود ٦٢ - النمل ٤٩) فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والإحسان ، ولا يعملوا في الأرض ولا يسرفوا ولا يطفوا وأنذرهم بالعذاب (هود - الشعراء - الشمس وغيرها) .

فقام ﷺ بالدعوة الى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من ضعفاءهم (الأعراف : ٧٥) وأما الطغاة المستكبرون وعامة من تبعهم فأصروا على كفرهم واستدلوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر (الأعراف ٦٦ - الشعراء ١٥٣ - النمل ٤٧) .

وطلبوا منه البينة على مقاله ، وسألوه آية معجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة ، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة فأتاهم بناقاة على ما وصفوها به ، وقال لهم : إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفّسوا عنها يوماً فتشربها الناقة فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، وأن تذروها تأكل في أرض الله كيف شاءت ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (الأعراف ٧٢ - هود ٦٤ - الشعراء ١٥٦) .

وكان الأمر على ذلك حيناً ثم إنهم طغوا ومكروا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فمقرها ، وقالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال صالح ﷺ : تتمعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (هود ٦٥) .

ثم مكرت شعوب المدينة وأرهابها بصالح وتقاسموا بينهم لنبيّنته وأهله ثم نقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ومكر الله مكراً وهم لا يشعرون (النمل ٥٠) فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (الذاريات ٤٤) والرجفة والصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (الأعراف ٧٩ - هود ٦٧) وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون (حم السجدة ١٨) ونادى بعدهم المنادي الإلهي : ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود .

٣ - شخصية صالح عليه السلام : لم يرد لهذا النبي الصالح في التوراة الحاضرة ذكر . كان ﷺ من قوم ثمود ثالث الانبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية يذكره الله تعالى بعد نوح وهود ، ويحمده ويشني عليه بما أثنى به على انبيائه ورسله ، وقد اختاره وفضله كسائرهم على العالمين عليه وعليهم السلام .

* * *

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قُلْنَا
 لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ - ٦٩ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ
 نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ
 لُوطٍ - ٧٠ . وَأَمْرُهُ فَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
 إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ - ٧١ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
 شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ - ٧٢ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ
 اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ - ٧٣ . فَلَمَّا ذَهَبَ
 عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ - ٧٤ .
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ - ٧٥ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ - ٧٦ .

(بيان)

تتضمن الآيات قصة بشرى إبراهيم عليه السلام بالولد ، وإنها كالتوطئة لما سيذكر
 بعده من قصة ذهاب الملائكة الى لوط النبي عليه السلام لإهلاك قومه فإن تلك القصة
 ذيل هذه القصة وفي آخر قصة البشرى ما يتبين به وجه قصة الإهلاك وهو قوله :
 « إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » الآية .

قوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » الى آخر الآية ، البشرى
 هي البشارة ، والعجل ولد البقرة ، والحنيذ فاعيل بمعنى المفعول أي المهنود وهو

اللحم المشوي على حجارة محما بالنار كما أن القديد هو المشوي على حجارة محما بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين ، وذكر بعضهم أنه المشوي الذي يقطر ماء وسمناً ، وقيل : هو مطلق المشوي ، وقوله تعالى في سورة الذاريات في القصة : « فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين » لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني .

وقوله : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » معطوف على قوله سابقاً : « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه » قال في الجمع : وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر ومعنى قد هنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . انتهى .

والرسل هم الملائكة المرسلون الى إبراهيم للبشارة والى لوط لإهلاك قومه وقد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع - الرسل - على ذلك ، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام ، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي . والبشرى التي جاءت بها الرسل لإبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة ، والتي ذكرت فيها منها هي البشارة لامرأته ، وإنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر والذاريات ، ولم يصرح فيها باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليهم السلام أو أنهم بشروه بكليهما ؟ وظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق ، وسيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة .

وقوله : « قالوا سلاماً قال سلام » أي تسالمواهم وإبراهيم فقالوا : سلاماً أي سلمنا عليك سلاماً ، وقال إبراهيم : سلام أي عليكم سلام .

والسلام الواقع في تحية إبراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على أن المراد به الجنس أو أن له وصفاً محذوفاً للتفخيم ومزيد التكريم والتقدير : عليكم سلام ذاك طيب أو ما في معناه ، ولذا ذكر بعض المفسرين : أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حيّاهم بأحسن من تحيتهم فبالغ في إكرامهم ظلماً منه أنهم ضيف .

وقوله : « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » اي ما أبطأ في أن قدم اليهم عجلاً مشوياً يقطر ماء وسمناً وأسرع في ذلك ،

قوله تعالى : « فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرمهم وأوجس منهم خيفة » عدم وصول أيديهم اليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم الى الطعام ، وذلك أماراة العداوة وإضمار الشر ، ونكرمهم وأنكرمهم بمعنى واحد وإنما كان أنكرمهم لإنكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود .

والإيجاس الخطور القلبي ، قال الراغب : الوجس الصوت الخفي ، والتوجس التسمع ، والإيجاس وجود ذلك النفس قال : وأوجس منهم خيفة ، والواجس قالوا : هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر . انتهى . فالجمل من الكناية كأن لطروق الخيفة - وهو النوع من الخوف - وخطوره في النفس صوتاً تسمع بالسمع القلبي ، والمراد أنه استشعر في نفسه خوفاً ولذلك أمثوه وطيبوا نفسه بقولهم : « لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط » .

ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام لما قدم اليهم العجل المشوي رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل - وذلك أماراة الشر - استشعر في نفسه منهم خوفاً قالوا تأمينا له وتطيبياً لنفسه : لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط فسلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل والشرب وما يناظر ذلك من لوازم البدن المادية ، وأنهم مرسلون لخطب جليل .

ونسبة استشعار الخوف الى إبراهيم عليه السلام لا ينافي ما كان عليه من مقام النبوة الملازم للعصمة الإلهية من المعصية والردائل الخلقية فإن مطلق الخوف وهو تأثر النفس عن مشاهدة المكروه التي تبعثها الى التحذر منه والمبادرة الى دفعه ليس من الردائل ، وإنما الرذيلة هي التأثر الذي يستوجب بطلان مقاومة النفس وظهور العي والفزع والذهول عن التدبير لدفع المكروه وهو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثر عن مشاهدة المكروه مطلقاً وهو المسمى تهوراً ليس من الفضيلة في شيء .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانية التي تظهر في النفوس

ومنها التأثير والانفعال عند مشاهدة المكروه والشر كالشوق والميل والحب وغير ذلك عند مشاهدة المحبوب والخير عبثاً باطلاً فإن جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها ، وعليه يدور رضى الوجود في نظامه العام .

ولما كان هذا النوع المسمى بالإنسان إنما يسير في مسير بقائه بالشعور والارادة كان عمل الجلب والدفع فيه مترشحاً عن شعوره وإرادته ، ولا يتم إلا عن تأثر نفسي يسمي في جانب الحب ميلاً وشهوة وفي جانب البغض والكراهة خوفاً ووجلاً .

ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانية الباطنة ربما ساقط الإنسان الى أحد جانبي الإفراط والتفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغي وهو فضيلة الشجاعة كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب الى ما ينبغي على ما ينبغي ، وهو فضيلة العفة وهما حد الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، وأما انتفاء التأثير بأن يلقي الإنسان بنفسه الى التهلكة الصريحة في باب الدفع وهو التهور ، أولاً تنزع نفسه الى شيء مطلوب قط في باب الجلب والشهوة وهو الخمول وكذا بلوغ التأثير من القوة الى حيث ينسى الإنسان نفسه ويذهل عن واجب رأيه وتدبيره فيجزع عن كل شبح يتراعى له في باب الدفع وهو الجبن او ينكب على كل ما تهواه نفسه وتشتهيه كالبهيمة على علقها في باب الشهوة وهو الشره فجميع هذه من الرذائل .

والذي آثر الله سبحانه به انبياءه من العصمة إنما يثبت في نفوسهم فضيلة الشجاعة دون التهور ، وليست الشجاعة تقابل الخوف الذي هو مطلق التأثير عن مشاهدة المكروه ، وهو الذي يدعو النفس الى القيام بواجب الدفع ، وإنما تقابل الجبن الذي هو بلوغ التأثير النفسي الى حيث يبطل الرأي والتدبير ويستتبع المي والانزمام .

قال تعالى : «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله» الأحزاب : ٣٩ ، وقال مخاطباً لموسى عليه السلام : « لا تخف إنك أنت الأعلى » طه : ٦٨ ، وقال حكاية عن قول شعيب له عليها السلام : « لا تخف نجوت من القوم

الظالمين ، القصص : ٢٥ ، وقال مخاطباً لنبيه ﷺ : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » الأنفال : ٥٨ .

والخليل ﷺ هو النبي الكريم الذي قام بالدعوة الحقّة إذ لا يذكر اسم الله وحده ، ونازع وثنية قومه فعاجّ أباه آزر وقومه وحاجّ الملك الجبار نمرود وكان يدّعي الألوهية ، وكسر أصنام القوم حتى ألغوه في النار فأنجاه الله من النار فلم يحبسه شيء من تلك المهاول ، ولا هزّمه في جهاده في سبيل الله هازم ، ومثل هذا النبي على ما له من الموقف الروحي إن خاف من شيء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر - على اختلاف تعبير الآيات - فإنما يخافه خوف حزم ولا يخافه خوف جبن ، وإذا خاف من شيء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف الله لا لهوى من نفسه .

قوله تعالى : « وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » ضحكك من الضحك بفتح الضاد أي حاضت ، ويؤيده تفريع البشارة عليه في قوله عقيبته : « فبشرناها » الخ ، ويكون ضحكها أمانة تقرب البشرى إلى القبول ، وآية تهيب نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به ، ويكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض وهي عجوز ، وإنما كانت قائمة تنظر ما يحزّي عليه الأمر بين بعلها وبين الضيفان النازلين به وتحادثهم .

والمعنى أن إبراهيم ﷺ كان يكلمهم ويكلمونه في أمر الطعام والحال أن امراته قائمة هناك تنظر إلى ما يجري بين الضيفان وبين إبراهيم وما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها أنها حاضت فبشرته الملائكة بالولد .

وأكثر المفسرين أخذوا الكلمة من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا في توجيه سببه ، وأقرب الوجوه هو أن يقال : إنها كانت قائمة هناك وقد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل وهو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكة مكرمون نزلوا ببيتهم وأن لا شر في ذلك يتوجّه اليهم سرّت وفرحت فضحكك فبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

وهناك وجوه آخر ذكروها خالية عن الدليل كقولهم : إنها ضحكك تعجباً من غفلة قوم لوط ، وقولهم : إنها ضحكك تعجباً من امتناع الضيوف من الأكل

والحال أنها تخدمهم بنفسها ، وقولهم : إنها كانت اشارت الى ابراهيم ان يضم اليه لوطاً لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب والهلاك فلما سمعت من الملائكة قولهم : إنا أرسلنا الى قوم لوط سرّاً وضحككت لإصابتها في الرأي ، وقولهم : إنها ضحككت تعجباً مما بشروها به من الولد وهي عجوز عقيم ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحككت .

وقوله : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » إسحاق هو ابنها من ابراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق عليها السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد . هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرئ برفع يعقوب وهو بيان لتتمة البشارة ، والاولى ارجح .

وكان في هذا التعبير : « ومن وراء إسحاق يعقوب » إشارة الى وجه تسمية يعقوب ^{عليه السلام} بهذا الاسم ، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه ، ويكون فيها تخطيط لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به .

قال في التوراة الحاضرة : وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة « رفقة » بنت بنوئيل الأرامي أخت لابان الأرامي من فدان الأرام ، وصلى إسحاق الى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقالت : إن كان هكذا فلماذا انا ، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب : في بطنك أمتان ، ومن احشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلما كملت أيامها لتلد اذا في بطنها توأمان فخرج الأول احمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج اخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب . انتهى موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم .

قوله تعالى : « قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب » الويل القبح وكل مساة توجب التحسر من هلكة او مصيبة او فجيعة او فضيحة ، ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال : يا ويل أي حضرنى وحل بي ما

فيه تحسري ، ويا ويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل يا أبتا .

والعجوز الشيخة من النساء ، والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغني عن الغير يقال للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل ، ويقال للصاحب وللرب : بعل . ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم .
والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة ما لا يعلم سببه ، ولذا يكثر في الأمور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها : « يا ويلقى ألد الخ » ، وارد مورد التعجب والتحسر فإنها لما سمعت بشارة الملائكة تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغين في الكبر لا يعمد من مثلها الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منها ويهزؤون بها وذلك فضيحة .

قوله تعالى : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدم معنى بقية مفردات الآية .

وقولهم : « أتعجبين من أمر الله » استفهام إنكاري انكرت الملائكة تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر ، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا وجه للتعجب منه .
على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة ومواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا خير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازلة عليهم نعمة أخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلها ولد عادة .

ولهذا الذي ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها أولاً : « أتعجبين من أمر الله » فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شيء عليها وهو الخالق لكل شيء .

وثانياً : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » فنبهوها بذلك أن الله أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت ، وألزمهم ذلك فليس من البعيد أن يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سننها العادي المألوف لذلك .

وقوله : « إنه حميد مجيد » في مقام التعليل لقوله : « رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت » اي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده .

قوله تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط » الروح الخوف والرعب والمجادلة في الأصل الإلحاح في البحث والمساءلة للغلبة في الرأي ، والمعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءاً ولا يضررون له شرّاً . وجاءته البشري بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب .

فقوله : « يجادلنا في قوم لوط » لحكاية الحال الماضية او بتقدير فعل ماض قبله وتقديره : اخذ يجادلنا الخ ، لأن الأصل في جواب لما ان يكون فعلاً ماضياً . ويظهر من الآية ان الملائكة اخبروه أولاً : بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم ، والعذاب نازل لا مرد له . والذي ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية إن اهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امرأته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣٢ .

قوله تعالى : « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب » الحليم هو الذي لا يعاجل العقوبة والانتقام ، والأوّاه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من سوء ، والمنيب من الإنابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر الى الله .

والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة : « يجادلنا في قوم لوط » وفيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا ، وكان

كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعاً الى الله في نجاتهم . لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك .

قوله تعالى : « يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثراً فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة . فقولهم : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » أي انصرف عن هذا الجدل ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه .

وقولهم : « إنه قد جاء أمر ربك » أي بلغ أمره مبلغاً لا يدفع بدافع ولا يتبدل ببديل ويؤيده قوله في الجملة التالية : « وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادراً لم يتخلف القضاء عن المقضي البتة ويؤيده ايضاً قوله في ما سيأتي من آيات قصة قوم لوط : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها » الخ ، آية ٨٢ من السورة .

وقولهم : « وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » أي غير مدفوع عنهم بدافع فدلته الحكم لا معقب لحكمه ، والجملة بيان لما أمر به ربي عليه السلام تأكيداً للجملة السابقة والمقام مقام التأكيد ، ولذلك جيء في الجملة الأولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق ، وصدرت الجملتان معاً بيان ، وأضافوا الأمر الى رب إبراهيم عليه السلام دون امر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدل .

(بحث روائي)

في الكافي باسناده عن أبي يزيد الحنظلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط : جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل فمرّوا بإبراهيم فسلموا عليه وهم معتمون فلم يعرفهم ، ورأى هيئة حسنة فقال : لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي وكان صاحب ضيافة فشوى لهم عجلاً سمياً حتى أنضجته فقرّبه اليهم فلما وضع بين أيديهم رأى أيديهم لا تصل اليه فنكرهم وأوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال : انت هو؟

قال : نعم فمرت به امرأته فبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت :
ما قال الله عز وجل وأجابوها بما في الكتاب .

فقال لهم ابراهيم : لماذا جئتم ؟ فقالوا في إهلاك قوم لوط . قال : إن كان
فيها مائة من المؤمنين أتهلكونها ؟ قال جبرئيل : لا . قال : وإن كان فيهم خمسون ؟
قال : لا . قال : وإن كان فيهم ثلاثون ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم عشرون ؟
قال : لا . قال : وإن كان فيهم عشرة ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم خمسة ؟
قال : لا . قال : وإن كان فيهم واحد ؟ قال : لا . قال : فإن فيها لوطاً . قالوا :
نحن اعلم بمن فيها لننجينته واهله إلا امرأته كانت من الغابرين ثم مضوا ..

قال : وقال الحسن بن عليّ : لا اعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول
الله عز وجل : « يحادلنا في قوم لوط » الحديث وله تنمة ستوافيك في قصة لوط .

أقول : وقوله : « لا اعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم » يمكن استفادته من
قوله تعالى : « إن ابراهيم لحليم أواه منيب » فإنه انصب بكون غرضه استبقاء القوم لا
استبقاء نبي الله لوط . على أن قوله : « يحادلنا في قوم لوط » وقوله : « إنهم آتيهم
عذاب غير مردود » انما يناسب استبقاء القوم .

وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول :
جاء بعجل حنيد مشوياً نضيجاً .

وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله
عليه السلام في قول الله عز وجل : فضحكت فبشرناها بإسحاق قال : حاضت .

وفي الدر المنثور اخرج اسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جوير عن
الضحاك عن ابن عباس قال : لما رأى ابراهيم انه لا تصل الى المعجل ايديهم نكرمهم
وخافهم ، وإنما كان خوف ابراهيم أنهم كانوا في ذلك الزمان إذا هم أحدهم بامرء
سوء لم يأكل عنده يقول : إذا أكرمت بطعامه حرم علي أذاه ، فخاف ابراهيم ان
يريدوا به سوء فاضطربت مفاصله .

وامراته سارة قائمة تخدمهم ، وكان اذا اراد ان يكرم ضيفاً اقام سارة

ليخدمهم فضحكيت سارة ، وانما ضحكيت أنها قالت : يا ابراهيم وما تخاف ؟ انهم ثلاثة نفر وانت وأهلك وعلمانك . قال لها جبرئيل : ايها الضاحكة أما إنك ستلدين غلاماً يقال له : اسحاق ومن ورائه غلام يقال له : يعقوب فأقبلت في صرة فصكت وجهها فأقبلت والهة تقول : واويلتناه ووضعت يدها على وجهها استحياء فذلك قوله : فصكت وجهها ، وقالت : ءألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا .

قال : لما بشر ابراهيم يقول الله : فلما ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشري بإسحاق يجادلنا في قوم لوط ، وكان جداله انه قال : يا جبرئيل اين تريدون ؟ والى من بعثتم ؟ قال : الى قوم لوط وقد أمرنا بعذابهم .

فقال ابراهيم ان فيها لوطاً . قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امراته ، وكانت فيما زعموا تسمى والقة . فقال ابراهيم : ان كان فيهم مائة مؤمن اتعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . حتى انتهى في العدد الى واحد مؤمن قال جبرئيل : لا . فلما لم يذكروا لإبراهيم ان فيها مؤمناً واحداً قال : ان فيها لوطاً . قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امراته .

أقول : وفي متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول ابراهيم : ان فيها لوطاً أولاً وثانياً لكن المراد واضح .

وفي تفسير العياشي عن ابي حمزة الثمالي عن ابي جعفر عليه السلام قال : ان الله تبارك وتعالى لما قضى عذاب قوم لوط وقدره أحب ان يعوِّض ابراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليهم يسلي به مصابه بهلاك قوم لوط .

قال : فبعث الله رسلاً الى ابراهيم يبشرونه بإسماعيل . قال : فدخلوا عليه ليلاً ففزع منهم وخاف ان يكونوا سراقاً فلما رآته الرسل فزعاً مذعوراً قالوا : سلاماً . قال : سلام انا منكم وجلون . قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليهم . قال ابو جعفر عليه السلام : والغلام العليم اسماعيل من هاجر فقال ابراهيم للرسل : أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون . قالوا : بشرك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال ابراهيم للرسول : فما خطبكم بعد البشارة ؟ قالوا : انا أرسلنا الى قوم مجرمين قوم لوط انهم كانوا قوماً فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين ، قال ابو جعفر عليه السلام : قال ابراهيم : ان فيها لوطاً . قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين .

فلما عذبهم الله ارسل الله الى ابراهيم رسلاً يبشرونه بإسحاق ويعزونه بهلاك قوم لوط ، وذلك قوله : ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فما لبث أن جاء بعجل حنيذ يعني زكياً مشوياً نضيجاً فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامراته قائمة . قال ابو جعفر عليه السلام : انما عنوا سارة قائمة فبشروها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب فضحكت يعني فمجبت من قولهم .

أقول : والرواية — كما ترى — تحمل قصة البشارة قصتين : البشارة بإسماعيل والبشارة بإسحاق وقد ولد بعد اسماعيل بسنتين . ثم تحمل آيات سورة الحجر — ولم يذكر فيها تقديم العجل المشوي الى الضيوف — على البشرى بإسماعيل ولما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك ، وتحمل آيات سورتي الذاريات وهود — وقد اختلطتا في الرواية — على البشرى لسارة بإسحاق ويعقوب ، وأنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا ابراهيم وأخبروه بوقوع العذاب وبشروه البشارة الثانية .

أما آيات سورة الحجر فإنها في نفسها تحمل الحمل على البشارة بإسماعيل وكذا الآيات الواقعة في سورة الذاريات تحمل ان تقص عما بعد هلاك قوم لوط وتكون البشرى بإسحاق ويعقوب عند ذلك .

وأما آيات سورة هود فإنها صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب ، ولكن ما في ذيلها من قوله : « يحادلنا في قوم لوط إن ابراهيم لحليم اواه منيب » الى آخر الآيات تأبى ان تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط ، وإن كان ما في صدرها من قوله : « إنا أرسلنا الى قوم لوط » لا يأبى وحده الحمل على ما بعد الهلاك ، وكذا جملة « إنه قد جاء امر ربك » لولا ما يحفتها من قيود الكلام .

وبالجملة مفاد الآيات في سورة هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم

لوط ، وعند ذلك كان جدال ابراهيم عليه السلام ، ومقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصة في سورة الذاريات هي الواقعة قبل هلاك القوم لا بعد الهلاك ، وكذا كون ما وقع من القصة في سورة الحجر وفيه التصريح بكونه قبل هلاكهم وفيه جدال ابراهيم عليه السلام خالياً عن بشرى إسحاق ويعقوب لا بشرى اسماعيل .

والحاصل أن اشتغال آيات هود على بشرى اسحاق وجدال ابراهيم عليه السلام الظاهر في كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب أن يكون المذكور من البشرى في جميع السور الثلاث: هود والحجر والذاريات قصة واحدة هي قصة البشرى بإسحاق قبل وقوع العذاب ، وهذا مما يوهن الرواية جداً .

وفي الرواية شيء آخر وهو أنها اخذت الضحك بمعنى المعجب وأخذت قوله : « فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » من التقديم والتأخير ، وأن التقدير : فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب فضحكك ، وهو خلاف الظاهر من غير نكتة ظاهرة .

وفي تفسير المياشي أيضاً عن الفضل بن أبي قررة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : أوحى الله إلى ابراهيم أنه سيدلك فقال لسارة فقالت : ألد وأنا عجوز؟ فأوحى الله إليه : أنها ستلد ويعذب اولادها اربعمائة سنة بردها الكلام علي .

قال: فلما طال على بني اسرائيل العذاب ضجوا وبكوا إلى الله اربعين صباحاً فأوحى الله إلى موسى وهارون أن يخلصهم من فرعون فحط عنهم سبعين ومائة سنة . قال : وقال أبو عبد الله عليه السلام : هكذا أنتم . لو فعلتم فرج الله عنا فأما إذا لم تكونوا فإن الأمر ينتهي إلى منتهاه .

أقول : وجود الرابطة بين احوال الانسان وملكاته وبين خصوصيات تركيب بدنه مما لا شك فيه فلكل من جانبي الربط استدعاء وتأثير خاص في الآخر ثم النطفة مأخوذة من المادة البدنية حاملة لما في البدن من الخصوصيات المادية والروحية طبعاً فمن الجائز أن يرث الأخلاق بعض خصوصيات اخلاق اسلافهم المادية والروحية .

وقد تقدم كراراً في المباحث السابقة أن بين صفات الانسان الروحية واعماله

وبين الحوادث الخارجية خيراً وشرّاً رابطة تامة كما يشير اليه قوله تعالى: «ولو إن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» الأعراف: ٩٦، وقوله: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الشورى: ٣٠.

فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانية عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفة من الصفات فضيلة أو رذيلة ثم يظهر أثره الجميل أو وباله السيء في اعتقابه، والملاك في ذلك نوع من الوراثة كما مرّ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: «وليشخس الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم» النساء: ٩ كلام في هذا المعنى في الجزء الرابع من الكتاب.

وفيه عن زرارة وحران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام وعن عبدالرحمن عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله: «إن إبراهيم لحليم أواه منيب» قال: دعاء. أقول: وروى في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

وفيه عن أبي بصير عن أحدهما عليها السلام قال: إن إبراهيم جادل في قوم لوط وقال: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بما فيها فزاده إبراهيم فقال جبرئيل: يا إبراهيم اعرض عن هذا أنه قد جاء أمر ربك وأنهم آتيهم عذاب غير مردود.

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن حستان ابن البحر قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من وراء. فقال ابن عباس: «فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» قال: ولد الولد.

(كلام في قصة البشرى)

قصة البشرى وسماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس من السور القرآنية كلها مكتبة وهي على ترتيب القرآن سورة هود والحجر والعنكبوت والصافات والذاريات.

فالأولى ما في سورة هود ٦٩-٧٦ قوله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم

بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بمجمل حنيد . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكّثرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انتنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامراته قائمة فضحككت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . ان إبراهيم حلیم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء امر ربك وأنهم آتيتهم عذاب غير مردود .

والثانية ما في سورة الحجر : ٥١ - ٦٠ قوله تعالى : « ونبتهم عن ضيف إبراهيم . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون .

قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم . قال ابشروني على ان مستني الكبر فم تبشرون . قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون . قال فما خطبكم ايها المرسلون . قالوا انا أرسلنا إلى قوم مجرمين . الا آل لوط انا لمنجّوهم اجمعين . الا امراته قدرنا إنها لمن الغابرين .

والثالثة ما في سورة العنكبوت : ٣١ - ٣٢ قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله واهله الا امرأته كانت من الغابرين .

والرابعة ما في سورة الصافات : ٩٩ - ١١٣ قوله تعالى : « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حلیم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما اسما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين .

والخامسة ما في سورة الذاريات ٢٤ - ٣٠ قوله تعالى : « هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ الى اهله فجاء بمجل سمين . فقربه اليهم قال الا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بفلام عليهم فأقبلت امراته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » .

ويقع البحث في قصة البشرى من وجوه :

احدها : أنها هل هي بشرى واحدة وهي المشتمة على بشرى ابراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب وقد وقعت قبيل هلاك قوم لوط او انها قصتان : إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل والاخرى تتضمن البشرى بإسحاق ويعقوب .

ربما رجح الثاني بناء على ان ما وقع من القصة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشوي ، وأن ابراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه وامراته المعجوز العقيم وهي سارة أم إسحاق قطعاً ، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة : إنا أرسلنا الى قوم مجرمين - الى ان قالوا - فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ، الآيات ونظير ذلك ما في سورة هود وقد قال فيها الملائكة لإزالة الروع عن ابراهيم ابتداء : إنا أرسلنا الى قوم لوط .

وأما ما في سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوي بل ظاهره أن ابراهيم واهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى : « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بفلام عليم » وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك لوط .

ونظيره ما في سورة العنكبوت من القصة وهي اظهر في كون ذلك قبل الهلاك ويتضمن جدال ابراهيم في قوم لوط ، وقد تقدمت في البحث الروائي السابق حديث العياشي في هذا المعنى .

لكن الحق أن الآيات في جميع السور الأربع سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات إنما تقص قصة البشارة بإسحاق ويعقوب دون اسماعيل .

وأما ما في ذيل آيات الذاريات من قوله : « قالوا إنا أرسلنا الظاهر في الماضي والفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ .
على أن قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق : « انا أرسلنا » لا مانع منه بحسب اللغة والعرف .

وأما قوله : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » الى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى وليس من تنمة كلام الملائكة لإبراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات .

وأما ذكر الوجمل في آيات الحجر في اول القصة بخلاف سورتي الذاريات وهود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوي في آيات الحجر بخلافها ، على أن الارتباط التام بين اجزاء قصة مما يجوز أن يقدم بعضها على بعض حيناً ويعكس الأمر حيناً آخر كما أنه تعالى يذكر انكار ابراهيم في آيات الذاريات في صدر القصة بعد سلامهم وفي سورة هود في وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل ، وهذا كثير الورود في نظم القرآن .

على ان آيات هود صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب وهي تتضمن جدال ابراهيم في قوم لوط في سياق لا يشك معه أنه كان قبل هلاك لوط ، ولازمه كون بشرى اسحاق قبله لا بعده .

على أن من المتفق عليه أن اسماعيل كان اكبر سناً من اسحاق وبين ولادتهما سنون ، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشروا ابراهيم بإسماعيل في مسيرهم الى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك وبشروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيدة كان الفصل بين البشريين يوماً او يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق وبين ولادته سنون من الزمان والبشرى لا تطلق الا على الإخبار بالجميل اذا كان مشرفاً على الوقوع الا اذا كانت هناك عناية خاصة واما الإخبار بمطلق الجميل فهو وعد ونحو ذلك .

وثانيها أنه هل هناك بشرى بإسماعيل ؟ والحق أن ما ذكرت من البشرى في صدر آيات الصافات انما هي بشرى بإسماعيل وهي غير ما ذكرت في ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحاً فإن سياق الآيات في ذيل قوله : « فيشرناه بفلام حلیم »

ثم استئناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً: « وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين » لا يدع ريباً لمرتاب ان الغلام الحليم الذي بشر به أولاً غير اسحاق الذي بشر به ثانياً ، وليس الا اسماعيل .

وذكر الطبري في تاريخه ان المراد بالبشارة الاولى في هذه السورة ايضاً البشارة بإسحاق قياساً على ذكر من البشارة في سائر السور ، وهو كما ترى . وقد تقدم كلام في هذا المعنى في قصص ابراهيم عليه السلام في الجزء السابع من الكتاب .

وقالها : البحث في القصة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما استفيد من القرآن الكريم ، وسيوافيك ذلك عند الكلام على قصة لوط عليه السلام في ذيل الآيات التالية .

ورابعها : البحث فيها من جهة جدال ابراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله : « يجادلنا في قوم لوط » وقوله : « يا ابراهيم أعرض عن هذا » .

وقد تقدم أن سياق الآيات وخاصة قوله : « إن ابراهيم لحليم أواه منيب » لا يدل الا على نعمته بالجميل فلم يكن جداله الا حرصاً منه في نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا الى صراط الايمان .

* * *

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ - ٧٧ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ - ٧٨ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ - ٧٩ . قَالَ لَوْ أَنِّي لِي سَكَّةٌ مُّقْوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - ٨٠ . قَالُوا يَا لُوطُ

إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ - ٨١ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ - ٨٢ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ - ٨٣ .

(بيان)

الآيات تذكر عذاب قوم لوط، وهي من وجه تنمة الآيات السابقة التي قصت نزول الملائكة ودخولهم على إبراهيم عليه السلام وتبشيره بإسحاق فإنما كانت كالتوطئة لقصة عذاب قوم لوط .

قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا بسيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب » يقال : ساءه الأمر مساءة اي أوقع عليه السوء ، وسيىء بالأمر بالبناء للمجهول اي أوقع عليه من ناحيته وبسببه .

والذرع مقياسة الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها ، ويطلق على نفس المقياس ايضاً ، ويقال : ضاق بالأمر ذرعاً وهو كناية عن انسداد طريق الحيلة والعجز عن الامتداء الى مخلص ينجو به الانسان من النائبة كالذي يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه .

والعصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدة واليوم العصيب هو اليوم الذي شدة بالبلاء شداً لا يقبل الانحلال ولا بعض أجزائه ينفك عن بعض .

والمعنى لما جاءت رسلنا لوطاً وهم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيئهم لوطاً ، وعجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه في صور غلمان

مرد صبيحي المنظر وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من اتقرب أن يعرضوا عنهم ويتركوهم على حالهم ، ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال : « هذا يوم عصيب » اي شديد ملتفت بعض شره ببعض .

قوله تعالى : « وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات » قال الراغب : يقال : هرع وأهرع ساقه سوقاً بعنف وتخويف ، انتهى . وعن كتاب العين الإهراع السوق الحثيث ، انتهى .

وقوله : « ومن قبل كانوا يعملون السيئات » اي ومن قبل ذلك كانوا يقتربون المعاصي ويأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف ، ولا يحجبهم عن ذلك استحياء او استنناع ، ولا ينزجرون بموعظة او ملامة او مذمة لأن العادة تسهل كل صعب وتزيت كل قبيح ووقيع .

والجملة كالمعرضة بين قوله : « وجاءه قومه يهرعون اليه » وقوله : « قال يا قوم هؤلاء بناتي » الخ ، وهي نافعة في مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذي كان يهرعهم ويسوقهم الى لوط ~~بذلك~~ هو أنهم كانوا يعملون السيئات وصاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين به فساقهم ذلك الى الهوى اليه وقصد سوء بأضيافه .

وأما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكية واستقرار العادة سلبوا سمع القبول وأن يزجرهم زاجر من عظة او نصيحة ، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم : « اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي » الخ .

قوله تعالى : « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » الى آخر الآية ، لما رآهم تجتمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة او إغلاظ في الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء بما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم ورجحهم بأنهن أطهر لهم .

وإنما المراد بصيغة التفضيل - أطهر - مجرد الاشتغال على الطهارة من غير شوب بقذارة ، والمراد هي طهارة محضاً ، وهو استعمال شائع ، قال تعالى : « ما عند الله خير من اللغو » الجمعة : ١١ ، وقال « والصلح خير » النساء : ١٢٨ . وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن .

وتقييد قوله : « هؤلاء بناتي » بقوله : « هن » أظهر لكم « شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسنن عن نكاح لا عن سفاح وحاشا مقام نبي الله عن ذلك ، وذلك لأن السفاح لا طهارة فيه أصلاً وقد قال تعالى : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » أسرى : ٣٢ ، وقال : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » الأنعام : ١٥١ ، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامة المشرعة في جميع الشرائع الإلهية النازلة على أنبيائه .

ومن هنا يظهر فساد قول من يقول : إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح . ولست أدري ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها ؟ وما معنى قوله حينئذ : « فأتقوا الله » ؟ ولو كان يريد دفع الفضيحة والعار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله : « ولا تخزون في ضيفي » .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « هؤلاء بناتي » الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمتهم فنساؤهم بناته كما أن رجالهم بنوه ، يريد أن قصد الإناث وهو سبيل فطري خير لكم وأظهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء .

وهو تحكّم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة ، وأما كونهم كفّاراً وبناته مسلمات ولا يجوز إنكاح المسلمة من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعة إبراهيم حتى يتبعه لوط عليها السلام فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنة بالكافر جائزاً في شرعه كما أنه كان جائزاً في صدر الإسلام ، وقد زوج النبي ﷺ بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة ثم نسخ ذلك .

على أن قولهم في جوابه : « لقد علمت ما لنا في بناتك من حق » لا يلائم كون المراد بالبنات في كلامه إنما هي نساؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نساؤهم بناته إلا أن يكون المراد التهم ولا قرينة عليه . لا يقال تعبيره ﷺ بالبنات وليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمتهم لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع .

لأننا نقول : لا دليل على ذلك من كلامه تعالى ولا وقع ذلك في نقل يعتمد عليه ، نعم وقع في التوراة الحاضرة أنه كان للوط بنتان فقط . ولا اعتماد على ما تضمنه .

وقوله : « فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي » بيان للمطلوب ، وقوله : « ولا تحزون في ضيفي » عطف تفسيري لقوله : « فاتقوا الله » فإنه ^{بمعناه} إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه وعصبية جاهلية منه ، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيره فيما كان يردعهم ، وقد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع وألح على ذلك سنين متتالية .

وإنما علق الردع على معنى الضيافة وأضاف الضيف الى نفسه وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الافتوة والكرامة فيهم ولذلك عقب ذلك بالاستغاث والاستنصار بقوله : « أليس منكم رجل رشيد » لعله يجد فيهم ذا رشد إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي أولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » الحجر : ٧٢ ولم يؤثر ذلك فيهم أثراً ولم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أياسوه به من أي إلحاح في ذلك .

قوله تعالى : « قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفي أن يكون لهم في بناته من حق وأنه يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وماذا يريدون . وقد قيل في معنى نفيهم الحق : إن معناه ما لنا في بناتك من حاجة وما ليس للانسان فيه حاجة فكأنه لا حق له فيه ففي الكلام نوع استعارة .

وقيل : إن المراد ليس لنا في بناتك من حق لأننا لا نتزوجهن ومن لم يتزوج بامرأة فلا حق له فيها فالمراد بنفي الحق نفي سببه وهو الازدواج .
وقيل : المراد بالحق هو الحظ والنصيب دون الحق الشرعي او العرفي أي لا رغبة لنا فيهن لأنهن نساء ولا ميل لنا اليهن .

والذي يجب الالتفات اليه أنهم لم يقولوا : ما لنا في بناتك من حق بل قالوا : « لقد علمت ما لنا في بناتك من حق » فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك وبين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكروه بما كان يعلم من السنة القومية الجارية بينهم ، وهو المنع من التعرض لنساء الناس وخاصة بالقهر والغلبة او ترك إتيان النساء بالمرّة واستباحة التعرض للغلمان وقضاء الوطر منهم ، وقد كان لوط يردعهم عن سنتهم ذلك إذ يقول لهم : « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » الأعراف : ٨١

« أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم » الشعراء : ١٦٦ « إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر » العنكبوت : ٢٩ ، ولا شك أن السنة القومية الجارية على فعل شيء يثبت حقاً فيه ، والجارية على تركه ينفي الحق .

وبالجملة هم يلفتون نظره عليه السلام الى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنة القومية وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا ولعل هذا أحسن الوجوه ، وبعده الوجه الثالث .

قوله تعالى : « قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد » ، يقال : أوى الى كذا ياوي أوياً وماوى أى انضم اليه ، وآواه اليه يؤويه إيواء أى ضمه اليه . والركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس .

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله وتهيبج فتوتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمة في عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار والحزي ، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل ولا اغاز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أياسوه بقولهم : « لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث والحزن في صورة التمني فتعنى أن يكون له منهم قوة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين - وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته - او يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم اليهم فيدفعهم بهم .

فقوله : « لو أن لي بكم قوة » أي ليت لي قدرة بسبيكم بانضمام رجل منكم رشيد إليّ يقوم بنصرتي فأدفعكم به ، وقوله : « او آوي الى ركن شديد » أي او كنت أنضم الى ركن شديد أي عشيرة منيعة بمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق . وقيل : إن معنى قوله : « لو أن لي بكم قوة » أتمنى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة ألتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي . وفيه أن فيه تبديل قوله : « بكم » الى قولنا : بهم عليكم . وهو كما ترى .

وقيل : إن معنى « لو أن لي بكم قوة » لو قويت عليكم بنفسي . وفيه أنه أبعد

من لفظ الآية .

وقيل : إن الخطاب في الآية للأضياف دون القوم ، ومعنى الآية أنه قال لأضيافه : أتمنى أن يكون لي بسببكم قوة ألقام بها . وفيه أن الانتقال من خطاب القوم الى خطاب الأضياف ولا دليل من اللفظ ظاهراً يدل عليه إيهام وتعقيد من غير موجب ، وكلامه تعالى أجل من ذلك .

قوله تعالى : « قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك » الى آخر الآية عدم وصولهم اليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون ، والمعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط : إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة وعرفوه أنهم مرسلون من عند الله ، وطيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه ولن يقدرُوا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم » القمر : ٣٧ ، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر وازدحموا على بابه فصاروا عمياناً يتخبطون .

وقوله : « فأمر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد » الإصرار والسري بالضم السير بالليل فيكون قوله : « بقطع من الليل » نوع توضيح له ، والباء للمصاحبة او بمعنى في . والقطع من الشيء طائفة منه وبعضه ، والالتفات افتعال من اللفت ، قال الراغب : يقال : لفته عن كذا صرفه عنه ، قال تعالى : « قالوا أجبنا لتلفتنا » أي تصرفنا ، ومنه التفت فلان اذا عدل عن قبله بوجهه ، وامرأة لفوت تلفت من زوجها الى ولدها من غيره . انتهى .

والقول دستور من الملائكة للوط ^{عليه السلام} إرشاداً له الى النجاة من العذاب النازل بالقوم صبيحة ليلتهم هاتيك ، وفيه معنى الاستعجال كما يشمر به قوله بعد : « إن موعدهم الصبح » .

والمعنى أنا مرسلون لعذاب القوم وهلاكهم فانج أنت بنفسك وأهلك وسيروا أنت وأهلك بقطع من هذا الليل واخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه ، ولا كثير وقت بينك وبين الصبح ، ولا ينظر احدكم الى وراء . وما ذكره بعضهم أن المراد بالالتفات الالتفات الى مال او متاع في المدينة يأخذه معه او الالتفات بمعنى التغلف عن السري مما لا يلتفت اليه .

وقوله : « إلا امرأتك إنه مصيبتها ما أصابهم » ظاهر السياق أنه استثناء من قوله : « أهلك » لا من قوله : « أحد » وفي قوله : « إنه مصيبتها ما أصابهم » بيان السبب لاستثنائها ، وقال تعالى في غير هذا الموضع : « إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » الحجر : ٦٠ .

وقوله : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » أي موعد هلاكهم الصبح وهو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق ، كما قال تعالى في موضع آخر : « فأخذتهم الصبحة مشرقين » الحجر : ٧٣ .

والجملة الأولى تعليل لقوله : « فأمر بأهلك بقطع من الليل » وفيه نوع استعجال كما تقدم ، ويؤكد قوله : « أليس الصبح بقريب » ومن الجائز أن يكون لوط عليه السلام يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » أي إن من المقدّر أن يهلكوا بالصبح وليس موعداً بعيداً أو يكون الجملة الأولى استعجالاً من الملائكة ، والثانية تسليّة منهم للوط في استعجاله .

ولم يذكر في الآيات ما هي الغاية لسراهم والحمل الذي يتوجهون إليه ، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : « فأمر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون » الحجر : ٦٥ ، وظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد وأحالوا ذلك إلى ما سيأتيه من الدلالة بالوحي الإلهي .

قوله تعالى : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك » ضمائر التانيث الثلاث راجعة إلى أرض القوم أو القرية أو بلادهم المعلومّة من السياق ، والسجيل على ما في الجمع بمعنى السجّين وهو النار ، وقال الراغب : السجّين حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي معرّب ، انتهى . يشير إلى ما قيل إن أصله سنكك كل ، وقيل : إنه مأخوذ من السجل بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك ، وقيل : مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت .

والظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرّب المفيد معنى الحجر والطين ، والسجل بمعنى الكتاب أيضاً منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسمي كل كتاب سجلاً وإن كان من قرطاس ،

والإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك .

والنضد هو النظم والترتيب ، والتسويم جعل الشيء ذا علامة من السياء بمعنى العلامة .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بالعذاب وهو أمره تعالى الملائكة بعذابهم وهو كلمة « كن » التي أشار إليها في قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له - كن » يس : ٨٣ ، جعلنا عالي أرضهم وبلادهم سافلها بتقليبها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود معلّمة عند ربك وفي علمه ليس لها أن تخطيء هدفها الذي رميت لأجل إصابته .

وذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم والأمطار بالسجيل عذب به الغائبون منهم . وقيل : إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرئيل لينسفها . وقيل : إنما أمطرت عليهم الحجارة بعدما قلبت قريتهم تغليظاً في العقوبة . والأقوال جميعاً من التحكم من غير دليل من اللفظ .

وفي قوله تعالى في غير هذا الموضع : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » الحجر : ٧٣ ، فقد كان هناك قلب وصيحة وأمطار بالحجارة ومن الممكن أن يكون ذلك يحدث بركان من البراكين بالقرب من بلادهم وتحدث به زلزلة في أرضهم وانفجار أرضي بصيحة توجب قلب مدنها ، ويمطر البركان عليهم من قطعات الحجارة التي يثيرها ويرميها ، والله أعلم .

قوله تعالى : « وما هي من الظالمين ببعيد » قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل مكة أو المشركون من قوم النبي ﷺ والكلام مسوق للتهديد ، والمعنى وليست هذه الحجارة من ظالمي مكة ببعيد أو المعنى : ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة والشام ، كما قال تعالى في موضع آخر : « وإنها لبسبيل مقيم » الحجر : ٧٦ ، وقال : « وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » الصافات : ١٣٨ .

ويؤيده العدول من سياق التكلم إلى الغيبة في قوله : « مسومة عند ربك » فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا : مسومة عندنا ، إلى هذا التعبير ليتعرض لقومه ﷺ بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسّهم ليكون أقوى تأثيراً في الحجاج عليهم .

وربما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين والمراد أنه ليست الحجارة اي إمطارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين ومنهم قوم لوط الظالمون ببعيد ، ويكون وجه الالتفات في قوله : « عند ربك » ايضاً التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن زكريا بن محمد [عن أبيه] عن عمرو عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله فطلبهم إبليس الطلب الشديد ، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم اذا خرجوا الى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا اذا رجعوا خرب إبليس ما يعملون .

فقالوا بعضهم لبعض : تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا له : أنت الذي تخرب متاعنا مرة بعد أخرى ، فاجتمع رأيهم على ان يقتلوه فبيتوه عند رجل فلما كان الليل صاح له فقال له : مالك ؟ فقال : فإن أبي ينومي على بطني فقال له : تعال فم على بطني .

قال : فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه ان يفعل بنفسه فأولاً علمه إبليس والثاني علمه هو ثم انسل يفر منهم ، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويمعجبهم منه وهم لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم حتى تنكسب مدينتهم الناس ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان .

فلما رأى انه قد أحكم أمره في الرجال جاء الى النساء فصيّر نفسه امرأة فقال لهن : إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض ؟ قلن : نعم رأينا ذلك وكل ذلك يعظمهم لوط ويوصيهم وإبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء .

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية فمروا بلوط وهو يحرث . قال : أين تريدون ؟ ما رأيت أجمل منكم قط . فقالوا : إنا رسل سيدنا الى رب هذه البلدة . قال : أولم يبلغ سيدكم ما يفعل

اهل هذه القرية ؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم . قالوا :
أمرنا سيدنا ان نمر وسطها . قال : فلي اليكم حاجة . قالوا : وما هي ؟ قال :
تصبرون هنا الى اختلاط الظلام .

قال : فجلسوا . قال : فبعث ابنته . قال : فجيئي لهم بخبز وجيئي لهم
بماء في القرعة وجيئي لهم بعباء يتغطون بهامن البرد فلما ان ذهبت الابنة أقبل المطر
والوادي فقال لوط : الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال : قوموا حتى نخفي ،
وجعل لوط يمشي في أصل الحائط ، وجعل جبرئيل وميكائيل واسرافيل يمشون
وسط الطريق . قال : يا بني امشوا ههنا فقالوا : أمرنا سيدنا ان نمر في وسطها وكان
لوط يستغتم الظلام .

ومر إبليس فأخذ من حجر امرأة صبياً فطرحه في البئر فتصايح اهل
المدينة كلهم على باب لوط فلما ان نظروا الى الغلمان في منزل لوط قالوا : يا لوط
قد دخلت في عملنا ؟ فقال : هؤلاء ضيفي فلا تفضحون في ضيفي . قالوا : هم
ثلاثة خذ واحداً واعطنا اثنين . قال : وأدخلهم الحجرة وقال : لو ان لي اهل
بيت تمنعوني منكم .

قال : وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً فقال له
جبرئيل : إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأخذ كفاً من بطحاء فضرب بها وجوههم
وقال : شامت الوجوه فعمي اهل المدينة كلهم فقال لهم لوط : يا رسل ربي فما
أمركم ربي فيهم ؟ قالوا : أمرنا ان نأخذهم بالسحر . قال : فلي اليكم حاجة . قالوا :
وما حاجتك ؟ قال : تأخذوهم الساعة فإني اخاف ان يبدوا لربي فيهم . فقالوا :
يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد ان يأخذ فخذ أنت بناتك
وامض ودع امرأتك .

فقال ابو جعفر عليه السلام : رحم الله لوطاً لو علم من معه في الحجرة لعلم أنه
منصور حيث يقول : « لو أن لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد » أي ركن أشد
من جبرئيل معه في الحجرة ؟ فقال عز وجل لحمداً : « وما هي من الظالمين
ببعيد » من ظالمي أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط ، وقال رسول الله ﷺ : من
ألح في وطئ الرجال لم يمت حتى يدعو الرجال الى نفسه .

أقول : والرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة ، وفي بعض الروايات - كالرواية المذكورة في الباب السابق عن أبي يزيد الحمار عن أبي عبد الله عليه السلام - أنهم كانوا أربعة بزيادة كروبيل ، وفي بعض الروايات من طرق أهل السنة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل وميكائيل ورفائيل ، والظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط : « لو أن لي بكم قوة » الخ خطاباً منه للملائكة لا للقوم ، وقد تقدمت الإشارة إليه في بيان الآيات .

وقوله عليه السلام : رحم الله لوطاً لو علم «الخ» في معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم - على ما روي عنه - رحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

وقوله عليه السلام : فقال عز وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الخ إشارة إلى ما تقدم من احتمال كون الآية ، مسوقاً لتهديد قريش .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : «وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود» قال : ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلا رماه الله جندة من تلك الحجارة تكون منيته فيه ولكن الخلق لا يرونه .

أقول : وروى في الكافي بإسناده عن ميمون البان عنه عليه السلام مثله . وفيه من بات مصراً على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته ولا يراه أحد ، وفي الحديثين إشعار بكون قوله : « وما هي من الظالمين ببعيد » غير خاص بقريش ، وإشعار بكون العذاب المذكور روحانياً غير مادي .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام في قول لوط : « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » قال : عرض عليهم التزويج .

وفي التهذيب عن الرضا عليه السلام : عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال : أحلتها آية من كتاب الله عز وجل : قول لوط : « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » قد علم أنهم لا يريدون الفرج .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال : عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته إنه إن كفّ يده عنهم كفّ يداً واحدة ، وكفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم حتى لربما غضب

الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية : « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد » .

قال علي رضي الله عنه : والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه .

أقول : وآخر الرواية مروية من طرق أهل السنة والشيعة .

وفي الكافي - في حديث أبي يزيد الحنظلي عن أبي جعفر عليه السلام المنقول في البحث الزواني السابق - قال : فأتوا يعني الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمون فلما رأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم : المنزل فقالوا : نعم فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال : أي شيء صنعت؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فقال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . قال جبرئيل : لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات . فقال جبرئيل : هذه واحدة فمضى ساعة ثم التفت اليهم فقال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبرئيل : هذه ثنتان . ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت اليهم ثم قال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرئيل : هذه الثالثة ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله .

فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاؤا على الباب فنزلت اليهم فقالت : عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة فجاءوا إلى الباب ليدخلوا .

فلما رأهم لوط قام اليهم فقال لهم : يا قوم اتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد؟ ثم قال : هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فدعاهم كلهم إلى الخلال فقالوا : ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، فقال لهم : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، فقال جبرئيل : لو يعلم أي قوة له .

فتكاثروا حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال : يا لوط دعهم يدخلون فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل : « قطعنا أعينهم » ثم ناداه جبرئيل فقال له : إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر

بأهلك بقطع من الليل . وقال له جبرئيل : إنا بعثنا في إهلاكهم فقال : يا جبرئيل عجل فقال : إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .

فأمره يتحمل ومن معه إلا امرأته ثم اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نياح الكلاب وصراخ الديوك ثم قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة بحجارة من سجيل .

أقول : وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها الى حيث سمع أهل السماء الدنيا نياح كلابهم وصراخ ديوهم أمر خارق للعادة، وهو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنه مما لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد .

على ان السنة الإلهية جارية على ان تقتفي في الكرامات والمعجزات الحكمة وأي حكمة في رفعهم الى هذا الحد ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده ؟

وقول بعض اهل الكلام : من الجائز ان يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة لطفاً من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقرباً للمؤمنين الى الطاعة مبعثاً لهم من المعصية كلام مدخول فإن خلق الأمور العظيمة المعجبة والحوادث الخارقة للعادة ليتأكد بها إيمان المؤمنين ويعتبر بها المعتبرون وإن كان لا يخلو من لطف إلا انه إنما يكون لطفاً فيما كان يلوغهم لهم من طريق الحسن أو ابي طريق علمي آخر ، وأما رواية واحدة أو ضعيفة وهي خالية عن الحجية لا يعبا بها فلا معنى لإيجاد الأمور الخارقة والحوادث المعجبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنة الجهال من طغاة البشر وجبابرهم .

قال صاحب المنار في تفسيره : وفي خرافات المفسرين المروية عن الإسرائيليات ان جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها الى عنان السماء حتى سمع أهل السماء اصوات الكلاب والندجاج فيها ثم قلبها قلباً مستويًا فجعل عاليها سافلها .

وهذا تصور مبني على اعتقاد متصوره ان الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن ان يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان وبيقون احياء . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها ان الطيارات

والمناطق التي تخلق في الجو تصل الى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها ، وهم يصنعون انواعاً منها يصنعون فيها من اكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها .

وقد أشير في الكتاب العزيز الى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » .

فإن قيل : إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصح أن يجعل تصديقه موقوفاً على ما عرف من سنن الكائنات .

قلت : نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في امر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب ان تكون الرواية عن نوحى إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم او بسند صحيح متصل الاسناد لا شذوذ فيه ولا علة على الأقل ، ولم يذكر في كتاب الله تعالى ، ولم يرد فيه حديث مرفوع الى نبيه ﷺ ، ولا تظهر حكمة الله فيه ، وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة . ولا شك أنه من الاسرار الخفية .

ومما قالوه فيها : أن عدد أهلها كان أربعة آلاف الف وبلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد ، فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع ؟ انتهى . والذي ذكره أن الحديث إنما روي عن التابعين دون الصحابة فإنه أن هذا المعنى مروي عن ابن عباس وعن الحذيفة بن اليمان ، ففي رواية ابن عباس - كما في الدر المنثور عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جوير ومقاتل عن الضحّاك عنه - « فلما كان عند وجه الصبح عمد جبرئيل الى قرى لوط بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها فحوّاها وطواها ثم قلعها من تخوم الثرى ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها الى السماء الدنيا فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير والنساء والرجال من تحت جناح جبرئيل ثم أرسلها منكوسة ثم أتبعها بالحجارة ، وكانت الحجارة للرعاة والتجار ومن كان خارجاً عن مدائنهم » الحديث . وفي رواية حذيفة بن اليمان - على ما في الدر المنثور عن عبدالرزاق وابن جرير

وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه - « فاستأذن جبرئيل في هلاكهم فاذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها ، وأهوى بها حتى سمع أهل السماء الدنيا صفاء كلاهم وأوقد تحتهم ناراً ثم قلبها بهم فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم فالتفتت فأصابها العذاب ، وقبعت سفارهم الحجارة » الحديث .

وأما من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي صالح ومحمد بن كعب القرظي وعن السدي ما هو أغلظ من ذلك قال : « لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ثم أهوى بها جبرئيل الى الأرض » الحديث .

وأما ما ذكره من أنه « يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الاسناد لا شذوذ فيه ولا علة » فمسألة أصولية ، والذي استقر عليه النظر اليوم في المسألة إن الخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقريضة قطعية فلا ريب في حجيتها ، وأما غير ذلك فلا حجبة فيه إلا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثقاً بالظن النوعي فإن لها حجبة .

وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والامور الاعتقادية لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علماً وتعميد الناس بذلك ، والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلا الكليات وليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الاصول .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله لوطاً إن كان ليأوى الى ركن شديد .

أقول : مقتضى المقام الذي كان يحاري فيه لوط قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور ، وظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه وبين قومه أن لوطاً إنما كان يتمنى أنصاراً أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقلوله : « أو آوي الى ركن شديد » يريد به أنصاراً من غير القوم من عشيرة أو أخلاء وأصدقاء في الله

ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ولذلك لبثوه من غير فصل وقالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك .

ولم يكن ليفعل في حال من تلك الأحوال عن ربه وأن كل النصر من عنده حق ينسأه ويتمنى ناصراً غيره ، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجمل المذموم وقد قال الله تعالى في حقه : « آتيناه حكماً وعلماً — الى أن قال — وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » الأنبياء : ٧٥ .

فقول النبي ﷺ : « إن كان لبأوى الى ركن شديد » معناه أن معه جبرئيل وسائر الملائكة وهو لا يعلم بذلك ، وليس معناه ان معه الله سبحانه وهو جاهل بمقام ربه .

فما في بعض الروايات الناقلة للفظه رسول الله ﷺ من الأشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله لوطاً كان يأوي الى ركن شديد يعني الله تعالى . الحديث .

وكما عنه من طريق آخر قال : إن النبي ﷺ قال : « يغفر الله للوط إن كان لبأوى الى ركن شديد » ولعل فيه نقلاً بالمعنى وأن النبي ﷺ قال : رحم الله لوطاً فغيره الراوي الى قوله : يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدباً من آداب العبودية او اذنب ذنباً يحمله مقام ربه ونسيانه ما لم يكن له ان ينسأه .

(كلام في قصة لوط وقومه في فصول)

١ — قصته وقصة قومه في القرآن : كانت لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل ومن السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم عليه السلام آمن به وقال : إني مهاجر الى ربي (العنكبوت : ٢٦) فنجاه الله مع إبراهيم الى الأرض المقدسة أرض فلسطين (الأنبياء : ٧١) فنزل في بعض بلادها (وهي مدينة سدوم على ما في التواريخ والتوراة وبعض الروايات) .

وكان أهل المدينة وما والاها من المدائن وقد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات (التوبة : ٧٠) يعبدون الأصنام ؛ ويأتون بالفاحشة : اللواط ، وهم أول قوم شاع فيهم ذلك (الأعراف : ٨٠) حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار (العنكبوت : ٢٩) ولم يزل تشيع الفاحشة فيهم حتى عادت سنة قومية ابتلت به عامتهم وتركوا النساء وقطعوا السبيل (العنكبوت : ٢٩) .

فأرسل الله لوطاً اليهم (الشعراء : ١٦٢) فدعاهم الى تقوى الله وترك الفحشاء والرجوع الى طريق الفطرة وأنذرهم وخوفهم فلم يزدحم إلا عتواً ولم يكن جوابهم إلا أن قالوا اثنتا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وهددوه بالإخراج من بلدتهم وقالوا له : لئن لم تفتنه لتكونن من المخرجين (الشعراء : ١٦٧) وقالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون (النمل : ٥٦) .

٢ - عاقبة أمرهم : لم يزل لوط عليه السلام يدعوهم الى سبيل الله وملازمة سنة الفطرة وترك الفحشاء وهم يصرون على عمل الخبائث حتى استقر بهم الطغيان وحقت عليهم كلمة العذاب فبعث الله رسلاً من الملائكة المكرمين لإهلاكهم فزلوا أولاً على إبراهيم عليه السلام وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجاد لهم إبراهيم عليه السلام لعله يرد بذلك عنهم العذاب ، وذكرهم بأن فيهم لوطاً فردوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط وأهله ، وأنه قد جاء أمر الله وأن القوم آتيهم عذاب غير مردود (العنكبوت : ٣٢ - هود : ٧٦) .

فمضوا الى لوط في صور غلمان مرد ودخلوا عليه ضيفاً فشق ذلك على لوط وضاق بهم ذرعاً لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرضون لهم وأنهم غير تاركينهم البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك وأقبلوا يهرعون اليه وهم يستبشرون وهجموا على داره فخرج اليهم وبالع في وعظهم واستشارة فتوتهم ورشدهم حتى عرض عليهم بناته وقال : يا قوم إن هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي ثم استغاث وقال : أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربة وأنهم غير تاركين أضيافه البتة حتى أيس لوط وقال : لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد (هود : ٨٠) .

قالت الملائكة عند ذلك يا لوط: إنا رسل ربك طوب نفساً إن القوم لن يصلوا اليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عمياناً يتخبطون وتفرقوا (القمر : ٣٧) .
ثم امروا لوطاً عليه السلام ان يسري بأهله من ليلته بقطع من الليل ويتبع ادبارهم ولا يلتفت منهم احد إلا امرأته فإنه مصيبها ما اصابهم ، وأخبروه انهم سيهلكون القوم مصبحين (هود : ٨١ - الحجر : ٦٦) .

فأخذت الصيحة القوم مشرقين ، وأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للسرفين ، وقلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط وترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (الذاريات : ٣٧ - وغيرها) .

وفي اختصاص الإيمان والإسلام بيت لوط عليه السلام ، وشمول العذاب لمدائنهم دلالة - أولاً - على ان القوم كانوا كفاراً غير مؤمنين و - ثانياً - على ان الفحشاء ما كانت شائعة فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك والنساء بريئات منها وكان لوط يدعو الناس الى الرجوع الى سبيل الفطرة وسنة الخلقة التي هي مواصلة الرجال والنساء لاتبعته عدة من النساء واجتمعن حوله وآمن به طبعاً ، ولم يذكر من ذلك شيء في كلامه سبحانه .

وفي ذلك تصديق ما تقدم في الأخبار المأثورة ان الفحشاء شاعت بينهم ، واكتفى الرجال بالرجال بالنواط ، والنساء بالنساء بالسحق .

٣ - شخصية لوط المعنوية : كان عليه السلام رسولاً من الله الى اهل المؤتفكات وهي مدينة سدوم وما والاها من المدائن - ويقال : كانت اربع مدائن : سدوم وعمورة وصوغر وصبويم وقد أشركه في جميع المقامات الروحية التي وصف بها أنبياءه الكرام .

ومما وصفه به خاصة ما في قوله : « ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » الانبياء : ٧٥ .

٤ - لوط وقومه في التوراة : ذكرت ^(١) التوراة ان لوطاً كان ابن أخي

أبرام - إبراهيم - هاران بن تارخ وكان هو وأبرام في بيت تارخ في أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصداً أرض الكنعانيين فأقام بلدة حاران ومعه أبرام ولوط ومات هناك .

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران ومعه لوط ولهما مال كثير وغلمان اكتسبوا ذلك في حاران فأتى أرض كنعان ، وكان يرتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب ، ثم أتى مصر ، ثم صعد من هناك جنوباً نحو بيت إيل فأقام هناك .

ولوط السائر مع أبرام أيضاً كان له غنم وبقر وخيام ولم يحتملها الأرض أن يسكنها ووقعت غصاصة بين رعاة مواشيتها فتفرقا فأخذوا من وقوع النزاع والتشاجر فاختار لوط دائرة الأردن وسكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم ، وكان أهل سدوم أشراً وخطاة لدى الرب جداً ، ونقل أبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممراً التي في حبرون .

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم وعمورة وإدمة وصبويم ، وصوغر من جانب وأربعة من جيرانهم من جانب ، انهزم فيها ملك سدوم ومن معه من الملوك ، وأخذ العدو جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ، وأسر لوط فيمن أسر وسبى جميع أمواله ، وانتهى الخبر إلى أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان ، وكانوا يزيدون على ثلاث مائة فحاربهم وهزمهم ، وأنجى لوطاً وجميع أمواله من الأسر والسبي ، وردّه إلى مكانه الذي كان مقيماً فيه (ملخص ما في التوراة من صدر قصة لوط) .

قالت التوراة (١) : وظهر له - لأبرام - الرب عند بلوطات ممراً وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار . فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه . فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة ومسجد إلى الأرض . وقال : يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك . ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت هذه الشجرة . فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم

تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت .
فأسرع ابراهيم الى الخيمة الى سارة وقال : أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً
اعجني واصنعي خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم الى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً
وأعطاه للفلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبداً ولبناً والمجل الذي عمله ووضعها قدامهم .
وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

وقالوا له : ابن سارة امرأتك ، فقال : ها هي في الخيمة ، فقال : إني أرجع
إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في باب
الخيمة وهو وراءه . وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع
أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي
يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة :
أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت ؟ هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع إليك
نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن ، فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ، لأنها خافت .
فقال : لا بل ضحكت .

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان ابراهيم ماشياً معهم
ليشيعهم . فقال الرب : هل أخفي عن ابراهيم ما انا فاعله ؟ وإبراهيم يكون أمة
كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض . لأنني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من
بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برأ وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به .
فقال الرب : إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً .
أنزل وأرى هل فعلوا بالتام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم . وانصرف الرجال
من هناك وذهبوا نحو سدوم . وأما ابراهيم فكان لم يزل قائماً امام الرب .

فتقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثم ؟ عسى أن يكون خمسون باراً
في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من اجل الحسنين باراً الذين فيه ؟ حاشا
لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميمت البار مع الأثم فيكون البار كالأثم ، حاشاك .
أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟ فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً
في المدينة فأني أصفح عن المكان كله من اجلهم .

فأجاب ابراهيم وقال : اني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ربما نقص

الخمسون باراً خمسة أهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال الرب : لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه ايضاً وقال : عسى أن يوجد هناك اربعون ، فقال : لا افعل من اجل الاربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : اني قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون ، فقال : لا أهلك من اجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط عسى ان يوجد هناك عشرة ، فقال : لا أهلك من اجل العشرة . وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم ورجع ابراهيم الى مكانه .

فجاء ^(١) الملاك الى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآها لوط قام لاستقبالها وسجد بوجهه الى الأرض . وقال : يا سيدي ميلا الى بيت عبدك وبيتنا واغسلا أرجلكما ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، فقالا : لا بل في الساحة نبيت ، فألح عليهما جداً ، فمالا اليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا .

وقبل ما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث الى الشيخ كل الشعب من اقصاها فنادوا لوطاً وقالوا له : اين الرجلان اللذان دخلا اليك الليلة ؟ أخرجهما الينا لتعرفهما . فخرج اليهم لوط الى الباب وأغلق الباب وراءه . وقال : لا تفعلوا شراً يا اخوتي . هوذا لي ابنتان لم يعرفا رجلاً أخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنها قد دخلا تحت ظل سقفي .

فقالوا : ابعده الى هناك . ثم قالوا : جاء هذا الانسان ليتغرب وهو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شراً أكثر منها . فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً اليهما الى البيت وأغلقا الباب وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير الى الكبير فمجزوا عن أن يجدوا الباب .

وقال الرجل للوط: من لك أيضاً ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكهم . فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال : قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة ، فكان كمازح في أعين أصهاره . ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين : قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة . ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه وضعا خارج المدينة .

وكان لما أخرجاهم الى خارج أنه قال : اهرب حياتك . لا تنظر الى ورائك ولا تقف في كل الدائرة . اهرب الى الجبل لئلا تهلك فقال لها لوط : لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت الي باستبقاء نفسي . وأنا لا أقدر أن أهرب الى الجبل لعل الشر يدركني فأموت . هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب اليها . وهي صغيرة أهرب الى هناك أليست هي صغيرة فتحمي نفسي . فقال له : إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . أسرع اهرب الى هناك لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء الى هناك . لذلك دعي اسم المدينة صوغر .

وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط الى صوغر فأمر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء . وقلب قلبك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح .

وبكثر إبراهيم في الغد الى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة . ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . وحدث لما أخبر الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم . وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط .

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كمادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمرأ ونضطجع معه فنحبي من أبينا نسلاً . فسفتا أباهما خمرأ في تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت

مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة
إني قد اضطجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمرأ الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه
فنجي من أبينا نسلأ . فسقتا أباهما خمرأ في تلك الليلة أيضاً . وقامت الصغيرة
واضطجعت معه . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيها .
فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين الى اليوم والصغيرة
أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمتى وهو أبو بني عمتون الى اليوم . انتهى .
هذا ما قصته التوراة في لوط وقومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف
القرآن الكريم من وجه القصة ومن وجوه غيرها .
ففيها كون الملك المرسل للبشرى والمذاب ملكين اثنين . وقد عبر القرآن
بالرسل — بلفظ الجمع وأقله ثلاثة —

وفيهما أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه وقدمه اليهم ، والقرآن ينفي ذلك
ويقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل اليه .
وفيهما : إثبات بفتن لوط ، والقرآن يعبر بلفظ البنات . وفيها كيفية إخراج
الملائكة لوطاً وكيفية تعذيب القوم وضرورة المرأة عوداً من ملح وغير ذلك .
وفيهما نسبة التجسم صريحة الى الله سبحانه ، وما ذكرته من قصة لوط مع
بنتيه أخيراً ، والقرآن ينزهه ساحة الحق سبحانه عن التجسم ويبرىء أنبياءه ورسله
عن ارتكاب ما لا يليق بساحة قدسهم .

* * *

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ — ٨٤ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ — ٨٥ .

بَقِيَتْ اللهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ—٨٦.
 قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
 نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَا أَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ—٨٧. قَالَ يَا
 قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا
 أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا
 اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ—٨٨. وَيَا
 قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
 أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ—٨٩.
 وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ—٩٠. قَالُوا
 يَا شُعَيْبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
 رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ—٩١. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي
 أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ—٩٢. وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 رَقِيبٌ—٩٣. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ—٩٤.
 كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ—٩٥.

(بيات)

تذكر الآيات قصة شعيب عليه السلام وقومه وهم أهل مدين ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وكان قد شاع التططيف في الكيل والوزن عندهم واشتد الفساد فيهم فأرسل الله سبحانه شعيباً عليهم السلام اليهم فدعاهم الى التوحيد وتوفية الميزان والمكيال بالقسط وترك الفساد في الأرض ، وبشرهم وأنذرهم وبالغ في عظمتهم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : كان شعيب خطيب الأنبياء .

فلم يجبه القوم إلا بالرد والعصيان ، هددوه بالرجم والطرد من بينهم وبالغوا في إيذائه وإيذاء شرذمة من الناس آمنوا به وصدّهم عن سبيل الله وداموا على ذلك حتى سأل الله أن يقضي بينه وبينهم فأهلكهم الله تعالى .

قوله تعالى : . وإلى مدين اخاهم شعيباً ، الى آخر الآية عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء وأممهم ، ومدين اسم مدينة كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبة إرسال شعيب الى مدين وكان مرسلًا الى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا : جرى الميزان ، وفي عدة شعيب عليه السلام أخاً لهم دلالة على أنه كان ينتسب اليهم . وقوله : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » تقدم تفسيره في نظائره . وقوله : « ولا تنقصوا المكيال والميزان » المكيال والميزان اسما آلة بمعنى ما يكال به وما يوزن به ، ولا يوصفان بالنقص وإنما يوصف بالنقص كالزيادة والمساواة المكيل والموزون فنسبة النقص الى المكيال والميزان من المجاز العقلي .

وفي تخصيص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم وإقبالهم عليه وإفراطهم فيه بحيث ظهر فسادهم وبأن سيئ أثره فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق فدعاهم الى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي .

وقوله : « إني أراكم بخير » أي أشاهدكم في خير ، وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم الى نقص المكيال والميزان ، واختلاس اليسير من أشياء الناس طمعاً في ذلك من غير سبيله المشروع وظلماً وعتواً ، وعلى هذا فقوله : « إني أراكم بخير » تعليل لقوله : « ولا تنقصوا المكيال والميزان » .

ويمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعناية الله معنيون بنعمه آتاكم عقلاً ورشداً ورزقكم رزقاً فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشرکوا به غيره ، وأن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال والميزان ، وعلى هذا يكون تعليلاً لما تقدمه من الجملتين أعني قوله : « اعبدوا الله » الخ ، وقوله : « ولا تنقصوا » الخ ، كما أن قوله : « وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » كذلك .

فحصل قوله : « إني أراكم » الى آخر الآية أن هناك رادعين يجب أن يردعواكم عن معصية الله : أحدهما : أنكم في خير ولا حاجة لكم الى بخش أموال للناس من غير سبيل حلها . وثانيها : أن وراء مخالفة امر الله يوماً محيطاً يخاف عذابه .

وليس من البعيد أن يراد بقوله : « إني أراكم بخير » أي أراكم برؤية خير أي أنظر اليكم نظراً الناصح المشفق الذي لا يصاحب نظره إلا الخير ولا يريد بكم غير السعادة ، وعلى هذا يكون قوله : « وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » كمطف التفسير بالنسبة اليه .

وقوله : « وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » يشير به الى يوم القيامة او يوم نزول عذاب الاستئصال ومعنى كون اليوم - وهو يوم القضاء بالعذاب - محيطاً أنه لا يخرج منه ولا مفر ولا ملأه من دون الله فلا يدفع فيه ناصر ولا معين ، ولا ينفع فيه توبة ولا شفاعة ، ويؤول معنى الإحاطة الى كون العذاب قطعياً لا مناص منه ، ومعنى الآية أن للكفر والفسوق عذاباً غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك .

قوله تعالى : « ويا قوم اوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس اشيائهم » الخ ، الإيفاء إعطاء الحق بتمامه والبخس النقص كمر القول في المكيال والميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغة في الاهتمام بأمر لا غنى لمجتمعهم عنه ، وذلك أنه دعاهم أولاً الى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال والميزان ، وعاد ثانياً فأمر بإيفاء المكيال والميزان ونهى عن بخش الناس اشيائهم إشارة الى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه - وإنما نهى عنه أولاً لتكون معرفة إجمالية هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلاً - بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكاياله وميزانه ويعطيها حقها ولا يبخسها ولا ينقصها الأشياء المنسوبة الى الناس بالمعاملة حتى يعلموا أنها اديا الى الناس اشيائهم وردا اليهم ما لهم على ما هو عليه .

وقوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » قال الراغب : العيث والعثي يتقاربان فحو جذب وجذب إلا ان العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً والعثي فيما يدرك حكماً يقال : عثى بعثى عثياً ، وعلى هذا « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » وعثا يعثو عثواً . انتهى .

وعلى هذا فقوله : « مفسدين » حال من ضمير « لا تعثوا » لإفادة التأكيد نظير ما يفيد قولنا : لا تفسدوا إفساداً .

والجملة اعني قوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » نهي مستأنف عن الفساد في الأرض من قتل أو جرح أو أي ظلم مالي أو جاهي أو عرضي لكن لا يبعد ان يستفاد من السياق كون الجملة عطفاً تفسيرياً للنهي السابق فيكون نهياً تأكيدياً عن التططيف ونقص المكيال والميزان لأنه من الفساد في الأرض .

بيان ذلك : ان الاجتماع المدني الدائر بين افراد النوع الإنساني مبني على المبادلة حقيقة فما من مواصلة ومرابطة بين فردين من افراد النوع إلا وفيه إعطاء واخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شؤون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يمثله أو يزيد عليه ، ويدفع اليه نفعاً ليحذب منه الى نفسه نفعاً وهو المعاملة والمبادلة . ومن اظهر مصاديق هذه المبادلة المعاملات المالية وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من اقدم ما تنبه الانسان لوجوب إجراء سنة المبادلة فيه .

فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشري من اركان حياة الانسان الاجتماعية يقدر الواحد منهم ما يحتاج اليه في حياته الضرورية بالكيل أو الوزن ، وما يجب عليه ان يبذله في حذائه من الثمن ثم يسير في حياته بانياً لها على هذا التقدير والتدبير . فإذا خانته معاملة ونقص المكيال والميزان من حيث لا يشعر هو فقد افسد تدبيره وأبطل تقديره ، واختل بذلك نظام معيشته من الجهتين معاً من جهة ما يقتنيه من لوازم الحياة بالاشتراء ومن جهة ما يبذله من الثمن الزائد الذي يتعب نفسه في تحصيله بالاكتساب فيسلب إصابة النظر وحسن التدبير في حياته ويتخبط في مسيرها خبط العشواء وهو الفساد .

وإذا شاع ذلك في مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم ولم يلبثوا دون ان يسلبوا

الوثوق والاطمئنان واعتماد بعضهم على بعض ويرتحل بذلك الأمن العام من بينهم وهو النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح والمطفف والذي يوفي المكيال والميزان على حد سواء ، وعاد بذلك اجتماعهم اجتماعاً على المكر وإفساد الحياة لا اجتماعاً على التعاون لسعادتها، قال تعالى: « وأوفوا الكيل إذا كلمت وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تأويلاً » اسرى : ٣٥ .

قوله تعالى : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ »
البقية بمعنى الباقي والمراد به الربح الحاصل للبائع وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة فيضعه في سبيل حوائجه ، وذلك ان المبادلة وإن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح ، وإنما كان الواحد منهم يقتني شيئاً من متاع الحياة ، فإذا كان يزيد على ما يحتاج اليه بدل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج اليه ولا يملكه ثم اخذت نفس التجارة وتبدل الأمتعة من الأثمان حرفة يكتسب بها المال ويقتني بها الثروة فأخذ الواحد منهم متاعاً من نوع واحد او انواع شتى وعرضه على أرباب الحاجة للمبادلة ، وأضاف الى رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع والعرض ورضي بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادلة عليهم فالتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشتهم ويحوّل اليه ثروة يقتنيها ويقم بها صلب حياته .

فالمراد أن الربح الذي هو بقية إلهية هداكم الله اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف ونقص المكيال والميزان إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله اليه من طريق حله ، وأما غير ذلك مما لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه ولا حاجة له اليه .

وقيل : إن الاشتراط بالإيمان في قوله : « إن كنتم مؤمنين » للدلالة على اشتراط الإيمان للعلم بذلك لا لأصله والمعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحة قولي : إن بقية الله خير لكم .

وقيل معنى الآية ثواب طاعة الله — يكون البقية بمعنى ثواب الطاعة الباقي — خير لكم إن كنتم مؤمنين . وقيل غير ذلك .

وقوله : « وما أنا عليكم بحفيظ » اي وما يرجع الى قدرتي شيء مما عندكم من نفس او عمل او طاعة او رزق ونعمة فإنما انا رسول ليس عليه إلا البلاغ ، لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم وخيركم او تسقطوا في مهبط الهلكة من غير ان اقدر على جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالى : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » الأنعام : ١٠٤ .

قوله تعالى : « قالوا يا شعب أصلاتك تأمرك ان تترك ما يعبد آباؤنا » الى آخر الآية ، ردة منهم لحجة شعيب عليه ، وهو من أطف التركيب ، ومغزى مرادهم أننا في حرية فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به في اموالنا من وجوه التصرف ولست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت او تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شيء مما تشاهد منا بما تصلي وتقترب الى ربك وأردت ان تأمر وتنهى فلا تتعد نفسك لأنك لا تملك إلا إياها .

وقد أدوا مرادهم هذا في صورة بدیعة مشوبة بالتهكم واللوم معاً ومسبوكة في قالب الاستفهام الإنكاري وهو ان الذي تريده منا من ترك عبادة الأصنام، وترك ما شئنا من التصرف في اموالنا هو الذي بعثتك اليه صلاتك وشوهمه في عينك فأمرتك به لما انها ملكتك لكنك أردت منا ما ارادته منك صلاتك ولست تملكنا انت ولا صلاتك لأننا احرار في شعورنا وإرادتنا لنا ان نختار اي دين شئنا ونتصرف في اموالنا اي تصرف اردنا من غير حرج ولا منع ولم ننتحل إلا ديننا الذي هو دين آباؤنا ولم نتصرف إلا في اموالنا ولا حرج على ذي مال في ماله .

فما معنى ان تأمرك إياك صلاتك بشيء ونكون نحن الممثلون لما امرتك به؟ وبعبارة أخرى ما معنى ان تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك ؟ فهل هذا إلا سفها من الرأي ؟ وإنك لأنك الحليم الرشيد والحليم لا يعجل في زجر من يراه مسيئاً وانتقام من يراه مجرماً حتى ينجلي له وجه الصواب ، والرشيد لا يقدم على امر فيه غي وضلال فكيف اقدمت على مثل هذا الأمر السفهي الذي لا صورة له إلا الجهالة والغبي ؟

وقد ظهر بهذا البيان أولاً : انهم إنما نسبوا الأمر الى الصلاة لما فيها من البعث والدعوة الى معارضة القوم في عبادتهم الاصنام ونقصهم المكيال والميزان ،

وهذا هو السر في تعبيرهم عن ذلك بقولهم: «أصلاتك تأمرك أن نترك» الخ، دون أن يقولوا: «أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟» مع أن التعبير عن المنع بالنهي عن الفعل اقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك ولذلك عبّر عنه شعيب بالنهي في جوابه عن قولهم إذ قال: «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ولم يقل إلى ما أمركم بتركه. والمراد - على أي حال - منعه إياهم عن عبادة الأصنام والتطيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآية التي ملئت لطافة وحسناً.

وثانياً: أنهم إنما قالوا: «أن نترك ما يعبد آباؤنا» دون أن يقولوا: «أن نترك آلهتنا» أو «أن نترك الأوثان» ليشيروا بذلك إلى الحجة في ذلك وهي أن هذه الأصنام دام على عبادتها آباؤنا فهي سنة قومية لنا، ولا ضير في الجري على سنة قومية ورثها الخلف من السلف، ونشأ عليها الجيل بعد الجيل فإننا نعبد آلهتنا وندوم على ديننا وهو دين آباؤنا ونحفظ رسماً ملياً عن الضيعة.

وثالثاً: أنهم إنما قالوا: «أن نفعل في أموالنا» فذكروا الأموال مضافة إلى أنفسهم ليكون في ذلك إيحاء إلى الحجة فإن الشيء إذا صار مالاً لأحد لم يشك ذو ريب في أن له أن يتصرف فيه وليس لغيره ممن يعترف بماليته له أن يعارضه في ذلك، وللمرء أن يسير في مسير الحياة ويتدبّر في أمر المعيشة بما يستطيعه من الخدق والاحتتيال، ويهديه إليه الذكاء والكياسة.

ورابعاً: أن قولهم: «أصلاتك تأمرك» إلى قوله - إنك لأنك الحليم الرشيد - مبني على التهمك والاستهزاء إلا أن التهمك في تعليقهم أمر الصلاة شعيباً على تركهم ما يعبد آباؤهم، وكذا في نسبة الأمر إلى الصلاة لا غير، وأما نسبة الحلم والرشد إليه فليس فيها تهمك واستهزاء، ولذلك أكد قوله: «إنك لأنك الحليم الرشيد» بأن واللام وإتيان الخبر جملة اسمية ليكون أقوى في إثبات الحلم والرشد له فيصير ابلغ في ملامته والإنكار عليه، وأن الذي لا شك في حلمه ورشده قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهي، وينتهز على سلب حرية الناس واستقلالهم في الشعور والإرادة.

وظهر بذلك أن ما ذكره كثير منهم أنهم وصفوه بالحلم والرشد على سبيل الاستهزاء يعنون به أنه موصوف بضدّها وهو الجهالة والغني. ليس بصواب.

قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وورزقني منه رزقاً حسناً » الى آخر الآية ، المراد بكونه على بينة من ربه كونه على آية بينة وهي آية النبوة والمعجزة الدالة على صدق النبي في دعوى النبوة ، والمراد بكونه رزق من الله رزقاً حسناً أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة المشتمل على أصول المعارف والشرائع ، وقد مرّ توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدّم .

والمعنى : أخبروني إن كنت رسولاً من الله اليكم وخصني بوحى المعارف والشرائع وأبديني بآية بينة يدلّ على صدق دعواي فهل أنا سفية في رأيي ؟ وهل ما أدعوك اليه دعوة سفية ؟ وهل في ذلك تحكّم مني عليكم او سلب مني حرّيتكم ؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء ولستم بأحرار بالنسبة اليه بل انتم عباده يأمركم بما شاء ، وله الحكم واليه ترجعون .

وقوله : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » تعديّة المخالفة بإلى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالليل ونحوه ؟ والتقدير : أخالفكم ماثلاً الى ما أنهاكم عنه او أميل الى ما أنهاكم عنه مخالفاً لكم .

والجملّة جواب عن ما اتهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحرية في أعمالهم ويستعبدهم ويتحكّم عليهم ، ومحصله أنه لو كان يريد ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه ، وهو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتهموه به وإنما يريد الإصلاح ما استطاع .
توضيحه : ان الصنع الإلهي وإن أنشأ الإنسان مختاراً في فعله حرّاً في عمله له أن يميل في مظان العمل الى كل من جانبي الفعل والترك فله بحسب هذه النشأة حرية تامة بالقياس الى بني نوعه الذين هم أمثاله وأشباهه في الحلقة لهم ما له وعليهم ما عليه فليس لأحد ان يتحكّم على آخر عن هوى من نفسه .

إلا انه أفطره على الاجتماع فلا تتم له الحياة إلا في مجتمع من افراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختص كل منهم بما له من نصيب بمقدار ما له من الزنة الاجتماعية ، ومن البديهي ان الاجتماع لا يقوم على ساق إلا بسنن وقوانين تجري فيها ، وحكومة يتولاها بعضهم تحفظ النظم وتجري القوانين كل ذلك على حسب ما يدعو اليه مصالح المجتمع .

فلا مناص من ان يفدي المجتمعون بعض حرّيتهم قبال القانون والسنة الجارية

بالحرمان من الانطلاق والاسترسال ليعمدوا لذلك بنيل بعض مشترياتهم وإحياء البعض الباقي من حريتهم .

فالإنسان الإجتماعي لا حرية له قبال المسائل الحيوية التي تدعو اليه مصالح المجتمع ومنافعه ، والذي يتحكمه الحكومة في ذلك من الأمر والنهي ليس من الاستعباد والاستكبار في شيء إذ إنها إنما يتحكم فيما لا حرية للإنسان الإجتماعي فيه ، وكذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع أو لا ينفع لإبطاله ركناً من أركان المصالح الأساسية فيها فبعثه ذلك الى وعظهم بما يرشدهم الى اتباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به ونهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتباه عنه لم يكن هذا الواحد متحكماً عن هوى النفس مستعبداً للأحرار المجتمعين من بني نوعه فإنه لا حرية لهم قبال المصالح العالية والأحكام اللازمة مراعاة في مجتمعهم ، وليس ما يلقيه اليهم من الأمر والنهي في هذا الباب أمراً أو نهياً له في الحقيقة بل كان أمراً ونهياً ناشئين عن دعوة المصالح المذكورة قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعة ، وإنما الواحد الذي يلقي اليهم الأمر والنهي بمنزلة لسان ناطق لا يزيد على ذلك .

وامارة ذلك ان يأمر هو نفسه بما يأمر به وينتهي هو نفسه عما ينهى عنه من غير ان يخالف قوله فعله ونظره عمله ، إذ الإنسان مطبوع على التحفظ على منافعه ورعاية مصالحه فلو كان فيما يدعو اليه غيره من العمل خير وهو مشترك بينهما لم يخالفه بشخصه ، ولم يترك لنفسه ما يستحسنه لغيره ، ولذلك قال ﷺ فيما ألقاه اليهم من الجواب : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » وقال أيضاً كما حكاه الله تسميماً للفائدة ودفعاً لأي تهمة تتوجه اليه : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » الشعراء : ١٨٠ .

فهو ﷺ يشير بقوله : « وما أريد أن أخالفكم » الخ ، الى ان الذي ينهاهم عنه من الامور التي فيه صلاح مجتمعهم الذي هو أحد افراده ، ويجب على الجميع مراعاتها وملازمتها ، وليس اقتراحاً استعبادياً عن هوى من نفسه ، ولذلك عقبه بقوله : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

وملخص المقام أنهم لما سمعوا من شبيب ﷺ الدعوة الى ترك عبادة الأصنام

والتطفيئ ردوه بأن ذلك اقتراح منه مخالف لما هم عليه من الحرية الإنسانية التي تسوغ لهم ان يعبدوا من شاؤوا ويفعلوا في اموالهم ما شاؤوا .

فرد عليهم شعيب عليه السلام بأن الذي يدعوم اليه ليس من قبل نفسه حتى ينافي مسألتهم ذلك حريتهم ويبطل به استقلالهم في الشعور والإرادة بل هو رسول من ربهم اليهم وله على ذلك آية بينة ، والذي أتاها به من عند الله الذي يملكهم ويملك كل شيء وهم عباده لا حرية لهم قبالة ، ولا خيرة لهم فيما يريد منهم .

على أن الذي ألقاه اليهم من الامور التي فيه صلاح مجتمعم وسعادة أنفسهم في الدنيا والآخرة ، وامارة ذلك أنه لا يريد أن يخالفهم الى ما ينههم عنه بل هو مثلهم في العمل به ، وإنما يريد الإصلاح ما استطاع ، ولا يريد منهم على ذلك أجراً إن أجره إلا على رب العالمين .

وقوله : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنه عليه السلام لما ذكر لهم انه يريد إصلاح مجتمعم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ماله من الاستطاعة وفي ضوئها أثبت لنفسه استطاعة وقدرة وليست للعبد باستقلاله وحيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص والقصور بقوله : « وما توفيقى إلا بالله » أي إني الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني من تدبير أمور مجتمعم وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناجمة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه ولا مخرج من إحاطته ولا استقلال في امر دونه فهو الذي اعطاني ما هو عندي من الاستطاعة ، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه وتوفيقى به .

بين عليه السلام هذه الحقيقة ، واعترف بأن توفيقه بالله ، وذلك من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكل نفس والحافظ عليها والقائم على كل نفس بما كسبت كما قال : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض » الفاطر : ١ ، وقال : « وربك على كل شيء حفيظ » السبا : ٢١ ، وقال : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ ، وقال : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الفاطر : ٤١ ومحصله أنه تعالى هو الذي أبدع الأشياء وأعمالها والروابط التي بينها وأظهرها بالوجود ،

وهو الذي قبض على كل شيء فأمسكه وأمسك آثاره والروابط التي بينها أن تزول وتغيب وراء ستر البطلان .

ولازم ذلك انه تعالى وكيل كل شيء في تدبير أموره فهي منسوبة اليه تعالى في تحققها وتحقق الروابط التي بينها لما انه محيط بها قاهر عليها، ولها مع ذلك نسبة الى ذلك الشيء بإذنه تعالى .

ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقة أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربه والإنابة والرجوع اليه ، ولذلك لما ذكر شعيب عليه السلام أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل والإنابة فقال : « عليه توكلت وإليه أنيب » .

(كلام في معنى حرية الانسان في عمله)

الإنسان بحسب الحلقة موجود ذو شعور وإرادة له أن يختار لنفسه ما يشاء من الفعل وبمباراة أخرى له في كل فعل يقف عليه أن يختار جانب الفعل وله أن يختار جانب الترك فكل فعل من الأفعال الممكنة الإتيان اذا عرض عليه كان هو بحسب الطبع واقفاً بالنسبة اليه على نقطة يلتقي فيها طريقان : الفعل والترك فهو مضطر في التلبس والاتصاف بأصل الاختيار لكنه مختار في الأفعال المنتسبة اليه الصادرة عنه باختياره أي إنه مطلق العنان بالنسبة الى الفعل والترك بحسب الفطرة غير مقيد بشيء من الجانبين ولا مغلول ، وهو المراد بحرية الانسان تكويناً .

ولازم هذه الحرية التكوينية حرية أخرى تشريعية يتقيد بها في حياته الاجتماعية وهو أن له أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياة ويعمل بما شاء من العمل ، وليس لأحد من بني نوعه أن يستعلي عليه فيستعبده ويتملك إرادته وعمله فيجعل بهوى نفسه عليه ما يكرهه فإن افراد النوع امثال لكل منهم ما لغيره من الطبيعة الحرة ، قال تعالى : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ وقال : « وما كان لبشر - الى ان قال - ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » آل عمران : ٧٩ .

هذا ما للانسان بالقياس الى امثاله من بني نوعه ، وأما بالقياس الى العلل والأسباب الكونية التي اوجدت الطبيعة الانسانية فلا حرية له قبالها فإنها تملكه وتحيط به من جميع الجهات وتقلبه ظهراً لبطن ، وهي التي بإنشائها ونفوذ أمرها فعلت بالإنسان ما فعلت فأظهرته على ما هو عليه من البنيان والخواص من غير ان يكون له الخيرة من أمره فيقبل ما يحبه ويرد ما يكرهه بل كان كما أريد لا كما أراد حتى أن أعمال الانسان الاختيارية وهي ميدان الحرية الانسانية إنما تطيع الانسان فيما أذنت فيه هذه العلل والأسباب فليس كل ما أحبه الانسان وأراده بواقع ولا هو في كل ما اختاره لنفسه بموفق له ، وهو ظاهر .

وهذه العلل والأسباب هي التي جهزت الانسان بجهازات تذكره حوائجه ونواقص وجوده ، وتبعثه الى أعمال فيها سعادته وارتفاع نواقصه وحوائجه كالغاذية مثلاً التي تذكره الجوع والعطش وتهديه الى الخبز والماء لتحصيل الشبع والري وهكذا سائر الجهازات التي في وجوده .

ثم إن هذه العلل والأسباب اوجبت إيجاباً تشريعياً على الانسان الفرد أموراً ذات مصالح واقعية لا يسهه إنكارها ولا الاستنكاف بالاستغناء عنها كالأكل والشرب والإيواء والاتقاء من الحر والبرد والدفاع تجاه كل ما يضاد منافع وجوده .

ثم افطرته بالحياة الاجتماعية فأذعن بوجود تأسيس المجتمع المنزلي والمدني والسير في مسير التعاون والتعامل ، ويضطره ذلك الى الحرمان عن موهبة الحرية من جهتين :

إحداهما : أن الاجتماع لا يتم من الفرد إلا بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقاً متقابلة محترمة عنده ليعطوه بإزائها حقوقاً يحترمونها وذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له ، وينفعهم بمقدار ما ينفع بهم ، ويحرم عن الانطلاق والاسترسال في العمل على حسب ما يحرمهم فليس له ان يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بل هو حرّ فيما لا يزاحم حرية الآخرين ، وهذا حرمان عن بعض الحرية للحصول على بعضها .

وثانيتهما : أن المجتمع لا يقوم له صلب دون ان يجري فيها سنن وقوانين يتسلها الأفراد المجتمعون او اكثرهم تضمن تلك السنن والقوانين منافعهم العامة بحسب

ما للاجتماع من الحياة الراقية او المنحطة الردية ، ويستحفظ بها مصالحهم العالية الاجتماعية .

ومن المعلوم أن احترام السنن والقوانين يسلب الحرية عن المجتمعين في موارد ما فالذي يستنّ سنّة او يقنّن قانوناً سواء كان هو عامة المجتمعين او المندوبين منهم او السلطان او كان هو الله ورسوله — على حسب اختلاف السنن والقوانين — يحرم الناس بعض حريتهم ليحفظ به البعض الآخر منها ، قال الله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » القصص : ٦٨ ، وقال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » الأحزاب : ٣٦ .

فتلخص أن الإنسان إنما هو حر بالقياس الى أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوى من انفسهم ، وأما بالنسبة الى ما تقتضيه مصالحه الملزمة وخاصة المصالح الاجتماعية العامة على ما تهديه اليها والى مقتضياتها العلل والأسباب فلا حرية له البتة ، ولا أن الدعوة الى سنّة او اي عمل يوافق المصالح الانسانية من ناحية القانون او من بيده أجزاءه او الناصح المتبرع الذي يأمر بمعروف او ينهى عن منكر متمسكاً بحجة بيّنة ، من التحكم الباطل وسلب الحرية المشروعة في شيء .

ثم إن العلل والأسباب المذكورة وما تهدي اليه من المصالح مصاديق لإرادة الله سبحانه او إذنه — على ما يهدي اليه ويبينه تعليم التوحيد في الإسلام — فهو سبحانه المالك على الاطلاق ، وليس لغيره إلا المملوكية من كل جهة ، ولا للإنسان إلا العبودية محضاً فمالكته المطلقة تسلب اي حرية متومة للإنسان بالنسبة الى ربه كما أنها هي تعطيه الحرية بالقياس الى سائر بني نوعه كما قال تعالى : « أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ .

فهو سبحانه الحاكم على الاطلاق والمطاع من غير قيد وشرط كما قال : « إن الحكم إلا لله » وقد أعطى حق الأمر والنهي والطاعة لرسوله ولأولي الأمر وللمؤمنين من الامة الاسلامية فلا حرية لأحد قبال كلمة الحق التي يأتون به ويدعون اليه ، قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » النساء : ٥٩ ، وقال

تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر » التوبة : ٧١ .

قوله تعالى : « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح » الجرم بالفتح فالسكون - على ما ذكره الراغب - قطع الثمرة عن الشجر وقد استعير لكل اكتساب مكروه ، والشقاق المخالفة والمعادة . والمعنى : احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي ومعاداتي بسبب ما أدعوكم إليه إصابة مصيبة مثل مصيبة قوم نوح وهي الغرق أو قوم هود وهي الريح العقيم أو قوم صالح وهي الصيحة والرجفة .

وقوله : « وما قوم لوط منكم ببعيد » أي لا فصل كثيراً بين زمانهم وزمانكم وقد كانت الفاصلة الزمانية بين القومين أقل من ثلاثة قرون ، وقد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليهما السلام وشعيب معاصراً لموسى عليهما السلام .

وقيل : المراد به نفي البعد المكاني ، والإشارة إلى أن بلادهم الحربية قريبة منكم لقرب مدين من سدوم وهو بالأرض المقدسة ، فالمعنى : وما مكان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المحسوفة وآثارهم الباقية الظاهرة . والسياق لا يساعد عليه والتقدير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل .

قوله تعالى : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » قد تقدم الكلام في معنى قوله : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه » أي استغفروا الله من ذنوبكم وارجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله إن الله ذو رحمة ومودة يرحم المستغفرين التائبين ويحبهم .

وقد قال أولاً : « استغفروا ربكم » فأضاف الرب إليهم ثم قال في مقام تعليله : « إن ربي رحيم ودود » ولعل الوجه فيه أنه ذكر في مرحلة الأمر بالاستغفار والتوبة من الله سبحانه صفة ربوبيته لأنها الصفة التي ترتبط بها العبادة ومنها الاستغفار والتوبة ، وأضاف ربوبيته إليهم بقوله : « ربكم » لتأكيد الارتباط وللإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الأرباب من دون الله .

وكان من حق الكلام أن يقول في تعليله : إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه ، وقد أثبت سابقاً أنه رب القوم أضافه ثانياً

الى نفيه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم وربى رحيم ودود .
على ان في هذه الإضافة معنى المعرفة والخبرة فتفيد تأييداً لصحة القول فإنه
في معنى انه تعالى رحيم ودود وكيف لا ؟ وهو ربى أعرفه بهذين الوصفين .
والودود من أسماء الله تعالى ، وهو فعول من الود بمعنى الحب إلا ان الاستفادة
من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبة وهو الحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة
كالإلفة والمراودة والإحسان ، قال تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً
لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » الروم : ٢١ .
والله سبحانه يحب عباده ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم « وإن تعدوا
نعمة الله لا تحصوها » إبراهيم : ٣٤ فهو تعالى ودود لهم .

قوله تعالى : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً »
الى آخر الآية ، الفقه أبلغ من الفهم وأقوى ، ورهط الرجل عشيرته وقومه ، وقيل :
إنه من الثلاثة الى السبعة او العشرة وعلى هذا ففي قولهم : رهطك ، إشارة الى قلتهم
وهوان امرهم ، والرجم هو الرمي بالحجارة .
لما حاجتهم شعيب عليه السلام وأعيانهم بحجته لم يجدوا سبيلاً دون ان يقطعوا عليه
كلامه من غير طريق الحجة فذكروا له :
أولاً : ان كثيراً مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغيره لا أثر له ، وهذا
كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه .

ثم عقبوه بقولهم : « وإنا لنراك فينا ضعيفاً » أي لا نفهم ما تقول ولست
قويماً فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه ، والسمع
والقبول له فإننا لا نراك فينا إلا ضعيفاً لا يعبأ بأمره ولا يلتفت الى قوله .
ثم هددوه بقولهم : « ولولا رهطك لرجمناك » اي ولولا هذا النفر القليل
الذين هم عشيرتك لرجمناك لكننا نراعي جانبهم فيك ، وفي تقليل العشيرة إيماء الى
أنهم لو أرادوا قتله يوماً قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته ، وإنما كفتهم عن قتله نوع
احترام وتكريم منهم لعشيرته .

ثم عقبوه بقولهم : « وما أنت عليها بمعز » تأكيداً لقولهم : « ولولا رهطك
لرجمناك » أي لست بقوي منيع جانباً علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتلى ،

وإنما يمنعنا رعاية جانب رهطك . فحصل قولهم إهانة شعيب وأنهم لا يعبئون به ولا بما قال ، وإنما يراعون في ترك التعرض له جانب رهطه .

قوله تعالى : « قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً » الظهري نسبة الى الظهر بفتح الظاء المعجمة وإنما غيّر بالنسب وهو الشيء الذي وراء الظهر فيترك نسباً منسياً يقال : اتخذته وراءه ظهرياً اي نسيه ولم يذكره ولم يعتن به .

وهذا نقض من شعيب لقولهم : « ولولا رهطك لرجمناك » اي كيف تعزّزون رهطي وتحترمون جانبهم ، ولا تعزّزون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإني أنا الذي أدعوكم اليه من جانبه ؟ فهل رهطي أعزّ عليكم من الله ؟ وقد جعلتموه نسباً منسياً وليس لكم ذلك وما كان لكم ان تفعلوه إن ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطة بكل شيء وجوداً وعلماً وقدره . وفي الآية طعن في رأيهم بالسفه كما طعنوا في الآية السابقة في رأيه بالهوان .

قوله تعالى : « ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل » الى آخر الآية . قال في المجمع : المكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل . انتهى وهو في الأصل . كما قيل - من مكن مكانة كضخم ضخامة إذا قوي على العمل كل القوة ويقال - تمكن من كذا أي أحاط به قوة .

وهذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بانه على وثوق بما يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوة والتمكن فلهم عملهم وله عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب . هم أو هو ؟ ويعلمون من هو كاذب ؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم .

قوله تعالى : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً - الى قوله - جاثمين » تقدم ما يتضح به معنى الآية .

قوله تعالى : « كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثود » غني في المكان إذا أقام فيه . وقوله : « ألا بعداً لمدين » الخ . فيه لعنهم كما لعنت ثود ، وقد تقدم بعض الكلام فيه في القصص السابقة .

(بحث روائي)

في تفسير القمي قال : قال : بعث الله شعباً الى مدين وهي قرية على طريق الشام فلم يؤمنوا به .

وفي تفسير العياشي عن أحمد بن محمد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « إني أراكم بخير » قال : كان سعرهم رخيصاً .

وفيه عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال : سألته عن انتظار الفرج فقال : أوليس تعلم ان انتظار الفرج من الفرج ؟ ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يقول : « وارتقبوا إني معكم رقيب » .

أقول : قوله : ليس تعلم بمعنى لا تعلم وهي لغة مولدة .

وفي المعاني بإسناده عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت : فقوله عز وجل : « وما توفيقي إلا بالله » وقوله عز وجل : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » ؟ فقال : إذا فعل العبد ما أمر الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجل وسمي العبد موفقاً ، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ، ومتى خلى بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يتركها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه .

أقول : محصل بيانه عليه السلام أن توفيقه تعالى وخذلانه من صفاته الفعلية فالتوفيق هو نظمه الأسباب بحيث تؤدي العبد الى العمل الصالح أو عدم إيجاد بعض الأسباب التي يستعان بها على المعصية . والخذلان خلاف ذلك . وعلى ذلك فمتعلق التوفيق الأسباب لأنه إيجاد التوافق بينها وهي المتصفة بها ، وأما توصيف العبد به فمن قبيل الوصف بحال المتعلق .

وفي الدر المنثور أخرج ابو نعيم في الحلية عن علي قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : قل : ربي الله ثم استقم . قلت : ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . قال : ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً .

أقول : وقد تقدمت الإشارة الى نبذة من معنى الجملة .

وفيه أخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله

عليه السلام : بكى شعيب عليه السلام من حُب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره ، وأوحى الله اليه : يا شعيب ما هذا البكاء ؟ أشوقاً الى الجنة أم خوفاً من النار ؟ فقال : لا ولكن اعتقدت حبك بقلبي ، فإذا نظرت اليك فما أبالي ما الذي تصنع بي؟ فأوحى الله اليه : يا شعيب إن يكن ذلك حقاً فهنيئاً لك لقائي ، يا شعيب لذلك أخذمتك موسى بن عمران كليمي .

أقول : المراد بالنظر اليه تعالى هو النظر القلبي دون النظر الحسي المستلزم للجسمية ، تعالى عن ذلك ، وقد تقدم توضيحه في تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا » الأعراف : ١٤٣ في الجزء الثامن من الكتاب .

وفيه أخرج ابو الشيخ عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، انه خطب فتلا هذه الآية في شعيب : « وإنا لنراك فينا ضعيفاً » قال : كان مكفوفاً فنسبوه الى الضعف . « ولولا رهطك لرجمناك » قال علي : فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشرة .

(كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول)

١ - هو عليه السلام ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماءهم في القرآن وهم هود وصالح وشعيب وعمر بن عبد مناف وذكر الله تعالى طرفاً من قصصه في سور الأعراف وهود والشعراء والقصص والعنكبوت .

كان عليه السلام من اهل مدين - مدينة في طريق الشام من الجزيرة - وكان معاصراً لموسى عليه السلام ، وقد زوجه إحدى ابنتيه على ان يأجره ثمانى حجج وإن أتم عشرأ فمن عنده (القصص : ٢٧) فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه وسار بأهله الى مصر .

وكان قومه من اهل مدين يعبدون الأصنام وكانوا قوماً منعمين بالأمن والرفاهية والخصب ورخص الاسعار فشاع الفساد بينهم والتطيف بنقص المكيال والميزان (هود : ٨٤ وغيرها) فأرسل الله اليهم شعيباً وأمره ان ينههم عن عبادة الأصنام وعن الفساد في الأرض ونقص المكيال والميزان فدعاهم الى ما أمر به ووعظهم بالإنذار والتبشير وذكرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط .

وبالغ عليه السلام في الاحتجاج عليهم وعظمتهم فلم يزدحم إلا طغياناً وكفراً وفسوقاً (الاعراف وهود وغيرهما من السور) ولم يؤمنوا به إلا عدة قليلة منهم فأخذوا في إيذائهم والسخرية بهم وتهديدهم عن اتباع شعيب عليه السلام ، وكانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً (الاعراف : ٨٦) . وأخذوا يرمونه عليه السلام بأنه مسحور وأنه كاذب (الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦) وأخافوه بالرجم ، وهددوه والذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتتهم (الاعراف : ٨٨) ولم يزالوا به حتى أياسوه من إيمانهم فتركهم وأنفسهم (هود : ٩٣) ودعا الله بالفتح قال : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

فأرسل الله اليهم عذاب يوم الظلّة (الشعراء : ١٨٩) وقد كانوا يستهزؤون به إن أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين وأخذتهم الصيحة (هود : ٩٤) والرجفة (الاعراف : ٩١ - العنكبوت : ٣٧) فأصبحوا في ديارهم جائعين ، ونجى شعباً ومن معه من المؤمنين (هود : ٩٤) فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (الاعراف : ٩٣) .
٢ - شخصيته المعنوية ، كان عليه السلام من زمرة الرسل المكرمين وقد أشركه الله تعالى فيما أثناهم به من الثناء الجميل في كتابه ، وقد حكى عنه فيما كلم به قومه وخاصة في سور الاعراف وهود والشعراء شيئاً كثيراً من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع مع ربه ومع الناس .

وقد سمى نفسه الرسول الأمين (الشعراء : ١٧٨) ومصلحاً (هود : ٨٨) وأنه من الصالحين (الشعراء : ٢٧) فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء ، وقد خدمه الكلم موسى بن عمران عليه السلام زهاء عشر سنين سلام الله عليه .

٣ - ذكره في التوراة ، لم تقصّ التوراة قصته مع قومه وإنما أشارت إليه في ضمن ما ذكرت قصة قتل موسى القبطي وفراره من مصر الى مديان (القصة) فسمته « رعوثيل كاهن مديان » (١) .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ - ٩٦ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ - ٩٧ . يَقْدُمُ
قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ - ٩٨ . وَاتَّبَعُوا
فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ - ٩٩ .

(بيات)

إشارة الى قصة موسى - عليه السلام - وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن ذكر بإسمه في مائة وثيقت وثلاثين موضعاً منه في بضع وثلاثين سورة وقد اعتني بتفصيل قصته أكثر من غيره غير أنه تعالى أجل القول فيها في هذه السورة فاكتمى بالإشارة الإجمالية إليها .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » الباء في قوله بآياتنا للمصاحبة اي ولقد أرسلنا موسى مصحوباً لآياتنا وذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء والرسل وأيدهم بالآيات المعجزة طائفتان منهم من أوتي الآية المعجزة على حسب ما اقترحه قومه كصالح - عليه السلام - المؤيد بآية الناقة ، وطائفة أيدوا بآية من الآيات في بدء بعثتهم كموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، كما قال تعالى خطاباً لموسى - عليه السلام : « اذهب أنت وأخوك بآياتي » طه : ٤٢ ، وقال في عيسى - عليه السلام : « ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم » الخ ، آل عمران : ٤٩ ، وقال في محمد - عليه السلام : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى والصف : ٩ ، والهدى القرآن بدليل قوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » البقرة : ٢ ، وقال تعالى : « واتبعوا النور الذي أنزل معه » الأعراف : ١٥٧ .

فموسى عليه السلام مرسل مع آيات وسلطان مبين ، وظاهر أن المراد بهذه الآيات الأمور الخارقة التي كانت تجري على يده ، ويدل على ذلك سياق قصصه عليه السلام في القرآن الكريم .

وأما السلطان وهو البرهان والحجة القاطعة التي يتسلط على العقول والأفهام فسمي الآية المعجزة والحجة العقلية ، وعلى تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العام على الخاص .

وليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذي ما ابتلي بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السلام لكن الله تعالى أظهر موسى عليه السلام حقه أغرقه وجنوده ونجى بني إسرائيل بيده ، ويشعر بهذا المعنى قوله : « قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى » طه : ٤٦ ، وقوله لموسى عليه السلام : « لا تخف إني أنا الله الأعلى » طه : ٦٨ .

وفي هذه الآية ونظائرها دلالة واضحة على أن رسالة موسى عليه السلام ما كانت تختص بقومه من بني إسرائيل بل كانت تعمهم وغيرهم .

قوله تعالى : « إلى فرعون وملأه فأتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد » نسبة رسالته إلى فرعون وملأه - والملا هم أشرف القوم وعظماؤهم الذين يملأون القلوب هيبة - دون جميع قومه لعلها للإشارة إلى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعاً لا رأي لهم إلا ما رآه لهم عظماؤهم .

وقوله : « فاتبعوا أمر فرعون » الخ ، الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعم من القول والفعل كما حكى الله عن فرعون في قوله : « قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » المؤمن : ٢٩ ، فينطبق على السنة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر بها . وكان الآية محاذاة لقول فرعون هذا فكذب الله تعالى بقوله : « وما أمر فرعون برشيد » .

والرشيد فعيل من الرشد خلاف النقي أي وما أمر فرعون بذئ رشد حتى يهدي إلى الحق بل كان ذا غي وجهالة ، وقيل : الرشيد بمعنى المرشد .

وفي الجملة أعني قوله : « وما أمر فرعون برشيد » وضع الظاهر موضع المضمير والأصل « أمره » ولعل الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتة .

قوله تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » أي يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماماً لهم من أئمة الضلال ، قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » القصص : ٤١

وقوله : « فأوردهم النار » تفريع على سابقه أي يقدمهم فيوردهم النار ، والتعبير بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع ، وربما قيل : تفريع على قوله : « فاتبعوا أمر فرعون » أي اتبعوه فأوردهم الاتباع النار ، وقد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوً وعشيً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » المؤمن : ٤٦ حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا ، ولا يخفى أن الآيات ظاهرة في خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها في العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوً وعشيً ، وفي يوم القيامة بالدخول في أشد العذاب الذي سجل فيها أنه النار .

وقوله : « وبئس الورد المورود » الورد هو الماء الذي يرده العطاش من الحيوان والإنسان للشرب ، قال الراغب في المفردات : الورد أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال : وردت الماء أرد وروداً فأنا وارد والماء مورود . وقد أوردت الإبل الماء قال : « ولما ورد ماء مدين » والورد الماء المرشح للورود . انتهى .

وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعيه المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده ، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة لكنهم لما غرّوا باتباع أمر فرعون وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقية تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هو الورد الذي يردونه ، وبئس الورد المورود ، لأن الورد هو الذي يخمد لهيب الصدر ويروي الحشا العطشان وهو عذب الماء ونعم المنهل السائغ وأما إذا تبدل إلى عذاب النار فبئس الورد المورود .

قوله تعالى : « فأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بشس الرغد المرفود » أي هم أتبعوا أمر فرعون فاتبعهم لعنة من الله في هذه الدنيا وإبعاد من رحمة وطرد من ساحة قربه ، ومصداق اللعن الذي أتبعوه هو الفرق ، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمة المكتوب في صحائف أعمالهم الذي من آثاره الفرق وعذاب الآخرة .

وقوله : « ويوم القيامة بشس الرغد المرفود » الرغد هو العطية والأصل في معناه العون ، وسميت العطية رغداً ومرفوداً لأنه عون للآخذ على حوائجه ، والمعنى وبشس الرغد رقدهم يوم القيامة وهو النار التي يسجرون فيها ، والآية نظيرة قوله في موضع آخر : « وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » القصص : ٤٢ .

وربما أخذ : « يوم القيامة » ظرفاً فالآية متعلقاً بقوله : « أتبعوا » أو بقوله : « لعنة » نظير قوله : « في هذه » ، والمعنى : « وأتبعهم الله في الدنيا والآخرة لعنة أو فاتبعهم الله لعنة الدنيا والآخرة ثم استؤنف فقيل : بشس الرغد المرفود اللعن الذي أتبعوه أو الإتياع باللعن .

فهرس ما في هذا الجزء من امهات المطالب

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	الصفحة
سورة هود ٢٥ - ٣٥	كلام في قدرة الأنبياء والأولياء	فلسفي قرآني	٢١٠
٣٦ - ٤٩	أبحاث حول قصة نوح في فصول ١- الإشارة الى قصته ٢- قصته عليه السلام في القرآن :	قرآني روائي	٢٤٧
	بعثه وإرساله ، دينه وشريعته	تاريخي فلسفي	٢٤٧
	اجتهاده في دعوته		٢٤٨
	لبشه في قومه ، صنعه الفلك		٢٤٨
	نزول العذاب ومجيء الطوفان		٢٤٩
	قضاء الأمر ونزوله ومن معه الى الأرض		٢٤٩
	قصة ابن نوح الفريق		٢٥٠
	٣- خصائص نوح عليه السلام		٢٥٠
	٤- قصته في التوراة الحاضرة		٢٥١
	٥- ما جاء في أمر الطوفان في اخبار الامم وأساطيرهم		٢٥٢
	٦- هل كانت نبوته عامة للبشر ؟		٢٥٧
	٧- هل الطوفان كان عامًا لجميع الأرض؟		٢٥٩
	بحث جيولوجي ملحق بهذا الفصل في فصول ١- الأراضي الرسوبية		٢٦٤
	٢- الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية		٢٦٦
	٣- انبساط البحار واتساعها		٢٦٧
	٤- العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان		٢٦٨
	٥- نتيجة البحث		٢٦٩
	٦- عمره عليه السلام الطويل		٢٧٠
	٧- ابن هو جبل الجودي ؟		٢٧٠
	٨- شبهة وجوابها		٢٧١

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	الصفحة
٤٩ - ٣٦	كلام في عبادة الأصنام وفيه فصول	قرآني روائي	
	١- الإنسان واطمئنانه الى الحسن	تاريخي فلسفي	٢٧٢
	٢- الإقبال الى الله بالعبادة		٢٧٤
	٣- كيف نشأت الوثنية ؟		٢٧٥
	٤- اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع وغيرهم		٢٧٧
	٥- الوثنية الصابئة		٢٧٨
	٦- الوثنية البرهمية		٢٧٩
	٧- الوثنية البوذية		٢٨٣
	٨- وثنية العرب		٢٨٥
	٩- دفاع الإسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية		٢٨٧
	١٠- بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء		٢٨٩
	كلام آخر ملحق بالكلام السابق في فصول		٢٩٠
	١- التناسخ عند الوثنيين		٢
	٢- سريان هذه المحاذير الى سائر الأديان		٢٩٣
	٣- إصلاح الإسلام لهذه المفاصل		٢٩٤
	٤- إشكال الاستشفاع والتبرك في الإسلام		٢٩٥
٦٠ - ٥٠	كلام في قصة هود	تاريخي قرآني	٣٠٧
	١- عاد قوم هود		٣٠٧
	٢- شخصية هود المعنوية		٣٠٨
٦٨ - ٦١	كلام في قصة صالح في فصول		٣١٧
	١- ثمود قوم صالح		٣١٧
	٢- بعثة صالح		٣١٨
	٣- شخصية صالح		٣١٨
٧٦ - ٦٩	كلام في قصة البشري	قرآني	٣٣٢
٨٢ - ٧٧	كلام في قصة لوط وقومه في فصول:	قرآني تاريخي	٣٥٢
	١- قصته وقصة قومه في القرآن		٣٥٢
	٢- عاقبة أمرهم		٣٥٣
	٣- شخصية لوط المعنوية		٣٥٤
	٤- لوط وقومه في التوراة		٣٥٤
٩٥ - ٨٢	كلام في معنى حرية الإنسان في عمله		٣٧٠
	كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول:	قرآني تاريخي	٣٧٧
	١- قصته		٣٧٧
	٢- شخصيته المعنوية		٣٧٨
	٣- ذكره في التوراة		٣٧٨

AL-MIZAN

FI

TAFSIR AL-KOR'AN

BY

AL-ALLAMA AB-SAID

MOHAMMAD HOSAIN AL-TABATABAI

PUBLISHED BY

Al Atami Library

BEIRUT - LEBANON

P.O. BOX 7120